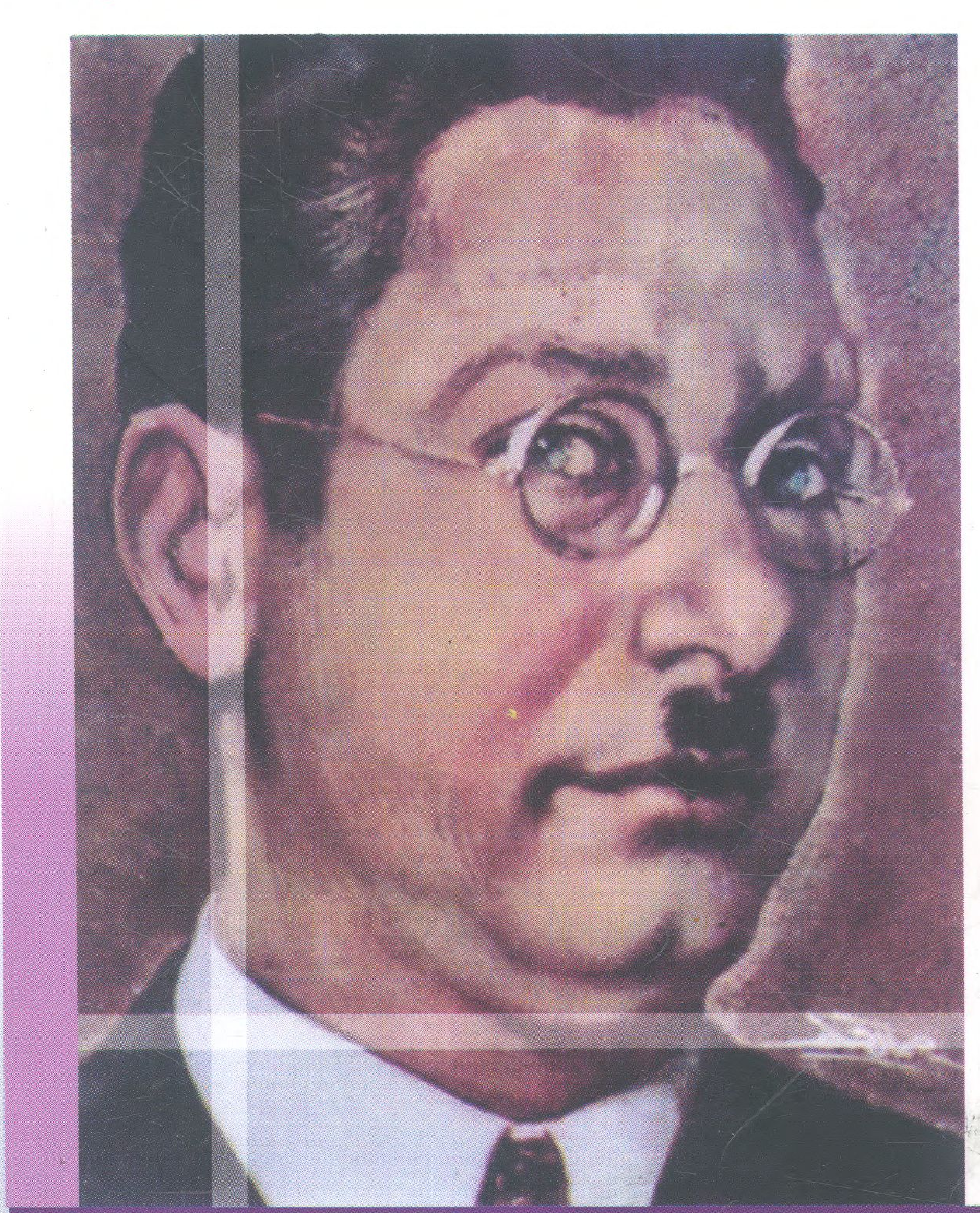
زكي مبارك
سيرة ذاتية

جمعها ونسقها: كريمة زكي مبارك
عادل الشامي





إهـــــــداء ٢٠٠٩
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

المجلس الأعلى للثقافة

زكى مبارك
سيرة ذاتية

جمعها ونسقها :

كريمة زكى مبارك

عـــادل الشـــامى



٢٠٠٧



المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

سيرة زكي مبارك الذاتية ، يرويها كريمة زكي مبارك ، عادل الشامي .. –

ط ١ – القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦

٣٦٠ ص ، ٢٤ سم

١ – الأدباء العرب

٢ – مبارك ، زكي ، تراجم

رقم الإيداع ١٥٨١٦ /٢٠٠٦

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 305 - 982 - 0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084 .

الإهـــــداء

إذا عـظـمـتْ أُنـاس بـالـعـطـايـا

فـبـالحـرمـان منهـا قـد عظمتُ

عظيم لم أقل يومًا لشـخص

لفـيض يديك ياهذا غـدوت

بناني الله وثّابًا طموحًا

أروم من المعالي ما اشتهيت

أخـاف الله أخـشـاه إذا مـا

بغـيـر جـلاله يومًا وَثِقْتُ

زكي مبارك

تمهيد

كريمة زكى مبارك

هذا الكتاب لم يكن ظهوره فى الحسبان ؛ فقد دعيت للمشاركة فى اللجنة العلمية المنبثقة عن المجلس الأعلى للثقافة للإعداد لندوة عن الكاتب الكبير زكى مبارك فى تمام الساعة الواحدة بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٠٠٦/١/٣ تحت إشراف الأستاذ الدكتور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة الدكتور جابر عصفور ورئاسة الأستاذ الدكتور صلاح فضل مقرر اللجنة .

اقترح الأستاذ الدكتور صلاح فضل أن أقدم كتاباً عن سيرة زكى مبارك الذاتية .

وقد أسعدنى الأستاذ الدكتور صلاح فضل بهذا الاقتراح ، لأننى سأعود لتأليف أو جمع وإعداد وتقديم كتاب جديد عن زكى مبارك بقلم زكى مبارك .

إن سنة ٢٠٠٦ تغمرنى بالسعادة ؛ ففى صباح أول يوم من سنة ٢٠٠٦ اتصلت بى الآنسة مها حمدى رضوان أمينة لجنة الدراسات الأدبية واللغوية لتقول إن المجلس الأعلى للثقافة قرر أن يحتفى هذا العام بالدكاترة زكى مبارك ...

يا سبحان الله ...

ستحتفل مصرنا الحبيبة هذا العام بزكى مبارك وكتاباته .

ومصرنا الحبيبة تحتفل هذا العام أيضاً باللغة العربية .

وهكذا شاء القدر أن يجمع بين الاحتفال بكتابات زكى مبارك والاحتفال باللغة العربية ... وهل أنسى أن زكى مبارك كان من أول الداعين إلى نصرة اللغة العربية ؟

وهل أنسى أن زكى مبارك طالب سنة ١٩٤٣ على صفحات مجلة الرسالة فى مقال له تحت عنوان : " عيد اللغة العربية " بالاحتفال بعيد اللغة العربية ، وختم مقاله هاتفًا :

اسمعوا صوت الزمن إن لم تسمعوا صوت الحق ، واحتفلوا معى بعيد اللغة العربية فى عيد القمر ، وهو عيد التضحية ، وعيد الوفاء .

فهل نحتفل بعيد اللغة العربية ؟

هل نحتفل كل عام بيوم اللغة العربية ... وليكن يوم بداية عمل المجلس الأعلى للثقافة تقديراً ووفاءً لما يقدمه للعلوم والآداب والفنون :

أسعدنى الأستاذ الدكتور صلاح فضل وأعادنى إلى ذكريات وذكريات ؛ ذكريات أيام عزيزة علىَّ .

وأتذكر وأتذكر ...

وأعود بالذاكرة إلى سنوات مرت حين طلب منى الزميل الإذاعي الأستاذ يوسف الشيخ كبير المذيعين بإذاعة السودان بالقاهرة أن أعطيه أرقام شرائط الإذاعة المسجل عليها صوت المغفور له الدكاترة زكى مبارك ؛ وكان زكى مبارك قد سجل للإذاعة أحاديث كثيرة ، كما غنى بصوته فى الإذاعة إحدى قصائده ، كان رأيه أن الشاعر أقدر على غناء شعره لأن الشعر غناء ...

ومع ذلك لم أجد أى شريط عليه صوت زكى مبارك ...

فكانت هذه الأبيات من وحى هذه اللحظة :

صوته سبحان ربى كالنشيد   كل لفظ يسحر القلب الشريدْ

كله روح وحب وسنا   وحنان يسعد القلب العميد

حين يمضى يتغنى بالهوى   ترقص الألحان تبدو يوم عيد

لغة الضاد وكم يسمو بها   كل نقد يحتوينا ... بل يزيد

رائد عزّ المديح " النبوى "   فكره الدينى منار ويقود

والقوافى فى سجودْ

حين يشدو أو يجود

فارس للفكر والرأى السديدْ   كل معنى خطه بيت القصيدُ

إن يقل لا أو نعم يمضى وحيدْ   هكذا من جاد دوما بالجديد

فيلسوف مسلم قلب ودودْ   نثره أو شعره هزّ الوجود

صوته عذب ... حبيب آسرْ   لو روى الروح لهامت فى الخلود

إنه سبحان ربى كالنشيدْ   حين ينساب فإنا فى سجود

ومن سنوات وسنوات خطر فى البال أن زكى مبارك لم يكتب مذكراته ، وفكرت فى أن أنقل عنه بعض مذكراته ولكن كيف ؟

إن زكى مبارك لم يترك كبيرة ولا صغيرة من شئون حياته إلا دونها فى مقالاته .. كتب فى كل شىء وعن أى شىء وبإسهاب .

يقول زكى مبارك على صفحات جريدة البلاغ فى التاسع عشر من أغسطس سنة ١٩٤٧ :

« أنا لا أدون مذكرات لما يصادفنى فى حياتى من المتاعب وإنما أختزن ذلك فى قرارة نفسى ، فإذا لاحت فرصة دونت ما رأيت كما وقع بلا تغيير ولا تبديل ».

ويوم صافحتنى مذكرات زكى مبارك على صفحات الجرائد والمجلات فكرت فى نشرها فى كتاب تحت عنوان :

« زكى مبارك بقلم زكى مبارك » وكتبت أول مقالة : تحت هذا العنوان وأعطيته للمسئول عن مجلة الرسالة فى عهدها الثانى ، ولكنه سامحه الله حذف العنوان ووضع عنوان مقالى لمقالة أخرى نشرها بإمضائه عن أحد الأدباء الراحلين إلى عالم البقاء ، وكان ذلك على ما أذكر فى يناير ١٩٦٤

وفى سنة ١٩٧٤ طلب منى مشكوراً الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة أن أنشر فى المجلة مقالات عن زكى مبارك ، وفعلاً بدأت أنشر تحت عنوان : " أيامى مع زكى مبارك " وكان المقال الأول فى أغسطس سنة ١٩٧٤ وفى العدد رقم ١١

فى بداية المقال قلت :

فى يناير من كل عام أعيش أيامى من خلال ذكريات حبيبة إلى نفسى ... ذكرياتى يوم كان لى أب وكانت لى أم ...

وأتذكر كيف أخذت منى الأيام الأب والأم ... وكيف صيرتنى وحيدة وحرمتنى كل حنان .. وكيف جفت أيامى بعد أن طلاها السواد ... بعد أن كان اللون الأحمر الحبيب إلى نفسى يملأ حياتى ... حتى لون حجرتى كان أحمر ورديا ؛ أيام كان لى حجرة خاصة بى فى منزلنا بمصر الجديدة يوم ضمتنى أسرة كانت سعيدة فى يوم من الأيام .

كنا دائماً نقطن « فيلا من دورين » الدور الأول الأرضى يضمنا أنا وأمى وإخوتى بينما يعيش أبى فى الطابق الأعلى بمفرده . وكانت حجرة نوم أبى فوق حجرتى مباشرة ، وكان أبى يكتب فى أى ساعة من ساعات الليل أو النهار ، وكثيراً ما قضى الليل ساهراً فى القراءة والكتابة .. وفى بعض الليالى كان ينام إذا انتصف الليل ساعة أو بعض ساعة ثم يصحو ليواصل الكتابة حتى طلوع الشمس .. وكنت لا أستطيع النوم حين يسهر أبى ... كنت أشعر بخلجات قلبه من خطواته فوق رأسى .. إن كان سعيداً أحسست به .. وإن كان تعيساً عشت معه ... وكانت سنوات حياة أبى الأخيرة، كلها تعاسة .. وتلونت أيامى بأحاسيسه المريرة .. وكثيراً ما نمت ودموعى على خدى، فقد كانت خطواته الحزينة تعتصر قلبى وتكتم أنفاسى ، ولكنى يومها لم أكن أستطيع أن أفعل شيئًا ... كانت حياة أبى بمفرده فى الطابق الأعلى شغلى الشاغل وأذكر أننى كتبت فى مجلة الرسالة من حوالى عشر سنوات تقريباً عن هذا البرج العاجى الذى كان يعيش فيه زكى مبارك ... هذا البرج العاجى له عندى ذكريات وذكريات .. وما زلت للآن كلما رن جرس الباب أتذكر بيتنا فى مصر الجديدة .. لقد كان الجرس فى بيتنا هو همزة الوصل بين الطابقين وبمعنى أوضح بيننا وبين أبى ، فقد كان دائما فى الفيلا جرس يربط بين الطابقين فكان أبى إذا رن الجرس مرة واحدة فمعنى ذلك أن أمى هى المطلوبة ، فتصعد أمى إليه لتلبى طلباته ثم تعود .. وإذا رن أبى الجرس مرتين كان أخى الأكبر هو المطلوب .. وعلى هذا كنت أنا أحمل الرقم « ٥ » فى بيتنا ... فإذا رن أبى الجرس خمس مرات كنت أنا المطلوبة ...

وذات يوم ... لم ولن أنساه أبد الدهر كنت أقف على عتبة الباب مع أبى فى انتظار مصروفى اليومى قبل أن ينصرف أبى إلى عمله ، ومرت علينا سيارة

مسرعة ، ورغم أن مرورها كان خاطفًا فإن لونها الأحمر الجميل ، ذلك اللون الذى أحبه ، شدنى إليها فهفا لها القلب وافتر ثغرى عن ابتسامة أمل حلوة في أن تكون لنا فى يوم من الأيام سيارة كهذه حمراء اللون فقلت لأبى : يا أبى لماذا لا تشترى لنا سيارة حمراء اللون ؟

وابتسم أبى ابتسامة غمض علىَّ إدراك معناها فى ذلك الوقت ، وقال وهو يهز رأسه :

خذى إذنًا من الملك .

وطبعًا لم أفهم شيئًا مما يقصده أبى ، فعدت أسأله بسذاجة الطفولة وبراءتها :

وهل بيننا يا أبى وبين الملك صلة قرابة حتى نأخذ رأيه فيما نشترى ؟

قال زكى مبارك : أجل بيننا وبين الملك صلة ، صلة الحاكم بالمحكوم ... والحاكم إذا ضل تحكم فينا وفى كل ما نمتلك ... الحاكم يا ابنتى إذا فقد الطريق تحكم حتى فى الأهواء والألوان !!

إننا يا ابنتى لا نستطيع أن نشترى سيارة حمراء اللون أبدًا !!

وذعرت من كلام أبى حين علقت بذهنى آخر جملة نطق بها أبى : لن تكون لنا سيارة حمراء اللون أبدًا ... : أبدًا ... أبدًا .

لم أفهم السبب فعدت أقول له بدهشة : لماذا يا أبى ؟ أليست معك نقود ؟

إذن أدخر مصروفى هذا يا أبى ؟!

وابتسم زكى مبارك وقال : ليس السبب النقود يا ابنتى ولكن السبب أكثر من هذا بكثير ... هناك الفوارق الاجتماعية ... هناك الطبقات ... هناك الأسياد والعبيد ... وصمت زكى مبارك وأدار وجهه عني وانصرف ... ونزل صمته وانصرافه فجأة على قلبى كالضربة القاصمة ... وظلت كلمات أبى : لن تكون لنا أبدا سيارة حمراء اللون أبدا ... أبدا ... أبدا ... ظلت هذه الكلمات تطن فى أذنى وتعلو وتعلو ... ومع مرور الأيام كنت أكبر وتكبر معى هذه الكلمات وتتضح أمام عينى .. إن اللون الأحمر فى السيارات خاص بالسراى الملكية وحدها !!

وأصبح اللون الأحمر الحبيب إلى نفسى ... اللون الذى أحبه وأعشقه هو نفس اللون الذى سيخلصنا من العبودية ... من الاحتكار والاستغلال .

والآن أعود من حيث بدأت .. أعود لأقول إننى من سنوات وسنوات وأنا أعيش مع مذكرات زكى مبارك من خلال ذكرياته ، ولكنها أتعبتنى جدا ، فلقد كان من السهل أن أقدم للقارئ كتاباً عن زكى مبارك بقلمى ، فى حين أنه من الصعوبة بمكان أن أقدم للقارئ زكى مبارك بقلم زكى مبارك ، ولكنى اخترت الأصعب ، لأن زكى مبارك يسكب رحيق قلمه فى مجرى الزمان وقلب الوجود كما أنه شاهد على العصر ، يقول الكاتب الكبير الدكتور زكى مبارك إن الكاتب الحق لا يخاطب العصر وحده ، وإنما يسكب رحيق قلمه فى مجرى الزمان وقلب الوجود ، ومن هنا أتعبتنى جدا مذكرات زكى مبارك إذ اقتضى ذلك منى أن أقرأ صفحات وصفحات ، وأن أختار منها أقل القليل ، فلقد كان من الممكن أن تملأ مجلدات ومجلدات ولكن من أين لى النقود التى أستطيع أن أطبع بها ما أجمع من مجلدات ؟

ولهذا اخترت أقل القليل كما قلت . وأشهد أننى لم أتدخل فى هذه المذكرات إلا برفع حرف عطف أو إضافة حرف عطف أو أداة وصل إذا اقتضى الأمر ذلك ، وأنا فى كل هذا قد دونت التواريخ ، وكل التواريخ التى ذكرت بدون اسم المرجع فهى منقولة من جريدة البلاغ ، حتى يعود إليها القارئ حين يشاء ، وإن كنت لم أرتبط بالتدرج التاريخى ، بل اهتممت بتسلسل الأحداث لأن زكى مبارك كما قال هو نفسه كان يختزن ما يصادفه فى حياته ويدونه حين تتاح له الفرصة .

إن بعض مقالات أمير البيان الدكاترة زكى مبارك كانت أشبه بالاعترافات الواقعية الصادقة فقد قال فيها كل شىء له وعليه .

ثم ماذا ؟

ثم أقول :

فى يوم ثلاثاء غاب عنى زكى مبارك ، وفى يناير ١٩٥٢ رحل عن عالمى زكى مبارك .

وفى يوم ثلاثاء من شهر يناير سنة ٢٠٠٦ أسعدنى الأستاذ الدكتور صلاح فضل حين اقترح أن أقدم كتاباً عن سيرة زكى مبارك الذاتية .

فأجد أنه يجب علىَّ أن أفرح لأن مصر أنجبت كاتباً وأديباً وشاعرا قهر المصاعب التى صادفته ، واستطاع بما ترك من قيم نبيلة للشرف والشجاعة والرجولة ، وبما تركه من تراث سيبقى على الزمن أن نحتفى به وبكتاباته بعد رحيله وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

والآن ماذا أريد أن أقول ؟

أقول ربما أكون قد ظلمت زكى مبارك حين قدمت كتاب : " زكى مبارك بقلم زكى مبارك " لأننى كما قلت قد اخترت أقل القليل من آراء زكى مبارك .

واليوم أنصف زكى مبارك بتقديم هذا الكتاب الذى ربما يكون قد ضم معظم آراء زكى مبارك فى مختلف مناحى الحياة .

والحقيقة أن صاحب الفضل فى إنصاف زكى مبارك هو الأديب الناقد الأستاذ الدكتور صلاح فضل الذى طلب منى مشكوراً كتاباً يستحق بجدارة أن يكون سيرة زكى مبارك الذاتية .

والآن مع زكى مبارك ليقدم لنا سيرته الذاتية .

تقديم

عادل الشامى

كان أمير البيان الدكاترة زكى مبارك – كما كانت تطلق عليه مجلة الرسالة – ينشر مقالات عديدة على صفحات مجلة الرسالة لصاحبها الأستاذ أحمد حسن الزيات .. وكانت مقالات الدكتور زكى مبارك تشدنى .

تحت عنوان : " وطنى وبلادى " كلمة لزكى مبارك على صفحات مجلة الرسالة فى ١٩٤٢/٨/٣١ قال فيها :

إن بلادنا لن تضام أبداً ، ولن تكون لغير أهلها ولو تألبت عليها جيوش البر والبحر والهواء .

بلادنا باقية باقية ، فى عزة وعافية ، ولن تنال منها المطامع الدولية إلا بقدر ما ينال النسيم المعلول من قمم الجبال .

بلادنا طوقت جميع البلاد بأغلال الديون العقلية والروحية ، ولن يتنفس بلد فى شرق أو غرب إلا وهو مدين لمصر بديون ثقال .

لا تنسوا أن بلادكم دانت الفكر والعقل والروح ألوفًا من السنين .

ولا تنسوا أن أكبر مجد يظفر به الأوربى المثقف هو أن يحل رمزاً من رموز آبائكم الأولين .

كان الخط المصرى القديم إشارات من ملامح الطير والحيوان ، فما تفسير ذلك ؟

يقول الجاهلون إنه دليل على الطفولة التاريخية .

وأقول إنه دليل على العبقرية المصرية ، لأنه يجعل كل حرف كائنًا حيًا من طير أو حيوان ، والحروف خلائق حية عند من يعقلون .

ثم ماذا ؟

ثم أذكر أن بلادنا هى التى صدت المغول الوافدين من الشرق ، وهى التى صدت الصليبيين الوافدين من الغرب ، فكنا الميزان لأبناء ذلك الزمان .

ومن نحن اليوم ؟

برغم قسوة الظروف استطعنا أن نقول نحن ، وأن نفى بالعهد لأن مصر لا تكذب ولا تخون .

لن تضام مصر أبدًا ؟ لأنها وطن الرجال وأول وطن غلب الدهر الخوان .

أحبك يا وطنى ، أحبك يا بلادى : حبًا لا ينتظر أى جزاء لأنه أعظم من أى جزاء .

ثم ماذا ؟

سنة ١٩٤٤ اتصل الدكتور زكى مبارك بالأستاذ أحمد حسن الزيات صباح يوم عرفات وقال له إنه نظم قصيدة « غرام يوم الثلاثاء » وأنه سيتركها لتنشر فى مجلة الرسالة حتى يستريح من غناء القصيدة بعد نصف الليل ، وهو أصلح الأوقات للغناء .

ثم يقول الشاعر زكى مبارك على صفحات ديوانه الثانى " ألحان الخلود " :

رأى صديق عزيز أن يغنيه الأستاذ محمد عبد الوهاب ، وقابلت صديقى عبد الوهاب فى مكتبه بشارع توفيق .. من يصدق أن هذا الباكى الشاكى رجل أعمال ؟!

قدمت إليه القصيدة ومعنا معالى الأستاذ عبد الحميد عبد الحق ، فنظر فى القصيدة لحظات ثم اقترح تعديلات فما تلك التعديلات ؟

إنه اقترح أن أنوع فى الأوزان ليلعب كما ألعب ؛ وذلك نص كلامه بالحرف ، وما كنت يوماً من اللاعبين .

وهنا أذكر أن الأستاذ عبد الوهاب اعترض على هذه الزفرة المحرقة :

يا ليلْ ، ياليلى ، يا ليلْ

وقال : سأترك هذه الكلمات عند الغناء .

فقلت : ولكنى كنت أهتف بهذه الكلمات عند كل فاصلة من فواصل القصيدة .. فتأمل لحظة ثم قال :

هذه كلمات غير مفهومة ، ولكنها " شمهورش " والجن وحى يضلل الشعراء .

وبعد ذلك يقول الشاعر زكى مبارك إنه التقى بالصديق وهيب دوس وحدثه فى الطريق عن القصيدة والتحرر من مراعاة ما يسمى فى علم العروض بالإيطاء، وأنه يرى أن اللفظة تقبل بكل ترحيب حين يوجب المعنى .

وفى القاهرة اتصل بعبد الوهاب واتصل بأم كلثوم لتغنى القصيدة ولكن التليفون صمت هنا وهناك .

يقول الشاعر زكى مبارك :

ثم خطر فى البال أن أغنى قصيدتى فى محطة الإذاعة بصوتى وهو فى رخامة صوت الموسيقار عبد الوهاب ، ولكن أبنائى اعترضوا ، فما يجوز عندهم أن يكون أبوهم من المغنين وهو يملك مجموعة من الألقاب العلمية .

قلت لأبنائى : ألا تسمعوننى أغنى من حين إلى حين بقوة تنقل صوتى من الدور الثانى إلى أسماعكم فى الدور الأول ؟

قالوا : نعم .

قلت : أنا أغنى أشعارى حين يجود بها الوحى ، فما الذى يمنع من تقديم صورة ناطقة يعرف بها الجمهور كيف أنظم أشعارى ؟

قالوا : وأين الملحن .

قلت : أنا الملحن ... فالشعر شعرى وأنا ألحنه بالصورة التى تموجت بها خفقات قلبى .

لم يكن من السهل أن أقنع أبنائى ، وهل أقنعت نفسى حتى أقنع أبنائى ؟

إن جاز أن أغنى هذه القصيدة فى محطة الإذاعة فيجب أن أكون فى حال تشبه حالى فى الأوقات التى نظمت فيها هذه القصيدة ... وهذا غير ممكن ، ففى المذيعين فريق من تلاميذى ، ولم يرنى أحد من تلاميذى فى لحظة بكاء .

نظمت القصيدة وأنا أبكى من الفرح ، وأصرخ من الفرح ، فما أنعم الله على شاعر بمثل ما أنعم علىَّ بإقبال تلك الروح .

من حق الحياة أن تصنع بأبنائها ما تريد فتسعدهم أو تشقيهم كما تريد ، ولكننى فوق الحياة ، لأننى العاشق المسيطر على تلك الروح ؛ فلى مع هذه الروح فى ليلة عيد القمر ميعاد .

ولكن الروح الذى أوحى القصيدة عليل ولم يخرج من داره فى يوم العيد ، فماذا أصنع ؟ رأيت أن أغنى ليسمع وحى هواه لعله يطيب .

وسمع أصدقاء كرام بما اعتزمته فنهونى ، وكانت حجتهم أنه لا يليق برجل فى مثل منزلتى أن يغنى وفاتهم أن الشعر هو فى روحه غناء .

ترددت مرة ومرتين ومرات ثم صممت على أن أغنى ليسمع ذلك الروح أنى لعلته عليل .

غرام يوم الثلاثاء : ١٩٤٥/١١/٢٧

كان ذلك اليوم أغرب الأيام فى حياتى وهو اليوم الذى غنيت فيه بمحطة الإذاعة العربية ، لقد غنيت وأنا أبكى وما كنت أتوهم أن لى قدرة على البكاء ، لقد شاب رأسى وشاب غرامى ، والحزن يحتاج إلى قوة لأنه الدليل على شعورنا بما فقدناه من أفراح الوجود .

أنا عرضت الفكرة على الأستاذ محمد فتحى وعلى خليل فرأيا الفكرة مبتكرة وأن من الوفاء للأدب والفن أن يغنى الشعراء أشعارهم فى الجو الروحانى ؛ الجو الذى تنسَموا هواءه وهواه وهم يغنون .

ثم جاءت ساعة الامتحان ، ومن المحنة جاء الامتحان ، فحضر فريق من رجال الإذاعة ليسمعوا صوتى وأنا أغنى :

حضر مصطفى بك رضا والأستاذ على خليل وعبد الوهاب يوسف الذى قدمنى إلى الجمهور بأسلوبه اللطيف .

ثم يظهر نور أحمر وأخضر وأصفر وهى أنوار تؤذن بأننى سأغنى فأقول :

يا ليلْ ، ياليلى ، ياليلْ

ثم ينطلق صوتى وينفجر دمعى فأقول :

يا ساقى الراح هات الراح ياساقى

من نور خديْك أو من نار أشواقى

واشرب رحيق الهوى الفضاح يا ساقى

من نظرتى لك فى ساعات إشراقى

وينتهى التسجيل فيقبل المذيعون مهنئين وهم فى اندهاش واستغراب .

«آه ثم آه من بلائى بغرامى فقد نظمت فى غرام يوم الثلاثاء قصائد تزيد عن العشرين » .

قصيدة غرام يوم الثلاثاء طويلة ولهذا أقتطف منها بعض الأبيات والتى ذكر فيها شاعرنا زكى مبارك يوم الثلاثاء :

مصر الجديدة أيام الثلاثاء

كانت ملاعب أطرابى وأهوائى

يا فاطر الشعر فى يوم الثلاثاء

متى يعود لنا يوم الثلاثاء

* * *

ياليل ، ياليلى ، ياليل

* * *

مصر الجديدة أيام الثلاثاء

تشكو اغترابى أيام الثلاثاء

* * *

الكأس بين يديْك

الكأس فى شفتيك

هات اسقنى هات

هات اسقنى هات

أسقيك إن شئت أكواب الثلاثاء

يا فاطر الشعر فى يوم الثلاثاء

وهنا يشغلني يوم الثلاثاء في حياة الشاعر زكي مبارك فأعود للبحث عن يوم الثلاثاء في قصائده ، وأترك ديوانه الثاني ألحان الخلود وأعود لديوانه الأول : " ديوان زكي مبارك " والذي صدر سنة ١٩٢٣ ، فأقرأ تحت عنوان : " إلى " قصيدة يستهلها الشاعر زكي مبارك بقوله :

مـــا الذي أنكرت مني	في مـــســـاء الثـــلاثاء
حـين نـام الـدهـر عـنـا	وتولى الرقـــبـــاء
أنا لا أذكـــر شـــيـئـــا	يقـتـضي هذا الجـفـاء

وأتتبع دواوين الشاعر زكي مبارك فتصافحني قصيدة بعنوان : " ليلة العيد " على صفحات ديوانه الثالث : " قصائد لها تاريخ " وألتقي فيها بهذا البيت :

الفـــقـــر ذل تشين المرء طلعـــتـــه

كـــأنه البـــؤس في يوم الثـــلاثاء

* * *

وقد شدَّ انتباهي عند قراءاتي للشاعر زكي مبارك أنه كان يطلق على نفسه شاعر يوم الثلاثاء ، يقول على صفحات جريدة البلاغ في العاشر من أكتوبر سنة ١٩٤٨ .

ذهبت مع الصبح في سيارة إلى جريدة البلاغ لأسأل عن السبب في منع مقال حذفه إنسان ما .

كان ذلك في صباح يوم الثلاثاء وهو يوم غريب في حياتي بصورة تفوق الوصف .

أنا أستبشر بهذا اليوم ، وقد ظهر من البحث أنني من مواليد يوم الثلاثاء .

هل يستطع هذا الإنسان أن يمنع نشر هذه الأبيات :

تـذكـــــرت يوم الـثـــــلاثـاء أننـي
لقيتك واستوحيت روحك فى شعرى

وأقـــبلت أرتاد الجــمـــال بنـاظر
حــــواك إلى قلبى وإن لم تكن تدرى

وقـــد مـــرت الأيام مـــراً كـــأنهـــا
خـــواطر قلب هام فى طلعـة الفـجـــر

والقصيدة طويلة وهى على صفحات ديوان زكى مبارك الرابع :

« أطياف الخيال » وقد صدر الديوان عن مكتبة مصر بالفجالة سنة ١٩٨٧ .

يقول الشاعر زكى مبارك فى مقدمة قصيدته « أطياف الخيال » والتى يحمل الديوان اسمها ، والقصيدة بتاريخ ١٩٤٧/٩/٢٩ :

من المستحيل أن يكون جميع ما أذكره فى أشعارى من أخبار عن صبواتى وقع بالفعل ، فذلك يقتضى أن أنهب جميع المفاتن وأن يكون طعامى من لحوم النسور ، وأن يكون شرابى من عصير الخدود .

إن لى غرضاً وطنياً من هذه الصور الشعرية ، وذلك الغرض هو إغناء الأدب العربى ... وأنا أعترف بأنى خائف من أن يضيع أبناؤنا من أيدينا لأنهم لا يجدون عندنا من الصور البيانية بعض ما يجدون فى الأدب الأوربى :

يـاليــالى الوصل فى ســر الجــمــال
والهــوى يضـــرب أحـــوالا بحـــال
الـهـــــــوى أراه أم هــذا ضــــــلال
إننـى أعـــشق أطيـــاف الخــيـــال

ويقول زكى مبارك على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٩٥١/١/١٦ :

نفترض أنه كانت لى محبوبة اسمها سعدية ، وقد عانقتها فى اسكندرية وقلت فيها :

ذكرت فراقك في عودتي ونحت على الليلة الماضيهْ

فبالرمل كنا وكان الصفاء هو الخمر في الأكؤس الصافيه

وأعيش مع زكى مبارك ومع قصائده وأشعاره عن يوم الثلاثاء ، فألتقى فى ديوانه الخامس : " أحلام الحب " والذى صدر سنة ١٩٨٩ عن دار الزهراء للطباعة والنشر بالعباسية بقصيدة طويلة يختتمها الشاعر زكى مبارك بهذه الأبيات :

كيف ضاع الحب يوم الثلاثاء ؟

وهو روح نورها من كهرباء

كلما قلنا غفت أحلامنا

سلط الحسن عليها الكهرباء

وفى قصيدة بعنوان : " الهوى يعود " نلتقى بهذا البيت :

أيامنا تلك كانت نعمة حضرتْ

كأنها الصبح فى يوم الثلاثاء

* * *

ثم أعود والعود أحمد ، أعود للديوان الثانى للشاعر زكى مبارك « ألحان الخلود »، ففى قصيدة بعنوان : غناء ليلة الميلاد " يقول الأديب زكى مبارك فى المقدمة النثرية للقصيدة فيما يقول : " إنه شعر أوحاه جمال الجمال ، وأنا أستهديه ليلة الميلاد فى مساء يوم الثلاثاء ".

والقصيدة طويلة وفيها هذا البيت :

غنيتك الشعر من روحى فطرت به

مع الملائك فى يوم الثلاثاء

وعلى صفحات الديوان الثانى أيضاً وفى قصيدة عصماء بعنوان :

" احتجاب البلبل " نلتقى بهذا البيت :

والوعد منك نعيم ، إن موقعه

مصر الجديدة فى يوم الثلاثاء

يقول الشاعر زكى مبارك ليوم الثلاثاء فى حياتى تاريخ وتواريخ ... ففى حديثه على صفحات ديوانه الثانى ألحان الخلود وتحت عنوان : " تحدى الشعر العربى للشعر الفرنسى " ينشر الشاعر زكى مبارك قصيدة تزيد أبياتها عن المائتين .. وفى القصيدة هذان البيتان :

لا تنسى ياروح أيام الثلاثاء

يا فاطر الحب فى يوم الثلاثاء

لا تنسى يا روح أحلام الثلاثاء

يا فاطر الشعر فى يوم الثلاثاء

وفى منتصف القصيدة نلتقى بهذا البيت :

يوم الثلاثاء ناديه وملعبه

وللمواقيت أرواح وأبدان

بعد ذلك وتحت عنوان : " من حرب إلى حرب " يقول الشاعر زكى مبارك فيما يقول : هذا عنوان سأتخذه عنوانا للقصيدة الآتية ، وهى صبابة الكأس من القصيدة الماضية ، القصيدة التى تحدثت فيها عن غراميات شبرا وأسيوط وسنتريس :

وبعد حديث طويل عن السبب فى هذا العنوان يقول زكى مبارك :

ثم ماذا ؟

ثم أذكر أن الأبيات الآتية صبابة الكأس من القصيدة الماضية ، فقد تذكر الشاعر وهو يتأهب لاعتلاء قطار أسيوط أن له موعداً فى مساء ذلك اليوم ؛ يوم الثلاثاء ... فرجع إلى مصر الجديدة وهو يعانى ثورتين : ثورة الأمس على الحرمان من رؤية أسيوط ، وثورة الشوق إلى الظفر بموعد ذلك المساء . وعن هاتين الثورتين يقول :

أسافر فى يوم الثلاثاء ليتنى

سأعرف ما يوم الثلاثاء يفعل ؟

أعندك يا " باب الحديد " حصانة

عليها إذا أخلفت وعداً أعول

سأرجع يا " باب الحديد " وأنثنى

لأعرف من بلواى ما كنت أجهل

عزيز علىَّ يا يوم الثلاثاء أن يرى

غرامى عن مصر الجديدة يرحل

* * *

كانت الأبيات السابقة هى استهلال الشاعر زكى مبارك لقصيدته التى تقترب من المائتى بيت على صفحات ديوانه « ألحان الخلود » .

وعلى صفحات الديوان أيضاً وتحت عنوان : " إليك " قصيدة تقترب من الخمسين بيتًا ، أنقل منها فقط الأبيات التى ذكر فيها يوم الثلاثاء :

يقــول عنك خطاب صــيغ من لعب

إنـى أهـنـتـك فـى يـوم الـثــــلاثـاء

* * *

أمـخلف أنت مــا هذا ؟ أمـا شــهـدت

بـصــــدق وعــــدك أيام الثـــلاثـاء ؟

* * *

فـضــحـتنى ، لا جـزاك الحب صــالحـة

ولا تمـردت فـى يـوم الـثـــــــلاثـاء

ولا أشــقـى منك لومًـــا يدّعى كــذبًا

أنْ ســوف تنسى مـواعـيـد الثـلاثاء

* * *

تعـــال لا تدّخـــر لُقـــيـــاك عند غــدٍ

ولا تـقـل عــــيــــدُنـا يوم الثــــلاثاء

أُوَّاهُ من مــوعـد يهــفــو له كـبــدى

قُلْ لى بوجــهك مــا يوم الثـــلاثـاء ؟

* * *

أنا الطبيب فلا تسأل سواى فما

نجاة روحك فى غير الثلاثاء

بخلت فابخلْ وَدَعنى أدّخر شغفى

لحاسديك على فتكى وإغوائى

إن يغلبوك على قلبى فما بخلوا

إيحاؤك الشعر فى يوم الثلاثاء

* * *

إن يعجبوا من غرامى فيك قل لهم

إنى عرفتك فى يوم الثلاثاء

فضحتنى يا جميلاً كله تحف

كأنه الصبح فى يوم الثلاثاء

ثلاثة منك أغرونى بحسنهم

فجئت أدعوك فى يوم الثلاثاء

وما الثلاثة لا تسأل فأنت بها

أدرى بحسنك يا روح الثلاثاء "

* * *

وأسأل الوالدة الأديبة الشاعرة كريمة زكى مبارك عن يوم الثلاثاء فى حياة والدها الدكاترة زكى مبارك فتقول : إن زكى مبارك ولد فى الخامس من أغسطس سنة ١٨٩١ ؛ والخامس من أغسطس ١٨٩١ كان يوم أربعاء ، وفى الريف وفى ذلك

الحين عندما يولد الطفل لم يكن يكتب فى نفس اليوم ... فزكى مبارك قيد فى دفتر المواليد فى اليوم الثانى أى يوم الأربعاء مع أنه ولد يوم ثلاثاء ، ولقد أخبره والده – رحمة الله عليه بأنه ولد يوم ثلاثاء .

فى إحدى قصائد زكى مبارك وهى بعنوان " : آه من وجدى سلطان الجمال " وهى إحدى قصائد ديوانه الخامس " أحلام الحب " والتى نشرت من قبل على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٩٥١/١/٢٣ يختتم الشاعر زكى مبارك قصيدته بقوله :

قل كما شئت و . . . واحلف يا عزول

كل كـــرب بعـــد يوم ســـيـــزول

فهل كان زكى مبارك يتنبأ بأن الكرب سيــزول ، وأنه على ميعاد مع يوم الثلاثاء ؟

ما أغرب تصاريف القدر ؟!

يولد زكى مبارك يوم ثلاثاء ، ويسقط فى الطريق ويصاب فى رأسه يوم ثلاثاء وينقل إلى مستشفى الدمرداش بالقاهرة ويتم له إجراء عملية جراحية " تربنة فى المخ" ويظل فى غيبوبة حتى يرحل عن عالمنا .

يقول الشاعر زكى مبارك فى إحدى قصائده :

أســـافــــر فى يوم الثــلاثاء ليــتنى

ســأعــرف مــا يوم الثــلاثاء يفـعل

عـــزيز علىَّ يا يوم الثـــلاثاء أن يرى

غـــرامى عن مـــصـــر الجـــديدة يرحل

ويرحل زكى مبارك عن مصر الجديدة ...

ومصر الجديدة بقعة كريمة من بقاع مصر الحبيبة ، وكان زكى مبارك يقول إنه موكل بالحديث عن البقاع الكريمة فى وطنه ، وأنه لم يدخل بلداً إلا أحبه أصدق الحب، لأنه يرى بضميره وجه الله فى كل مكان ....

يرحل زكى مبارك ... يرحل عن عالمنا فى الثالث والعشرين من يناير سنة ١٩٥٢.

طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه .

بداية المطاف

ولدتنى أمى فى الخامس من أغسطس سنة ١٨٩١ فأضيف إلى الوجود خير جديد وشر جديد »

زكى مبارك

نذر أبى وأنا فى بطن أمى أن يسمينى محمداً ونذر أن يحفظنى القرآن الشريف.[١]

وكان أبى نذر إن عاش له ولد أن يهبه للقرآن ، فدخلت الكُتَّاب فى سن مبكرة وحفظت القرآن كله فى شهور ، ثم أخذت أعيده من يوم إلى يوم لأقضى فى الكُتَّاب سنتين ...[٢]

كان الكُتَّاب – بضم الكاف وتشديد التاء – أضحوكة الأضاحيك[٣] ، وكان سيدنا رجلاً طيب القلب إلى حد الغلظة ، كان يجلس على دكة عريضة وبيده " جريدة "[٤] يضرب بها من يشاء بغير حساب ، وحين يتعب من الضرب يترك لى أنا ضرب الأطفال ؛ فكنت أضرب من أستثقل ظله وأعفى من أستلطف .

كان لسيدنا الشيخ مطواة يبرى بها الأقلام ، وكان يعتقد أنها أمضى مطواة رآها الناس[٥].

---

(١) ١٩٥٠/٣/٢٦

(٢) ١٩٤٨/٨/٢

(٣) ١٩٤٧/٨/١١

(٤) الجريدة التى يقصدها زكى مبارك هى من سعف النخيل (وهى كالعصا) .

(٥) ١٩٤٨/٨/٢

كان الكُتّاب أولاً ملحقًا بالجامع ، ولكن أهل البلد رأوا أن يهدموا الجامع ليبنوه من جديد ، فانتقل الكتاب إلى مخزن تبن بجوار الجامع .. كنا نجلس فوق التبن كما كنا نجلس فوق الأرض ... ولكن سيدنا تقع منه المطواة فلا يدرى أين وقعت ولابد من أن يكون أحد الأطفال أخذها فماذا يصنع سيدنا ؟

رأى أن يوضع كل طفل فى " الفلقة " وأن يضرب " بالزخمة " على رجليه إلى أن يعترف ، وحين جاء دورى قلت : أنا الذى سرقت المطواة ، فقال : وأين هى ؟ قلت : فى البيت ، قال: روح هاتها يا حرامى . جريت إلى الدار وأخبرت أبى بما وقع فخرج معى وفى يده خيزرانة ، فانزعج سيدنا حين رآه ، وقال أبى ماهذا الذى تصنع ؟

فقال سيدنا : بعد أن ضربت ثلاثين طفلاً وجاء دور زكى واعترف بسرقة المطواة هدأت ، وأخذ الأطفال يقرأون فى الألواح ، وقبل أن تحضر بلحظة واحدة نظرت فوجدت المطواة بجانبي على الدكة ... خرج أبى بعد أن قبلنى وقال : يعجبنى ذكاؤك .

كنت فى طفولتى شيطاناً من الشياطين ، وكانت السباحة ممنوعة على الأطفال وكان لسيدنا الشيخ ختم من الطين المحروق – يختم به سيقان الأطفال يوم الخميس ليرى يوم السبت أنهم لم يستحموا فى الترعة ، فقد كان الخوف من الغرق مرضًا يساور جميع الآباء . ولكن موج الترعة كان يستهوينى فأخذت قطعة من الطين وسويتها بيدى وخططت عليها تلك الخطوط ثم وضعتها فى " المحمى " فاستوت ، وفى صباح كل سبت أنثر عليها الحبر وأختم بها ساقى فيعرف الشيخ أننى لم أنزل للترعة ويقول للأطفال : أعظم طفل فى الكُتّاب هو ذلك الولد المطيع[1] .

ولكن مشكلة تعترض فأنا أستحم فى الترعة بغير إذن أبى ، فتجىء سيدة وتأخذ هدومى لتسلمها لأبى ، بقيت عريانًا ، ولكن سيدة ثانية كان أبوها شقيق جدى لأمى رأتنى فى هذه الحالة المزعجة فغطتنى بالنشرة ... وهى ثوب رقيق كان يستر وجوه النساء الجميلات وأسلمتنى إلى أمى .

---

(١) ١٩٤٧/٩/٨

وسمع أبى بالخبر فقال : إن الثكل آذاني يا محمد ، وكان جميع أبناء أمك للموت وأنت آخر العنقود فإن مت أنت أيضاً فسأصير وحيداً في حياتي : فقلت : أنا أجيد السباحة يا أبى . فقال : نصلى الصبح غداً ونمضى إلى الترعة لأرى كيف تعوم ، صلينا الصبح ومضينا إلى الترعة ، خلعت ثيابى ونزلت الترعة وطبشت فيها من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، فقال أبى : هذا يكفى .

ألوان الشعور فى طفولتى كانت قوية فى المسائل الآتية[1] :

الماء الجارى ، فقد كنت أرتاح إليه بصورة تفوق الوصف ، وكان لخرير الماء فى أذنى نغمة موسيقية ، ولهذا الشعور بقايا فى نفسى : الأسواق الارتوازية كانت كثيرة فى بلادنا فقد كان عليها المعول فى الرى ، وفى أيام القيظ كنت أخلع ثيابى وأنزل مع "الطونس" فأستروح بالماء البارد لحظات ثم أصعد مع " القواديس " .

وهذه حياة لا يتصورها إلا من عاش فى الريف قبل أربعين سنة ... صيد السمك كان هواية عندى ... عشق الشجر وهى فطرة أصيلة عندى ... فطرة موروثة من أجدادى فقد كانت أملاكنا فى سنتريس مسورة بالأشجار ، وأنا لا أتصور أن يكون للبيت جمال بدون حديقة مشجرة ... ومنزلى فى سنتريس تحفة فى هذه الناحية، ففيه حديقة غناء بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ؛ ففى أشجاره أعشاش البلابل والعصافير واليمام .

ويجىء شهر رمضان " وفى كل سنة تسهر العائلة فى الدوار لتسمع القرآن الكريم من القُرَّاء ولتستقبل الزائرين ، ويحتم علىَّ أبى أن أشترك مع القُرَّاء فأطيع ، وفى الأسبوع الأخير يكون " التوحيش " فأصعد مع القُرَّاء إلى سطح الدار لنقول بطريقة الغناء : لا أوحش الله منك يا شهر رمضان ، لا أوحش الله منك يا شهر الصيام ، إلى آخر التوحيش[2] .

---

(١) ١٩٤٨/٨/٢

(٢) ١٩٤٧/٨/١١

ويجيء العيد [١]، وبعد صلاة العيد نمرُّ على " الجبانة " ونقرأ الفاتحة ونوزِّع الصدقات ، ومن النادر أن يمرَّ عيد بدون ميت له عيد حزين ، وبهذا لا يجوز " فتل الكعك " وهو فرحة الأطفال ، ويمر أعيان البلد على الدوار معيدين فلا تقدم لهم غير القهوة المرة لأن العائلة فى حداد ، وبعد ساعتين يقوم وفد من العائلة ليطوف بالبلد . وعائلات سنتريس كثيرة وعلى جانب من الأصالة وأحزانهم مثل أحزاننا ، فيجب أن نشرب القهوة المرة يوم العيد .

وبهذا انطبع قلبى على الحزن من مبدأ حياتى[٢].

مهاجرون : ١٩٨٤/٤/٢٦

هو جدى مبارك وأخوه سليمان وبقية العائلة من رجال ونساء ، كان الظلم بلغ الغاية فى عهد لا أسميه ، وكان الحاكم يحضر ليحصل الأموال ، أمر الحاكم بضرب جدى مبارك وأخيه سليمان ، فأمر جدى بضرب ذلك الحاكم الغشوم فضربوه وأوجعوه إلى أن كاد يموت ... وعرف أجدادى أن قوة الحكومة قوة ، وأن الهجرة واجبة فرحلوا من سنتريس مع الصباح وأقاموا مغتربين سبع سنين .

كانت جدتى لأبى هى التى تتولى تربيتى ، وهى سيدة اختطفها جدى مبارك من صديقه إبراهيم أبو حسين عمدة طاليا .. رآها جدى صبية جميلة فخطبها من أبيها ودفع مهرها وأخذها معه على ظهر جواده بدون زفاف . دخلت السيدة البيت فنظمته وكان فوق ربوة عالية ، وأنجبت أبى قبل أن يموت جدى ببضع سنين . وحين ترعرع أبى تزوج أمى فأنجبتنى ، ولكن جدتى لم تتركنى لرعاية أمى ، فقد عشت بعد أن مات لأمى بنون وبنات وكانت جدتى تحب أن يعيش لولدها ولد[٣] .

---

(١) ١٩٤٩/١١/١٤

(٢) سنتريس : هى القرية التى ولد فيها زكى مبارك ومركزها أشمون بمحافظة المنوفية .

(٣) ١٩٤٨/٨/٢

كانت جدتى تجلسنى بجانبها أمام " الكانـون " وكلما استوت قطعة أخرجتها " بالمغرفة " وقدمتها إلىّ فآكل حتى أشبع . ثم ماتت جدتى وأنا طفل ، فرأيت زوجة أبى تطبخ وزة فجلست بجانب الكانون كما تعودت أن أجلس ، ولكن زوجة أبى ترفع "المغرفة" فى وجهى وتقول : روح ، روح ، راحت أيامك .

وبسذاجة الطفولة أخبرت أبى بما وقع فقال : عشاؤك بعد هذا اليوم معى .

كانت أمى رحمها الله تطلب منى أن أجلس أمامها وأنا مسافر إلى القاهرة فتنظر فى وجهى نظرات عجيبة وتقول [1]. روح الله يجعلها بلدك ، إن الله استجاب لدعاء أمى ... وأمى هى التى ألهمتنى روائع ما أنتج ، وهى التى خرجت من سنتريس وأنجبت أعظم كاتب وأجمل شاعر .. هل كان أبى يعرف أن توديع أمى فى لحظاتها الأخيرة أحب إلىّ من جميع المغانم العلمية ؟

لو عرف لأعفانى من لوعة سأعانى نيرانها إلى أواخر أيامى .

كنت وحيد أبى ولكنه كان قد تزوج امرأة قبل أمى فكان له منها بنت ، وتزوج امرأة بعد أمى فكان له منها بنت ، وتزوج امرأة بعد وفاة أمى فكان له منها ولد ، كان أبى يراه العوض عن شقيقى سيد [2]. وهو بحمد الله نعم العوض وهو أخى مبارك[3].

---

(١) ١٩٤٩/٢/٢٢

(٢) توفى سيد سنة ١٩١٨

(٣) " مبارك" هو عمى الأستاذ مبارك عبد السلام مبارك ، وقد ولد بعد زواج أبى وإنجاب زينب وسليمان فهمى : يعيش عمى الآن فى " فيلته " بالدقى وهو الآن بالمعاش ... وعضو مجلس إدارة جمعية زكى مبارك الأدبية المسجلة ١٩٨٤ فى سنتريس منوفية .

الأزهر الشريف

" الشيخ سيد المرصفي : أنا مدين لك بكل شيء في حياتي اللغوية والأدبية ، ولايزاحمك في قلبي إلا إنسان واحد هو فقيد الأدب والبيان محمد المهدي ".

زكي مبارك

في أحد الأيام قلت لأبي : أنا أحب أن أتعلم في الأزهر ، فقال : من أين وصل إليك هذا الخاطر[1]؟

فقلت : إنه أمل يساورني منذ أيام ، ولعل في تحقيقه خيراً كثيراً .. ذهبت إلى الأزهر وسني سبعة عشر عاماً وجلست أستمع إلى الشيخ سيد بن علي المرصفي وكان الدرس : " إن الله ما عصي بشعر كما عصي بشعر عمر بن أبي ربيعة " . قال الشيخ : أهذه مثلبة أم منقبة ، فأجاب أكثر الطلاب بأنها مثلبة وأجبت وحدي بأنها منقبة ، فقال وكيف[2] ؟

فقلت يريد ابن عباس أن شعر ابن أبي ربيعة يفعل بالقلوب ما يفعل الشراب فينقلها من الهدى إلى الضلال ... فقال الشيخ سيد المرصفي في حماسة شديدة : إيه يا عروس الأدب ... وكانت أول كلمة حببت إليّ دراسة الأدب .

---

(١) ١٩٥٠/٧/٣٠

(٢) ١٩٤٩/٩/٢٢

لازمت الشيخ سيد المرصفى سبع سنين [1] ، وكنت أكتب جميع ما يقوله فى الدرس ثم أصل جناحه بدرب السماكين ، والمسافة لا تحتاج إلى أكثر من عشرين دقيقة، ولكننا نقطعها فى سبعين دقيقة ؛ لأن الشيخ كان يحب أن يسمع شعراً فأسمعه بعض ما أحفظ من شعر العرب ، وكنت قد حفظت نحو ثلاثين ألف بيت .

حين كان الشيخ يسمع بيتًا جيداً يقف ويقول : الله ، الله ، الله .

مضيت إلى الشيخ مرة فقال هل عندك نسخة من لسان العرب[٢] ؟

فقلت لا ، فقال : تبيع جبتك وقفطانك وتشترى لسان العرب .

الأزهر الشريف [٣] :

إن طلاب الأزهر لا يعرفون غير متاعب الحياة : فهم فى سنى الدراسة يعانون الآلام بين الكتب المعقدة والدروس المتعددة ، ثم إذا اجتازوا عقبات الامتحان بعد العمر الطويل والهم الجزيل دخلوا فى حياة لاحظ لهم فيها غير حظ الأعزل من النصر فى ميدان كله رماح طوال وسيوف صقال ... وهل بعد ذبول الأغصان وكلال الأجفان وتقوس الظهر وتقوض العمر غرض يرجى نواله أو همّ يبتغى زواله !

هؤلاء الأزهريون ينادون بملء أفواههم أن خذوا بيدنا أيها القائمون بالأمر ، فلا يستمع لهم أحد ! ولكن أيغلب اليأس الرجاء ويغدو الأمل صريع القنوط ؟ إن هذا لبعيد .

كان أبى متصوفًا صادق التصوف ، وكان قد أخذ العهد على شيخ اسمه أبو زيد[٤] :

---

(١) ١٩٤٨/١٢/٢٧

(٢) ١٩٥٠/٢/٧

(٣) من مقال على صفحات كتاب زكى مبارك : « البدائع » الطبعة الثانية الجزء الأول صفحة ٢٦٧ ، والذى صدر عن المكتبة المحمودية بميدان الجامع الأزهر .

(٤) ١٩٤٨/٨/٢

وفى سنة ١٩١٢ وأنا طالب فى الأزهر اشتدت رغبتى فى صحبة الصوفية ، وألح الشوق فأخذت أتنقل من ناد إلى ناد حتى تعرفت إلى رجل فاضل من أساتذة الأزهر كان يومئذ من كبار الصوفية فأخذت عليه العهد ، وبدأت أقوم بالأوراد على طريقة الشاذلية ، وكان فى صوتى من المرونة ما يساعد على إلقاء الأناشيد ، فكنت من المتقدمين فى الإنشاد .

وفى سنة ١٩١٥ رآنى الشيخ صالحًا للأستاذية فى الطريق ، فأضاف اسمى إلى قائمة الخلفاء ، وكان لى فى سنتريس وغير سنتريس مريدون وأتباع .

كانت إدارة الأزهر أقامت درسين فى المسجد الذى يطل على شارع الحمزاوى ، درس يلقيه الشيخ سيد المرصفى فى علم اللغة ، ودرس يلقيه الشيخ مصطفى عبد الرازق فى فن الإنشاد .

نظرت فرأيت الشيخ المرصفى يرسل ورقة إلى الشيخ مصطفى ، فأنهى الشيخ مصطفى درسه وحضر ليجلس متربعًا على الحصير ليسمع بقية درس الشيخ المرصفى ولينتظر أمر الشيخ فيما دعاه إليه .

رأيت أن أنسحب فقال الشيخ المرصفى ليس بيننا حجاب فتعال معى ، وكانت المفاجأة أن أرى الشيخ الزنكلونى ينتظرنا فى المقصورة التالية ليشهد ما يريد الشيخ أن يقول .

قال الشيخ الزنكلونى : كل سر جاوز الاثنين ضاع .

فقال الشيخ المرصفى : زكى مبارك يعرف جميع أسرارى ، وأنا لا أخفى عليه أمرًا من أمورى، لأنه عندى أعز من أبنائى ، وأنا أرجو أن لا يضيعه الأزهر كما أضاع طه حسين .

كتاب حب ابن أبى ربيعة وشعره[1]

مقدمة :

رُبَّ جِدٍّ جرَّهُ اللعب صار جداً ما فرحتُ به

أى والله !

فقد كنت ألهو وألعب يوم كتبت ما كتبت عن ابن أبى ربيعة وأنا طالب بالجامعة المصرية ، وليس معنى هذا أننى كنت أتخذ الحب والجمال سبيلاً إلى العبث والمجون ، كلا !

فقد كان الجمال كما فهمته فى ذلك الحين محراباً تخشع فى مُصلاه القلوب ، ولكن معناه أننى كنت أقبل على الحب والحسن إقبال الغافل الذى لا يدرى ما تكن خمائل الأزهار من عاديات الأفاعى وقاتلات الصلال .

وأصدق ما أحدث به عن نفسى كلمتنى إلى صديقى الأستاذ أنيس ميخائيل حين أقول :

أنت تعلم أن هذه الحياة الوجدانية التى يحياها رجال الأدب طائعين أو كارهين ، توقد الحس وتلهب الخيال ، حتى ليصبح القلب فى سعير من الظمأ وهو فى ظل من النعمة ظليل .

وكذلك أحسب أن الطبيعة مدينة لإعجابى وإحساسى بما فيها من زهرة تتفتح أو غصن يميد .

(١) من على صفحات كتاب . حب ابن أبى ربيعة وشعره طبعة أولى سنة ١٩١٩ عن مطبعة محمد محمد مطر بالعتبة الخضراء .

وكتاب حب ابن أبى ربيعة وشعره هو محاضرات ألقيت فى فبراير سنة ١٩١٩ فى الجامعة المصرية على أنها دروس تمرينية ، وكنت لقيت من إعجاب الأستاذ الدكتور أحمد ضيف والأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار والأستاذ الشيخ مصطفى القاياتى ما حبب إلىّ ظهورها فى كتاب يتناوله عُشّاق الأدب ، ثم لم أكد أشرع فى طبعها حتى كانت النهضة المصرية، فكتب الله لنا أن نمت بسبب إلى الزائدين عن مصر والسودان [١].

(١) بعد محاضرات زكى مبارك عن حب ابن أبى ربيعة وشعره توقف عن إعطاء دروس أخرى فى الجامعة وانشغل بطبع الكتاب وصدر قبل اعتقاله سنة ١٩١٩ .

على صفحات كتاب " الثقافة الجديدة " والذى صدر سنة ١٩١٩ عن الهيئة العامة لقصور الثقافة فى الذكرى المئوية لميلاد الدكتور زكى مبارك يقول الكاتب الكبير حافظ محمود : " إن النبض الوطنى عند زكى مبارك كان يشغل كل خواطره فى كل موقف حتى فى أدق موقف من مسار حياته العلمية ، وهنا أزيح الستار عن السر الذى كتمه زكى مبارك وأخفاه العليمون به بالنسبة لخروجه من كلية الآداب جامعة القاهرة ، لقد قيل فى ظاهر الأمور أن زكيا قد جامل بعض الطلبة فى امتحان من الامتحانات ، والذى خفى من هذه القضية أن زكى مبارك حين وجه بهذا الاتهام قال : نعم .. جاملتهم لأنهم كانوا ينفقون جهدهم ومالهم وحياتهم وأوقاتهم فى الخدمات الوطنية ضد الاستعمار .

إن زكى مبارك يتفق مع طلعت حرب باشا حينما سألوه : لماذا أعطيت هذا الفريق من عملاء بنك مصر سلفًا كبيرة بلا ضمانات تتكافأ مع قيمة هذه السلف ؟ قال : لقد كنت مستعدًا أن أقدم لهم السلفيات بلا أى ضمان فأولئك هم الذين أنفقوا ثرواتهم الضخمة فى الحركة الوطنية .

ولئن كان هذا الموقف من طلعت حرب ومن زكى مبارك لم يعجب المتزمتين الذين يريدون شيئًا آخر فإنه موقف يذكر لكليهما فى لوحة الشرف الوطنى .

أيام الثورة ... عام ١٩١٩

يقولون عام روعتنا خطوبه　　وسالت به منا الدماء الدوافق
فقلت لهم لا تتبعوه ملامة　　فقد بعثت فيه الأماني الصوادق

زكي مبارك

في أيام الثورة المصرية كنا ندعو إلى أن يتآخى المسلمون مع الأقباط ، وكانت دعوة صحيحة ومطلوبة فقد كان المحتلون يستغلون اختلاف المسلمين مع الأقباط[1] .

وكان القسيسون يحضرون للخطابة في الأزهر وكنا نحضر فنخطب في كنائسهم ، وحين حضر قرياقص ميخائيل أقمنا حفلة تكريم في كنيسة حارة الروم ، وألقيت قصيدة وألقى الشيخ الزنكلوني خطبة قال فيها إن المسألة لم تعد اتحاداً فقط ، فقد تحولت إلى عشق ، وألقى شيخ آخر قصيدة جاء فيها هذا البيت الطريف :

الشيخ والقسيس مطرانان　　وإن تشأ فقل هما شيخان

انتهز الشيخ بخيت الفرصة ونشر في الأهرام مقالة جيدة في ذم التعصب وفيها ظهر أنه من كبار المفكرين ، ولكن أحمد زكي أبو شادي يكتب للأهرام أن المقالة للشيخ محمد عبده وأنها في مجموعة العروة الوثقى ، وهي مختارات مما كتبه الشيخ محمد عبده أيام الاغتراب ، وهي مطبوعة وفي أيدي المثقفين .

---

(١) ١٩٥٠/٦/١٣

ظهر الأستاذ مكرم عبيد على مسرح السياسة سنة ١٩١٩ وكنت يومئذ من المكتوين بنار الثورة المصرية ، فهل يعرف الناس كيف التفتنا إلى مكرم عبيد فى ذلك العهد ؟[١]

كان مكرم سكرتيراً لأحد المستشارين الإنجليز ، ثم اندهش رئيسه من أن يشترك مع الموظفين المضربين ، وكان اندهاشه لأنه يعرف أن مكرم عبيد قبطى ولأنه يتوهم أن الأقباط لا يشاركون المسلمين فى الثورة على الاحتلال .

ورأى مكرم أن يصحح موقفه أمام رئيسه فكتب إليه خطاباً يشرح له كيف استجاز لنفسه أن يضرب مع المضربين وساق فى الخطاب حديثًا لأحد القسيسين الأقباط قال فيه :

إذا صح أن الأقلية القبطية ستكون عقبة فى طريق الاستقلال فسندعو الأقباط جميعًا إلى الإسلام لتسقط حجة المحتلين .

وقد طبعنا خطاب مكرم عبيد إلى رئيسه الإنجليزى ومضينا فوزعناه على الجماهير لنزكى به روح الوحدة الوطنية .

ثم ماذا ؟

ثم نظر مكرم فرأى أبويه كانا سمياه "وليم" فاستغنى عن اسمه الأجنبى واكتفى باسمه الوطنى وهو اسم عربى صريح كان علمًا لأحد أقطاب الأشراف بهذه البلاد .

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ثم صرح مكرم باشا فى خطبة شهيرة بأنه مسلم وطنا وأزهرى ثقافة ، فما معنى ذلك ؟ معناه أن مكرم باشا يرى الإسلام من أكبر عناصر الوطنية المصرية وأن الثقافة الأزهرية من مظاهر تلك الوطنية .

---

(١) من على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤٠/٩/٢

وإنما استبحت لنفسى أن أخوض فى هذه الأحاديث الشوائك لأنى واثق بأنى لن أجد من يتهمنى بالتعصب الدينى ، فأصدقائى الحقيقيون فى مصر أكثرهم من الأقباط ، ولى بين نصارى الشام والعراق إخوان أوفياء يروننى أكرم صاحب وأوفى صديق وأراهم من أطيب الذخائر فى حياتى ومن مسالكهم النبيلة استمد التأييد لهذا الرأى الصريح .

شيخ معمم يلقى خطبة بالفرنسية[1] :

كان الشيخ محمود أبو العيون رئيس الخطابة فى الأزهر أيام الثورة ، وكنت أجلس أنا وإبراهيم عبد الهادى ومحمد شكرى متربعين على الحصير ، ثم حضر وفد الصحافة الأوروبية ، وتبارى خطباؤهم فى تأييد القضية المصرية ، قال الشيخ أبو العيون : ترد عليهم بالفرنسية يا إبراهيم أفندى ؟

ترد عليهم بالفرنسية يا شكرى أفندى ؟

اعتذر الفتيان بأن الارتجال بالفرنسية صعب وكانا مازالا طالبين ، قال الشيخ أبو العيون : وأنت يا شيخ زكى ؟

وقفت وأنشدت قول لافونتين : حق الأقوى هو دائماً الأفضل .

وعلى هذا الأساس مضيت وألقيت خطبة فصيحة كانت فى تلك الليلة أعجوبة الأعاجيب .

وفى أيام ثورة سنة ١٩ سد الإنجليز جميع المسالك إلى الأزهر ، ولكننا كنا نعرف أن هناك باباً مفتوحاً هو باب زاوية العميان[2] ، فكنا نوصى الثائرين بالدخول من ذلك الباب ، وحفظ الجنود الجملة بغير فهم فكانوا إذا أتى شاب ليدخل الأزهر صاحوا فى وجهه : جون إميان .

---

(١) ١٩٤٩/٥/٢٣

(٢) ١٩٥١/١١/٢٤

الاعتقــال[1]

لم تكن لى رغبة فى الاعتقال مع أنه فرصة للراحة من متاعب الحياة التى كنت أقاسيها أيام الثورة ، فقد عشت مشرداً لأنه كان من الخطر أن أبيت فى منزلى ، وهو فى ذلك الوقت شقة صغيرة فى شارع الغورية ، ومن أدب الإنجليز احترام المعابد وإذن فلا خوف من الإقامة فى الأزهر الشريف بالليل ، ولكنها إقامة متعبة فقد كان يتفق أن أقضى بعض الليالى بدون عشاء[2] .

وفى إحدى الليالى مضيت إلى المنزل وأوقدت مصباحًا فاستهوتنى القــراءة وأنا أجهل ما سيقع فقد طــرق الباب طــارق يقــول : افتح الباب يا أستاذ ... من هذا الطارق ؟

هو مأمور قسم الدرب الأحمر ومعه خمسة عشر جندياً ؛ ذلك المأمور هو المرحوم محمد فرج ، وكان هواه مع الثورة فلم يعتقل أحدا من الثائرين إلا وهو راغم ، فقد كانت أمور الحكومة إلى السلطة العسكرية .

قلت : أنا أفهم ما تريد يا حضرة المأمــور ولكنى أرجــو أن تمهلنى لحظات ... ثم أهويت على الكتب فاخترت ما أحتاج إلى مراجعته من الأدب العربى والأدب

---

(١) ١٩٤٧/٤/٢

(٢) وكان زكى مبارك قد قضى ثلاثة أشهر شريداً طريداً لا يعرف أين يبيت ، وكان [illegible] غرفة فوق سطح بيت فى السبتية بحى القللى ، يقيم فيها عند أحد أصدقائه الشبان من سنتريس وهو أنيس ميخائيل : من كتاب الهلال صفحات مجهولة من حياة زكى مبارك للكاتب محمد محمود رضوان صفحة ٣٢ .

الفرنسي ، وربطت تلك الكتب فى «بطانية» وخرجت محـروسًا بعناية الله المصـورة فى المـأمور والجنود .

ودخلت المحافظة ، على باب المحافظة وجدت قسيسًا يقول(١) : أنا الشيخ زكى مبارك فاعتقلونى واتركوه ... ولكن هذا لم ينفع بشىء فعمامة القسيس سوداء وعمامتى بيضاء .

دخلت المحافظة أولاً ، فقد كان هذا واجبًا إداريًا ، ثم مضت العربة إلى قصر النيل ، وهناك قال الجندى الذى يصحبنى : فى أمان الله يا أستاذ ... ثم أصعدونى إلى غرفة فى المعسكر تشرف على النهر المبارك ، فنظمت كتبى وأخذت أقرأ ما اخترته من الأدب الفرنسى .

وجاء الليل فآويت إلى مضجعى وصحوت مع الفجر فتوضأت وصليت ثم نظرت فرأيت منظرًا فى غاية من الجمال ، رأيت أسرابًا من الحمام ترفرف على النهر مع الشروق ، ورأيت صور النخلات القائمة بالشاطئ الأيسر تتموج مع الأمواج ... إنه منظر رائع لن أنساه ما حييت .

وفى صباح اليوم التالى من أيام الاعتقال ، بعد شروق الشمس بساعات حضر رجل ضخم من رجال الجيش البريطانى ومعه مترجم ، وأخذ فى استجوابى بالصورة الآتية(٢) :

– أنت متهم عندنا بتهمتين خطيرتين ، التهمة الأولى هى اشتراكك فى تحريض المصريين على الثورة بخطب كثيرة فى الأزهر .

– هذا صحيح فما هى التهمة الثانية ؟

---

(١) ١٩٥٠/٦/٧

(٢) رغم حصول الدكاترة زكى مبارك فيما بعد على دكتوراه دولة من السربون ، فقد كان لا يعرف اللغة الإنجليزية ، ولهذا كان يرى أن الإنجليز ليست لهم أى سيطرة على مصر والمصريين مادام يمكن الحصول على أعلى الشهادات بدون تعلم اللغة الإنجليزية .

– التهمة الثانية هى اشتراكك فى تحرير المنشورات الثورية .

– هذا صحيح أيضاً .

– ولكن بريطانيا العظمى لا تصفح عمن يقترف هاتين الجنايتين إلا بشرط .

– ما هو هذا الشرط ؟

– هو أن يكتب بخطه أنه أخطأ وأنه تاب ، فإن كتبت هذا سأفرج عنك فى الحال .

– إنك تطلب المستحيل يا حضرة الكومندان .

– وإذن فستبقى هنا .

– أنا مسرور بذلك .

– مسرور ؟ وكيف ؟!

– لأننى أشارك بريطانيا العظمى فى احتلال قصر النيل .

وكانت السلطة العسكرية تعطينا سبعة عشر قرشاً فى اليوم فاشتركت فى جريدة الأهالى وكان الأستاذ عبد القادر حمزة يصدرها فى الإسكندرية[1] .

ليالى الاعتقال[2] :

حضرة الأخ أنيس أفندى ميخائيل :

وصل خطابك البديع بعد عشرين يوماً قضاها تحت أثقال الرقابة ، ولم يصلنى قبله فى معتقل «سيدى بشر» غير خطاب الأخ الشيخ عبد المجيد زهران ، فما أوفاه من صديق وما أوفاك .

---

(١) ١٩٥٠/٢/١٤

(٢) مقتطفات من رسالة زكى مبارك إلى صديقه أنيس ميخائيل من على صفحات كتابه «البدائع» الطبعة الثانية صفحة ٤٩ من الجزء الأول والرسالة بتاريخ ١٩٢٠/٣/٥ .

سأضرب صفحًا عن الدمعة التي سكبتها على القرطاس لأن مثلي لا يبكي له ولا يبكي عليه ، وإنما خلقت لأكون مثلاً في الشمم والإباء ، ولو كان بي حب الدعة والطمأنينة لما مكثت في المعتقل هذه الشهور الطوال ، فقد فكر القوم في مساومتي لحظة وطئت فيها ثكنة قصر النيل ، ولكنني أقذيت عيونهم حين أريتهم كيف يطيب الشقاء في سبيل البلاد ، وأقسم لو سلم المصريون جميعًا وخرج مصطفى كامل من قبره فصافح الإنجليز لما كان في ذلك ما يزحزحني قيد أنملة عن معاداتهم حتى يكون الجلاء .

كنت وحدي بالغرفة ... ولكن زائرًا يجيء بعد أسبوع وذلك الزائر هو حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز مدير الأزهر لهذا العهد ... كنا صديقين فصرنا غريمين ... أنا أصحو بعد نصف الليل فأوقد المصابح وأقرأ بصوت مرتفع ، كما أوصاني من علموني اللغة الفرنسية فينزعج الشيخ دراز يقول : الله ينكد عليك ... ثم يتدثر ويسلم أجفانه إلى النوم العميق[1] .

---

(١) على صفحات كتاب « الثقافة الجديدة » والذى صدر فى الذكرى المئوية لميلاد الدكتور زكى مبارك سنة ١٨٩١ و ١٩٩١ مقالة بقلم الأستاذ حافظ محمود تحت عنوان : « زكى مبارك وطنيًا » جاء فيها :

يوم التاسع من مارس سنة ١٩١٩ قامت ثورة الشعب من أجل الاستقلال وشهد التاريخ أكبر مظاهرة للشباب يشترك فيها عشرات الألوف ...

وبطريقة تلقائية اتجهت هذه المظاهرة الكبرى إلى الجامع الأزهر الذى كان فى كل مراحل التاريخ قلعة وطنية . وفى ساحة الأزهر الشريف وقف الألوف وجلس الألوف يستمعون إلى الخطب الوطنية التى يلقيها نوابغ أساتذة الأزهر ، وفى مقدمتهم أصحاب الفضيلة الشيوخ :

عبد اللطيف دراز ، محمود أبو العيون ، الزنكلونى ، القاياتى ، وغيرهم من فرسان الخطابة الوطنية .

ومن بين الجموع الغفيرة التى كانت حريصة على الاستماع إلى شيوخ الأزهر اخترق الصفوف شاب أزهرى حتى صعد إلى المنبر وألقى خطبة وطنية شبابية ألهبت المشاعر ؛ وكان هذا الشيخ الأزهرى الشاب هو زكى مبارك .

وقبل أن يسدل الليل سدوله فى ذلك اليوم المشهود كان الشيخ الشاب زكى مبارك قد شكل لجنة وطنية من أقرانه الطلبة ، ثم عقدت هذه اللجنة أولى جلساتها فى رحاب الأزهر ، وقررت – فيما قررت – إصدار صحف سرية لأن السلطات البريطانية الحاكمة كانت فى تلك الأثناء تمنع صدور أية صحف وطنية فقامت هذه الصحافة السرية بسد هذه الفواتح . =

وحين يصحو يعاتبنى فأقول إن أيام الاعتقال فرصة ندرس فيها ما يمكن درسه من علوم ... فيضحك ويقول : الله يفتح عليك .

ثم تكون الفجيعة التالية : خطاب من رئيس المعسكر يقول فيه إننا منقولون إلى جهة مجهولة ، فإن كانت لنا وصية إلى أهالينا فلنكتبها بصورة واضحة لتبلغها إليهم السلطة العسكرية ... وهنا ينخرط الشيخ دراز فى البكاء فأصرخ فى وجهه وأقول : ما الذى يبكيك يا أستاذ ... فيكون جوابه : نحن ذاهبون إلى مالطة ... فأضحك وأقول وهل سنؤذن هناك ؟

فى ظلام الليل نقلنا القطار إلى الجهة المجهولة وهى صحراء سيدى بشر بالإسكندرية فحمدنا الله على قرب مكان الاعتقال[1] .

= ولم تكن هذه الصحف سرية بمعنى أنها غير ظاهرة ، بل كانت سرية بمعنى أن السلطات الحاكمة لم تكن تعلم لها مقراً ولا مطبعة ولا تعرف من هم محرروها ، ومع هذا كانت هذه الصحف الثورية تعرض على المواطنين داخل ساحة الأزهر فيقبلون عليها لتشفى غليلهم .

وجهت السلطات جهدها لتعرف من الذين كانوا وراء إصدار هذه الصحف ؛ وبعد طول بحث ظهر أن الصحفى الشاب الذى كان يصدرها هو زكى مبارك ، ولم تقتصر مهمته على الإصدار وحده ولا على التحرير وحده ، بل لقد كان هو وقليل من رفاقه يقومون بطبع هذه الصحف تحت جنح الظلام ثم يوزعونها عند الفجر قبل أن تتفتح أعين الرقباء .

ولقد كانت هذه الصحف السرية بالإضافة إلى الخطابة العلنية فى الجامع الأزهر أقوى أسلحة الثورة .

(١) وفى المقال السابق يقول أيضاً الأستاذ حافظ محمود :

إن سلطات الاحتلال أعدت معتقلاً فى مدينة رفح على الحدود الفلسطينية المصرية وبعد منتصف إحدى الليالى نقلت المعتقلين إلى المدينة التى لم يكن المصريون يعرفون طريقها آنذاك حيث كانت سيناء حافلة بالثكنات العسكرية البريطانية ...

ثم يقول الكاتب الكبير حافظ محمود : اجتمع المعتقلون من شيوخ الأزهر ومعهم الشاب زكى مبارك فى مدينة رفح ليتدارسوا موقفهم ، فاقترح زكى مبارك عليهم القيام بعمل وطنى يؤرق السلطات الاستعمارية ، وهو أن يقوموا بإلقاء دروس دينية على سكان رفح الفلسطينية والتضحية فى سبيل ذلك ... وحارت السلطات المحتلة فيما ينبغى أن تفعله لمقاومة هذه الحركة ... وأخيراً رأت تلك السلطات أن إعادة أولئك الأسرى إلى مصر أخف ضرراً ... على سلطات الاحتلال من بقائهم فى رفح يفتحون عيون شعب فلسطين ، وأعادوهم فعلاً إلى القاهرة . =

الشيخ مصطفى القاياتى سمح له طبيب المعتقل بالخروج نهائيًا ، لأنه كان فى هزال مخيف ، والشيخ دراز سمح له الطبيب بالخروج ، لأنه كان مصابًا بالزائدة الدودية وليس فى المعتقل مكان للعمليات الجراحية .

خرج المعتقلون جميعًا وبقيت وحدى ، فقد كانت وزارة الداخلية أرسلت مفتشًا اسمه محمد فتحى ومعه وعد بنجاتنا إذا كتبنا إقرارًا بعدم الاشتغال بالوطنية فرفضت ، وبعد أيام خرجت وأنا لا أصدق أنى خرجت .

= من كلمة الكاتب الكبير حافظ محمود نعرف أن زكى مبارك قد اعتقلته السلطات البريطانية فى مدينة رفح على الحدود المصرية الفلسطينية ... ومن كلام زكى مبارك نفهم أنه بعد اعتقاله فى ثكنات قصر النيل تم نقله إلى « سيدى بشر » ولم يذكر رفح .

وأنا أؤيد كلام حافظ محمود حول اعتقال زكى مبارك فى رفح ، لأن زكى مبارك قال فى صفحة (٢٢٦) من كتاب « ليلى المريضة فى العراق » فى أحدث طبعة صدرت عن دار الهلال سنة ٢٠٠٣ .

امتطيت القطار من حيفا إلى القنطرة ورأسى معمور بما سأراه من بساتين فلسطين، وأنا ماضٍ إلى القنطرة ، وخفق القلب حين مررت على رفح فقد كنت موعوداً بزيارتها حين اعتقلنى الإنجليز أيام الثورة المصرية ...

فلماذا لم يذكر زكى مبارك خبر اعتقاله فى رفح ؟

كانت سيناء حافلة بالثكنات العسكرية البريطانية وربما لهذا صمت زكى مبارك عن الحديث عن رفح لحزنه واستنكاره لوجود الثكنات العسكرية البريطانية تملأ سيناء ... ورأى التغنى بالإسكندرية حين يتحدث عن اعتقاله فى سيدى بشر ؛ فقد كان كثير التحدث عن اعتقاله فليتغن بالإسكندرية وبسيدى بشر وليغض النظر عن رفح .

بعد الخروج من الاعتقال

عدت من المعتقل ونظرت ثانية فى تلك الصحائف المطوية (كتاب حب ابن أبى ربيعة وشعره) فرأيت فيها أثرًا من آثار الثقة بالنفس وعز علىَّ أن لا يجد نسيم الشباب فضاءً يملؤه بالعزيمة والثبات(١) .

---

(١) على صدر الكتاب كانت الكلمة التالية للشيخ مصطفى القاياتى :

من كان بطبعه ميالاً إلى الحرية فى الفكر والاستقلال فى الرأى ، وكان مع ذلك محبًا للإنصاف راغبًا فى الاعتدال فليقرأ هذا الكتاب ، فإنه ينمى فكره ويقوى شخصيته ويزيده بصرًا بالنقد وعلمًا بالشعر ويهديه السبيل إلى فهم الأدب والحكم على الشعراء .

وجدير بمن نظر فيه أن يكمل علمه ويكبر عقله لما عرف به الأستاذ زكى مبارك من سلامة الذوق وأصالة الرأى وما امتاز به من بعد النظر ودقة الملاحظة مع ما له من رشاقة الأسلوب ومتانة التركيب ، إلى غير ذلك من الميزات التى تجعلنا نأمل كثيرًا أن يكون هذا الابن البار إمامًا ، من أئمة الأدب وعظيمًا من عظماء الأمة .

جعله الله قدوة لشبابنا العاملين وأبنائنا الناهضين والسلام

مصطفى القاياتى

٢٥ / فبراير سنة ١٩١٩

والكتاب طبع بعد ذلك طبعة ثانية ثم طبعة ثالثة ، وكان زكى مبارك يضيف الكثير إلى كل طبعة ... والطبعة الثالثة صدرت حديثًا بعد رحيل زكى مبارك عن دار الجيل / بيروت سنة ١٩٩١ ثم طبعة رابعة بعد ذلك عن دار لونجمان سنة ١٩٩٨ .

وفى طبعة الونجمان نقرأ تحت عنوان . كلمة تقد لحضرة الباحث الكبير الدكتور/ طه حسين :

... فرغت من قراءة رسالة صغيرة ولكنها قيمة ممتعة للدكتور زكى مبارك خريج الجامعة المصرية تناول فيها شعر عمر بن أبى ربيعة ، فدرسه من بعض نواحيه درسًا حسنًا ، يسرنى أن أهنئه به ، ويسرنى أيضًا أن أنتهز هذه الفرصة لتسجيل ما للجامعة المصرية من فضل على عقول الشباب ... الدكتور زكى مبارك هو شاب حاد الشباب عنيفه .

حديث الأربعاء ج٢ صفحة ١٤٢

وإني لموقن أن في النـاس من لا يطرب لهذا النحو من البيـان ؛ ولكني لم أكتبه إلا لمن قدر له أن يدرك أسرار الجمال ، وهدى الله من يحسب أن التأليف لا يصح إلا في الأبحاث التي تشبه بعض الأذهان في الجمود ... ولعلي أجد من الشجاعة الأدبية ما أعيد به طبع هذا الكتاب مع ما سيقال فيه من مدح وهجاء .

وإني لأرحب بكل كلمة فيها نفحة من النقد المبني على فهم وإدراك ، فمن شاء أن ينشر له شيء من ذلك في الطبعة الثانية فليبعث به إليّ لأعرض على الناس طائفة من العقول ، وكل امرئ بما كسب رهين .

وإني أقدم الشكر الخالص من شوائب العقوق لأساتذتي في اللغة والأدب الشيخ سيد المرصفي والشيخ محمد المهدي والشيخ علي عبد الرازق والشيخ مصطفى القاياتي والدكتور أحمد ضيف .

ولو كان لهذا الكتاب صلة بالشريعة الإسلامية لأثنيت على أستاذي الشيخ يوسف الدجوي حفظه الله .

لا مفر من العودة إلى ابن أبي ربيعة أوصف الشعراء لربات الحجال[1] .

الأمر يسير ألم تنفد الطبعة الثانية من كتاب حب ابن أبي ربيعة وشعره فلنطبعه من جديد .

وبعد فقد رأيت أن أضيف إلى هذه الطبعة فصولاً عن حب ابن أبي ربيعة وشعره أفصِّل بها بعض ما أجملت في تلك المحاضرات الثلاث فأثبت رائيته التي أعجب بها ابن عباس مصحوبة بالشعر والتفسير ، وأترجم مصعب بن عبد الله الذي انفرد بين القدماء بتقديم مزايا شعره إلى الجمهور ، وأتحدث عن معشوقاته اللائي أضرمن في قلبه نار الحب ، وهدينه إلى سواء النسيب ، وأذكر بعض الفكاهات التي اتصلت به وجرت مجرى الأمثال .

(١) فقرات من الطبعة الثالثة من منشورات المكتبة العصرية / صيدا - بيروت من على الصفحات ٩ ، ١٠ ، ١١ .

غير أنى أحب أن أنتهز هذه الفرصة لأعرض لك رأيى فى إيثار الأدب المكشوف إذ كنت واثقًا من أنك سترى فى جملة هذا الكتاب ما أخشى أن تتحرج منه ، أو تتنكر له مع أن الأدب كالفن يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد حتى لا يفتر ويضوى بوضعه تحت رحمة المتزمتين .

الأدب يسمو بقدر ما يتحرر من قيود الزمان والمكان ، فالقصيدة أو الرسالة التى تعبر عن معنى من المعانى الإنسانية أبقى على الدهر من التى تعبر عن نزعة مصرية أو إنجليزية ، فإن النزعات الموضعية عرضة للتغير والزوال ، ولكن الميول الإنسانية جديرة بالخلود ، والأدب المستور يفشى بالحجب المحلية التى لا ندرى أتبقى سائغة مقبولة أم يعدو عليها البدع المستطرف فيلقى بها فى مهاوى الخمول .

ولو عدنا إلى رجال الأدب فى تلك العصور التى نهضت فيها اللغة العربية ولفتت أنظار العالم فى الشرق والغرب إلى ما فيها من عناصر وأصول الحياة ، لوجدنا أكثرهم من أنصار الأدب المكشوف ؛ فهذا أبو الفرج الأصفهانى يودع كتاب الأغانى كل ما عرض له من أخبار الخلفاء والشعراء والكتاب بعبارة حرة صريحة مكشوفة لا يثقلها قيد ولا يحجبها قناع .

وهذا النويرى يكتب نهاية الأرب بحرية خالصة لا يشوبها تحرج ولا يحدها تنسك .

وهذا الجاحظ يأبى أن يحرم القارئ من ثمار إطلاعه التى جمعت ما تفرق من شهوات العقول .

وهذا الثعالبى يفرط فى تصيد من شرد من روائع الملح والفكاهات ونوادر الساسة والملوك .

ولا ننسى ابن منظور الذى أشعر الناس بأنه جبار أهل الجد حين وضع لسان العرب ثم رجع فراعهم بدعابته حين وضع أخبار أبى نواس .

الحزب الوطنى

زرت دار جريدة الأهالى بعد الخروج من الاعتقال ، فَرَأَيْتها داراً بسيطة مكونة من ثلاث حجرات : حجرة للأستاذ عبد القادر حمزة وحجرة للمصحح وهو أحمد أفندى سعيد وحجرة لملخص الأخبار وهو محمد أفندى أبو العز[1] .

ابتدأت أكتب فى جريدة الأفكار سنة ١٩١٤[2] .

وفى سنة ١٩٢١ كنت رئيس تحرير جريدة الأفكار وكانت تنطق بمبادئ الحزب الوطنى وكان يشرف عليها عبد اللطيف بك الصوفانى وكيل الحزب الوطنى[3] .

حين عاد الشاعر شوقى من منفاه تلفتُ لرؤيته ؛ فرأيته أول مرة فى منزل الصوفانى بك بالحلمية الجديدة ... رأيته رجلاً قليل الكلام كثير الصمت لا يدل مظهره على شيء ، وإن أطبقت شهرته الآفاق[4] .

وكنت أسهر فى منزل عبد اللطيف بك الصوفانى كل ليلة لآخذ رأيه فى بعض المسائل وكان المغفور له الشيخ محمد شاكر يسهر كل ليلة فى بيت الصوفانى بك ؛ وكانت بين الرجلين مودة تفوق الوصف ... ومن ليلة إلى ليلة كان يصحبنى عريان بك المهدى فقال الصوفانى بك أنا أرى أن تكونا عضوين رسميين فى الحزب الوطنى فتعالا معى ، خرجنا فى عربة الصوفانى بك ودخلنا عيادة الدكتور إسماعيل صدقى

(١) ١٩٥٠/٨/١٣

(٢) ١٩٥١/٢/٢٧

(٣) ١٩٤٨/٩/٦

(٤) من على صفحات كتاب زكى مبارك : « الأسمار والأحاديث » .

وهو طبيب كانت له مكانة ممتازة ، وكانت إليه أمانة الخزينة ؛ خزينة الحزب الوطنى ، وكان الرسم جنيهاً فدفعه عنى ودفع عريان بك خمسة جنيهات ، وبهذا صرنا رسمياً أعضاء فى الحزب الوطنى .

وكانت جريدة الأفكار ضعفت بسبب تعصبها للحزب الوطنى والصوت فى ذلك الوقت للوفد المصرى[١] .

رأى عبد اللطيف بك الصوفانى أن تكون رئاسة تحرير « الأفكار » للأستاذ عبد اللطيف حمزة ، واشترط الصوفانى بك أن تكون على مبادئ الحزب الوطنى ولها أن تقول فى مدح الوفد ما تريد .

قدمت استقالة ولكن الأستاذ عبد القادر حمزة يستدعينى بالتليفون ويقول : تحضر بسرعة لمهمة صحفية . مضيت إليه فقال إن الصوفانى بك يحرص عليك وأنا لست أقل مروءة من الصوفانى بك .

كان عبد القادر حمزة قد ألف جيشاً من المحررين : زكى مبارك ولطفى جمعة ومحمد السباعى وسلامة موسى وعباس محمود العقاد ومحمد بيومى جنيد وتوفيق اليازجى ، وهو كاتب سورى يجيد النقل عن الإنجليزية وإبراهيم المصرى .

كان مصطفى كامل يقول : لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً ، وأنا أيضاً أقول بمثل هذا القول عن عقيدة وإيمان[٢] .

لم يكن من حظى أن أرى وجه مصطفى كامل ، وكان من حظى أن أرى وجه محمد بك فريد مرة واحدة ، وهو يلقى خطبة فى الاحتفال بعيد الهجرة النبوية فى كلية مصطفى كامل[٣] .

---

(١) أخذت من البلاغة بهذه التواريخ ١٩٥٠/٢/٢١ ، ١٩٥١/٢/١٦ ، ٥١/٤/٩ ، ٥١/٩/١٧ .
(٢) ١٩٤٧/٧/٢٦
(٣) ١٩٤٦/٤/٢٧

مشروع ملنر ومعاهد سنة ١٩٣٦[١] :

قامت فى وجه مشروع ملنر مقاومات ، فقد نقده رجال الحزب الوطنى نقداً مطولاً وطبعوه على شكل كتاب ثم وزعوه بالمجان .

ولكن الشاعر أحمد شوقى نظم قصيدة سنة ١٩٢٠ فى الدعوة إلى قبول مشروع ملنر ؛ ومشروع اتفاق ملنر إنما هو حكم على آمال أمة ، ولئن كان الشاعر حراً فى اختيار النوع الذى يحبه من الحياة فإنه غير حر فى الدعوة إلى نوع من الحياة لا يتلاءم مع الشعب الذى ولد فيه والوطن الذى درج منه ، وهو عرضة لأن يوصف بضعف العزيمة وخمود النفس وركود الطبع ؛ وإنه بدلا من أن يتعالى إلى أبكار المعانى فهو يدعو الناهضين إلى السقوط ولا يحض الساقطين على النهوض .

أنا لست وفدياً وإن كنت أكتب فى أكبر جريدة وفدية ، وأنا أكتب فى جرائد الوفد المصرى بمبادئ الحزب الوطنى[٢] .

وسعد زغلول فى نظرى شخصية مصرية أصيلة ، ومبادئ الحزب الوطنى توصى باحترام الأصلاء من عظماء الرجال .

أنا باقٍ تحت راية الحزب الوطنى إلى آخر الزمان ، لأعيش فى ظل الأسطورة التى تقول : لا مفاوضات إلا بعد الجلاء ؛ أنا لا أزال عضواً فى الحزب الوطنى ، وهى فكرة خيالية ولكنها مطلوبة[٣] .

وأقول مع الأسف إن الحزب الوطنى ينتحر ، ولعل فى هذا خيراً إن كان فى الشر خير .

---

(١) جريدة المحروسة فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٠ ، والمقال موجود على صفحات كتاب « أحمد شوقى بقلم زكى مبارك » إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك ، وقد صدر سنة ١٩٧٧ عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وهذه الكلمة نقلت بتصرف .

(٢) ١٩٤٦/٨/٢٠ وهى جريدة البلاغ .

(٣) ١٩٥٠/٥/٣٠

... وجاء مصطفى الشوربجى بك وزيراً ليصلح ما أفسده الزمان فعينً محمد شكرى كيرشاه قاضيًا ، ولكن شكرى مات وهو فى القطار ومات أخوه فى حادثة سيارة بالإسكندرية ، وبهذا ضاع أقطاب الحزب الوطنى .

كتاب ذكرى محمد فريد[1]

تأليف الشيخ زكى مبارك

المحرر بجريدة الأفكار

سَلُوا برلين عمن حلَ فيها	يفتِّتُ كَبْدَهُ المرض العنيدُ[2]
مضى يستوهب الأيام عمراً	تتم به المساعي والجهود
فلم يذهب بعلته طبيب	ولم يكتب له عمر جديد
وخرَّ على السرير وحب مصر	على تبريح علته يزيد
فما ضمن البقاء له صديق	ينادى : لا عدمتك يا فريد

* * *

فيا لهفى عليك وأنت كهل	غريب عن أحبته بعيد
تموت فلا ترى مشواك أم	ولا أخت ولا زوج ودود
ولا يروى ثراك أخ شقيق	بدمعته ولا طفل وليد

* * *

(١) صدر الكتاب فى الذكرى الأولى لرحيل محمد فريد سنة ١٩٢٠

(٢) قصيدة صدرت فى نوفمبر سنة ١٩١٩ وكانت تحت عنوان : دمعة على رئيس الحزب الوطنى المغفور له محمد بك فريد .

فـــلا يشـــمت بمنعـــاك الأعـــادى ولا يفـــــرح ببلـواك الحـــــســـود

فـــتلك بليـــــةٌ لم ينـج منهـــــا على إشــراق عـــزته الرشـــيـــد

ومن يك مـــثلنا حـــسـبًـا ومـــجـداً تُشَـــجِّــعــه الصــــواعق والرعـــود

فـــإن يك ســــرُّهم منعى فـــريد فكل غـــــضنفـــر منا فـــريد

* * *

ولم نجد فى عظماء الرجال أحرص على المجد وأعشق للفضل مع احتمال المكاره[1] ، واقتحام المخاطر مثل هذا الذى لم يشغله الفقر وهو شاغل ، ولم يسكته المرض وهو قاتل ، بل جاهد جهاد البدر فى قتل الظلمة وكشف الغمة حتى أسلم الروح وانتقل إلى جوار ربه .

هذه صحائف بيض نكتبها لمن كان له قلب يعرف أن عظماء الشرق خير من عظماء الغرب وأن ابن النيل فى بأسائه أشرف من ابن التايمز فى نعمائه .

وليعلم الذين فى قلوبهم مرض أن مصر التى كانت عروس الممالك لا تزال تنبت عرائس النفوس ، وكرائم العقول ، وإن حرمت الحول والطول فقد منحت الفضل والنبل ، وأنها خليقة بأن تقتلع الظلم من أصوله ، والجور من جذوره كما يقتلع الماء ، وهو صاف شفاف ما يعترضه من لفائف الأعشاب وقذائف الأوشاب ، وأن تمحو آية الذل كما يمحو الصبح آية الليل ، وأن تنسخ الاحتلال كما تنسخ الشمس الظلام :

ومن يك مـــثلنا حـــبًـــا ومـــجـــداً تـشـــجــعـــه الصـــواعق والرعـــود

فـــإن يك ســـرهم منعى فـــريد فكـــل غـــضنفـــر منـــا فـــريد

(١) صفحة ٧ من الكتاب أو بمعنى أدق من الكتيب ص ٣ ، ٤ ، ٥

نعم أنا أريد أن أكتب عن شهيد الحرية وفقيد الوطن ؛ سأكتب فى ذكرى الرئيس الراحل ، وسيعلم من فى المشرقين أن فى مصر قلوب فياضة بالبر وعَشَّاقة للخير ، وأن للنيل أبناء بررة يشجعون العامل فى دنياه ويمجدونه فى أخراه ، يدفنونه فى الصدور لا فى القبور ، فما ينتقل من حياة إلا إلى حياة ولا تغفل الأفئدة عن حبه والألسنة عن ذكره إلا إن قدِّر للشرق أن ييأس ولن ييأس ، أو كتب للغرب أن يكرم ولن يكرم .

كتاب " مدامع العشاق "

إهداء :

« إلى تلك النفس التى لا يعنيها من أمرى شىء والتى أخلفت ما أخلفت من الوعود ونسيت ما نسيت من العهود ، والتى شغلت بنعمة المال والجمال عما أقاسى من محنة وعذاب ، والتى ما أحسبنى أطمع فى أن تسكن إلىّ أو تعطف علىّ ، إلى تلك النفس الظلوم أهدى هذا السفر الحزين[1] .

ولست آمل والحمد لله والحب أن تتوّجه بالقبول فإن هذا أمل عزيز المنال وكل ما أصبو إليه : أن تنفحنى من أجله بظلم جديد .

فبعض الظالمين وإن تناهى شهى الظلم مغفور الذنوب » .

فى مصر قوم لا يعرفون من الجد غير الغطرسة والكبرياء ، والكاتب الجاد فى نظرهم هو الرجل السليط الذى يخيل إليه كلما كتب[2] :

---

(١) كتاب مدايع العشاق صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٢٣ عن المكتبة التجارية الكبرى ، وصدرت طبعته الثانية عن دار الجيل / بيروت سنة ٩١ أما الطبعة الثالثة فقد صدرت سنة ١٩٩٦ عن مطبعة ومكتبة مصر بالفجالة .

(٢) مقتطفات من مقدمة المؤلف ... وقبل إهداء المؤلف نلتقى بكلمة كتبها الدكتور أحمد ضيف :

إن النساء منبع من منابع الشعر ، والشعراء مدينون لهن بأفضل الصفات لديهم ؛ وهى وصف شعور الناس ، لأن الشاعر الذى يشعر بالحب لا يتكلم عن نفسه فحسب وإنما يجمع آلام العُشّاق وأنينهم فيتألم ويئن معهم ، وليس هناك أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين ، وليس الغزل فى كلام العرب من المسائل الهزلية ؛ لأن الشعر الذى هو وحى النفوس أكثر ما يكون ظهوراً فى التعبير عن الحب ، ولأن العشق إدراك أكبر مظاهر الجمال فى الكون .

ومن لم يفتح الحب قلبه يوماً لم يدرك أسرار الحياة ، ومن ولم يرَ غير ظواهرها ، لم يتسرب إلى نفسه بصيص ضوء من جمال الوجود » .

أنه قسيس فى كنيسة حافلة أو خطيب فى مسجد جامع ، فهو مسئول عن سرد الرذائل وعد المنكرات ؟!

فأما الكاتب المفتون بما أودع الله هذا العالم من روائع الحسن وبدائع الجمال فهو فى رأيهم كاتب ماجن خليع !!

آمنت بالله وكفرت بما لهم من منطق مقلوب .

يريد جماعة ممن أظلمت الدنيا فى وجوههم وعَمُوا عن صنع الله الذى أتقن كل شىء ، ماذا يريدون ؟

إنهم يريدون أن أجاريهم فى ذم الدنيا والتبرم بالوجود ، ولكنى عرفت ما لم يعرفوا من « أفنان الجمال » فى هذه الدنيا البديعة التى حملت الغزالى على أن يصرح بأن ليس فى الإمكان أبدع مما كان ؛ فعدت خليقا بحمد الحسن والتقديس له كلما أمعنوا هم فى الجحود :

يقولون إن « مدامع العُشَّاق » التى أنشرها فى جريدة الصباح مما يفسد الشباب وذلك منهم جهل بأسرار الجمال وما له من الأثر فى تهذيب النفوس ، وتثقيف العقول ، ويهددون ويتوعدون بالويل والثبور إذا أنا مضيت فى هذا البحث الشائق الطريف !

فهل حسب هؤلاء السفهاء أنى أكتب لهم حتى أنـزل عند رأيهم السخيف المأفون !

ولكن ما هى الغاية من تأليف كتاب مدامع العشاق ؟[1]

إنها غاية وطنية وهى تحبيب الشبان فى الشعر العربى الشبان الذين يستهويهم أدب الإنجليز والفرنسيين والألمان فى الحديث عن الحب ، وكتاب حب ابن أبى ربيعة وشعره ألفته لهذا الغرض .

---

(١) من على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٩٥١/٢/١٦

موجبات الدموع[1] :

نذكر في هذا الباب حديث الشعراء عن أسباب البكاء ، وموجبات المدامع ثم ما يعرفون عن احمرار الدموع بعد أن كانت بيضاء ، وابيضاضها بعد أن كانت حمراء .

وللدموع أسباب عامة وأسباب خاصة .

فأما الأسباب العامة فهي الحرق الدخيلة والجوى الدفين ، وما إلى ذلك من البث والحزن واللوعة والحسرة ، فمن هذا قول العباس بن الأحنف :

ظلمت عـــيناك عـــيني إنهـــا　　　بـادلتـــهـــا بـالرقـــاد الأرقـــا

سلط الشـــوق على الدمع فـــمـــا　　　هب داعي الشـــوق إلا اندفـــعـــا

وما كان منه أن ينسب إلى عينيها الظلم ، لابتلائه بالسهاد ، وخير منه قول صريع الغواني :

أســــهـــر تموني أنام الله أعـــينكم　　　لسنا نبـالي إذا مـا نمت من سـهـراً

ولـو قـال :

رحـــمت عـــيناك عـــيني إنهـــا　　　بـادلتـــهـــا بـالرقـــاد الأرقـــا

لكان أقرب إلى الصدق وعرفان الجميل ، فحسب المحب ما أهدته عينا حبيبه من ضنى الجسم وسهر الجفون .

وقال البحتري :

قـــد أرتك الدمــــوع يوم تولت　　　ظعن الحي مـــا وراء الدمــــوع

عـــبـــرات ملء الجـــفـــون مـــرتهـــا　　　حـــرق للفــــؤاد ملء الضلوع

فـــرقـــة لم تدع لعـــيني مـــحب　　　منظراً بـالعـــقـــيق غـــيـــر الربـــوع

ولا أدري ما الذي أراده البحتري بما وراء الدموع ؟ أهو الدم الأحمر الذي تجود به الشجون عندما تفيض المدامع أم هي الحرق الدخيلة التي ينبئ عنها الدمع .

---

(١) صفحة ١٤ من كتاب دار الجيل / بيروت وهي بعض السطور من الكلمة .

الأخلاق عند الغزالى

« فى سنة ١٩٢٦ نشر الدكتور سنوك هو جروشيه شيخ المستشرقين رسالة باللغة الهولندية عن كتاب «الأخلاق عند الغزالى»

زكى مبارك

ألفت كتاب الأخلاق عند الغزالى وبه ظفرت بالدكتوراه فى الفلسفة أول مرة سنة ١٩٢٤ ، فكنت أول دكتور فى الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة[١] .

هذا هو كتاب الأخلاق عند الغزالى أقدمه للجمهور ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المغرضين من الصدق وحظ المرجفين من الصواب[٢] .

---

(١) ١٩٤٨/٦/٢٨

(٢) فقرات من استهلال فاتحة الكتاب ، طبعة دار الشعب بالقاهرة سنة ١٩٧٠ .

والآن مع مقتطفات من مقدمة الكتاب بقلم الدكتور منصور فهمى ، وقد قدمنا بعد ذلك تعقيب المؤلف :

« وأنت يا أخى درست مؤلفات الغزالى وفهمتها وحللتها وبينت ما فيها من الخطأ والصواب فماذا ينقم الناس منك ، وقد ذكرته بالخير حين رأيت أن يذكر بالخير وذكرته بالملام حين رأيت أن يذكر بالملام ، وما كان الغزالى بأكبر من أن يخطئ ولا كنت أنت بأصغر من أن تصيب .

لقد راعهم أن يقسو قلمك عن مؤلف له عندهم حرمة وقداسة ، وكان عليهم أن يذكروا أنك شاب وأن قلم الشباب قاسٍ شديد ، بل ليتهم عملوا بما طالبوك به من الرفق والهدوء فلم يوجهوا إليك قارس اللوم ومر التأنيب .

ويختم الدكتور منصور فهمى كلمته بقوله : ولكن إياك أن تجزع وقد بُدِئَتْ حياتك العلمية بصدمة من تلك الصدمات الاجتماعية ، فذلك دليل على أنك خادم من خدام الإصلاح ، وهو خير لقب تلقى به الله ... ولك خالص الدعوات والعطف والسلام .

وهو الكتاب الذى فجر لحسادى ينبوعًا من اللغو والثرثرة لا ينضب ولا يغيض .

وما أنا والله بنادم على رأى رأيته أو قول جهرت به ، فلست ممن يخافون فى الحق لومة لائم أو يقيمون وزنًا لكيد الحاسدين ولغو اللائمين من مرضى القلوب وضعاف العقول وصغار النفوس ، وإنما يحزننى ما يلاقى أصدقائى من العنت فى دفع ما يفترى الكاذبون ويختلق المفسدون .

آداب المتوكلين[1] :

وضع الغزالى الآداب الآتية للمتوكل حين يخرج من بيته :

أن لا يترك فى البيت متاعًا يحرص عليه السراق !

ما يضطر إلى تركه فى البيت ينبغى أن ينوى عنه عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه !

إذا عاد فوجد المال مسروقًا فينبغى أن لا يحزن ، بل يفرح إذا أمكنه !

أن لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ، ودل على تأسفه على ما فات !

أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله ويشكر الله إذ جعله مظلوماً ولم يجعله ظالمًا .

الفضائل السلبية[2] :

ننظر فى الفضائل التى عنى بدرسها الغزالى فنجدها فى الأغلب فضائل سلبية : من ذلك فضيلة الفقر وفضيلة الزهد وفضيلة التواكل وفضيلة الخوف وفضيلة الخمول وفضيلة التواضع وفضيلة الجوع .

---

(١) صفحة ١٨٨ من الكتاب نفسه .

(٢) صفحة ١٧٠

ولم يعن الغزالى بشرح الفضائل الإيجابية : كالشجاعة والأقدام والحرص وما إلى ذلك مما يحمل المرء على حفظ ما يملك ، والسعي لنيل ما لا يجد ؛ فإنه لا يكفى أن يسلم الرجل من الآفات النفسية بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة .

بينما كان بطرس الناسك يقضى ليله ونهاره فى إعداد الخطب وتحبير الرسائل لحث أهل أوروبا على امتلاك أقطار المسلمين .

كان الغزالى حجة الإسلام غارقًا فى خلوته منكبًا على أوراده . لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة والجهاد[١] .

ويكفى أن تذكر أن الإفرنج قبضوا على أبى القاسم الرملى الحافظ يوم فتح بيت المقدس ونادوا عليه ليفتدى فلم يفتده أحد ، ثم قتلوه ، وقتلوا معه من العلماء عدداً لا يحصيه إلا الله ، كما ذكر السبكى فى طبقاته .

تعقيب المؤلف[٢] :

أكرر الشكر لسيدى الأستاذ الدكتور منصور فهمى وأؤكد له أن بينى وبين علماء الأزهر الشريف عرا لا تقدر على قصمها الليالى . ولن أنسى ما حييت أنى مدين على الأقل لحضرات أساتذتى الأماجد الشيخ الدجوى والشيخ اللبان والشيخ الظواهرى والشيخ الزنكلونى والشيخ حسين والى ، والشيخ سيد المرصفى ، فإذا قضت الظروف بأن تقطع بينى وبين الأزهر جميع الصلات – لا قدر الله ولا سمح – فإنى لن أنسى ولن ينسى أحد أنى مدين لأساتذتى فى الأزهر وأن خروجى عليهم ضرب من العقوق ونكران الجميل .

اللهم إن كنت تعلم أنى صادق فيما أقول فأجرنى بخير ما يجزى به المؤمن الصادق ، وإن كنت تعلم أنى أظهر غير ما أضمر فاغفر لى وتب علىَّ فإنك وحدك التواب الغفور .

---

(١) صفحة ٢٥

(٢) تعقيب المؤلف الدكتور زكى مبارك على كلمة الدكتور منصور فهمى ... وقد أوردنا بعض الآراء النقدية لزكى مبارك ... ومن يريد معرفة كل آراء زكى مبارك أن يعود للكتاب .

زهر الآداب وثمر الألباب

كتاب زهر الآداب وثمر الألباب تأليف أبو اسحاق الحصرى وهو إبراهيم بن على ابن تميم المتوفى سنة ٤٥٣ هجرية ، وعنى به كثير من كتاب التراجم ؛ فتكلم عنه ابن رشيق فى الأنموذج وابن بسام فى الذخيرة والرشيد بن الزبير فى الجنان وابن خلكان فى وفيات الأعيان(١) .

وذكروا أنه ترك كتاباً اسمه « المصون فى سر الهوى المكنون » فى مجلد واحد فيه ملح وآداب ، أما كتابه الخالد فهو « زهر الآداب وثمر الألباب » وإنه ليسجع حتى فى تسمية كتبه ، وكذلك كان يفعل فى عهده المؤلفون .

طريقته فى التأليف :

الأدب لا موضوع له كما كان يقول أستاذنا الجليل الشيخ سيد المرصفى ، وكذلك كان يفهمه أبو إسحاق الحصرى فهو لا يحفل بترتيب المسائل ولا تبويب الموضوعات وإنما يتصرف من الجد إلى الهزل ، ومن الشعر إلى النثر ومن المطبوع إلى المصنوع ، وهذه الطريقة من أهم الطرق فى التأليف ، وإن عابها من لا يفرق بين الموضوعات العلمية والموضوعات الأدبية .

---

(١) حقق الدكتور زكى مبارك كتاب زهر الآداب وثمر الألباب .
وصدر فى أربع مجلدات عن المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٢٥ ، ثم قدم طبعة ثانية سنة ١٩٢٩ ... وطبع بعد ذلك فى مجلدين عن دار الجيل / بيروت سنة ١٩٩٠ والسطور التى مرت بنا هى مقتطفات من مقدمة الكتاب .

وكان المتقدمون لا يصفون زهر الآداب إلا بأنه جمع كل غريبة .

وهو وصف صادق ، وإني ذاكر هنا بعض صفات الكتاب وعلى الأخص الصفات التى تعين منهج مؤلفه وتميز اتجـاه بعض الأفكـار فى العصـر الذى عـاش فيـه ، وإنا لنجده :

أولاً : يهتم ببراعة المطلع وحسن الختام .

ثانيًا : يعنى عناية خاصة بالكلام عن الصحابة والتابعين فينقل أخبارهم ويدون آثارهم ، وكانت هذه فيما يظهر عادة إسلامية فى ذلك الحين .

ثالثًا : يجعل الكلام فى المصيبة بأبناء النبوة بابًا من أبواب الأدب .

رابعًا : يبدأ الحصرى ويعيد فى الكلام عن البلاغة والبلغاء والشعر والشعراء والإنشاء والمنشئين ، وكذلك كان أهـل عصره يهتمون بدرر النثر والشعر ، ونحن مدينون لهم بما يتصل بهذا الباب من المعارف الأدبية .

خامسًا : يذكر كثيرًا من الآداب الاجتماعية التى كان يحمدها الناس لعهده ، فيذكر ما يجمل فى معاملة الملوك ، ويتحدث عن فضل الليل ، والحرص على الأدب وواجب النساخ وما إلى ذلك مما يتصل بما على المرء من الواجبات وما له من الحقوق .

قيمة زهر الآداب : كان المتقدمون يعنون بدراسة الكامل للمبرد ، والبيان والتبين للجاحظ ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، والنوادر لأبى على القالى ، وكانت هذه الكتب أصول الأدب عندهم كما ذكر ابن خلدون .

وعندى أن زهر الآداب أغزر مادة وأكبر قيمة من جميع تلك المصنفات ؟ لأن ذوق الحصرى ذوق أدبى صرف أما أولئك فكانت أهواؤهم موزعة بين اللغة والرواية والنحو والصرف .

إن زهر الآداب دائرة معارف أدبية ، شاء الله أن تسلم من جناية الليالى ، والحمد لله على أنى كنت الموفق إلى إحياء هذا الأثر النفيس .

كتاب : الموازنة بين الشعراء[1]

ليست الموازنة إلا ضرباً من ضروب النقد يتمز بها الردىء من الجيد ، وتظهر بها وجوه القوة والضعف فى أساليب البيان : فهى تتطلب قوة فى الأدب وبعداً بمناحى العرب فى التعبير ، ومن هنا كان القدماء يحتكمون إلى النابغة تحت قبته الحمراء فى سوق عكاظ إذ كان فى نظرهم أقدر الشعراء على وزن الكلام[2] .

وقد كَلِفَ الأدباء فى مختلف العصور بالموازنة بين من ينبغون من الشعراء فى عصر واحد : فوازنوا بين امرئ القيس والنابغة ، وزهير والأعشى فى الجاهلية ، وبين جرير والفرزدق والأخطل فى الدولة الأموية ، وبين أبى نواس ومسلم بن الوليد وأبى العتاهية ، وبين ابن المعتز وابن الرومى ، وبين أبى تمام والبحترى فى الدولة العباسية .

وكذلك عقدت الموازنات بين من نبغوا بعد أولئك الفحول إلى العصر الذى نعيش فيه ؛ والعهد قريب بما كتب فى الموازنة بين شوقى وحافظ ومطران فى الجرائد المصرية والسورية ، ولا يزال الأدباء مختلفين فى حكمهم على من تقدمهم أو عاصرهم من الشعراء .

ونريد أن نبين فى هذه الفصول أغلاط النقاد الذين تصدّوا قديماً أو حديثاً للموازنة بين شاعرين : جمع بينهما عصر واحد أو اشترك فى الإبانة عن غرض واحد ،

---

(١) الموازنة بين الشعراء كتاب طبع ثلاث مرات ؛ كانت الطبعة الأولى سنة ١٩٢٥ ، والطبعة الثانية صدرت عن مطبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٣٦ ، كما صدرت الطبعة الثالثة عن دار الجيل / بيروت سنة ١٩٩٣ . وصدر فى طبعة رابعة عن المجلس الأعلى للثقافة سنة ٢٠٠٦

(٢) هذه مقتطفات من كلمة للشاعر والناقد زكى مبارك تحت عنوان : أهواء النقاد .

وأن نضع ميزانًا يعتمد عليه فى وزن ما للشعراء من الحسنات والسيئات ليستطيع المتأدب الفصل بين شاعرين اختلف من أجلهما الناس .

يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عليا فى فهم الأدب وأن يصبح وله فى النقد حاسة فنية تنأى به عما يفسد حكمه من الأهواء والأغراض التى تحمل القاصرين من طلاب الأدب على البعد عن جادة الصواب حين يوازنون بين الشعراء والكتاب والخطباء ؛ فقد نجد من الناس من يطرب للشعر لا لأنه شعر ، بل لأنه طرق موضوعًا يحبه وكشف عن معنى تميل نفسه إليه ، وقد لا يكون ما سمعه أو قرأه جميلاً من الوجهة الفنية ؛ أفيعتبر هذا الإعجاب دليلاً على حسن ما استَحْسَنَه هذا الذى تشبَّعت نفسه بغرض خاص ؟

ومن هنا نستطيع غض النظر عن أحكام المتأدبين الذين يفضلون القديم مطلقًا على الجديد ، بحيث يرون الجديد نوعًا من الهراء ، أو يفضلون الجديد مطلقًا على القديم بحيث يرون القديم صورة من صور الجمود ، وإنما نغض النظر عن أحكام هؤلاء ، لأن التشيع للقديم أو الجديد صرفهم عن الاستعداد للحاسة الفنية التى تطرب للجيد الممتع من ثروة القدماء والمحدثين .

الصور الشعرية[1]

الصورة الشعرية هى أثر الشاعر المفلق الذى يصف « المرئيات » وصفًا يجعل قارئ شعره ما يدرى أيقرأ قصيدة مسطورة أم يشاهد منظرًا من مناظر الوجود والذى يصف « الوجدانيات » وصفًا يخيل للقارئ أنه يناجى نفسه ويحاور ضميره لا أنه يقرأ قطعة مختارة لشاعر مجيد .

---

(١) الصور الشعرية بحث لزكى مبارك على صفحة ٦٢ من كتاب دار الجيل ...

والآن أرجع إلى توضيح ما ذكرته فى الكلمة الماضية من أن فضل الصورة الشعرية إنما هو تمكين المعنى فى النفس لأن نهاية الكلام البليغ من نثر أو شعر إنما هو التأثير ، والصورة الشعرية لما فيها من تحليل المعنى وتعليله كافية فى تحقيق غاية البيان[1] .

وأريد أن ألفت نظر الناقد إلى ما يجب عليه من اختيار الصور الشعرية وإدراك ما بينها من دقائق الاختلاف والائتلاف : فإن الموازنة نوع من الوصف وبيان ما بين الصور من مختلف الفروق[2] .

كان النقد يرتكز على وحدة البيت عند نقد الشعر وعلى وحدة الفقرة عند نقد النثر بغض النظر عن وحدة الغرض الذى سيق من أجله الكلام ، وكانوا يقولون فيمن يندر له بيت : لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس[3] .

ونحن فى تعويلنا على « الصور الشعرية » التى تمثل الأغراض ، لا ننكر أهمية الألفاظ المختارة والأخيلة الرائعة التى تأتى فى تضاعيف المنظوم والمنثور فتمثل المعانى أصدق تمثيل .

أما اللفظ المختار فكقول كثير :

لو أن عَزَّةَ خاصمتْ شمسَ الضُّحى

فى الحسنِ عند مُوفَّقٍ لَقَضَى لها

كلمة « موفق » ، كلمة دقيقة بارعة تمثل مراد الشاعر أصدق تمثيل ، لأنه يريد أن يخيل إليك أن عزة كالشمس فى الحسن والإشراق ، وأنها لو خاصمت الشمس فى

---

(١) ثم يتحدث زكى مبارك عن « أهمية الصور الشعرية » ؛ وقد قدمنا منها هذه السطور .

(٢) وتحت عنوان « اختلاف الصور الشعرية » نقلنا هذه السطور صفحة ٨٢ من الكتاب نفسه .

(٣) حول أهمية الألفاظ المختارة صفحة ٩٣ .

الحسن لاشتبه الأمر على من يفصل فى هذه الخصومة ، وأنه لابد من التوفيق ليحكم بتفوق هذه المحبوبة على الشمس ، ولا يحتاج الحكم إلى التوفيق إلا حين يلتبس الحق ويتعذر الفصل ، وحسب هذه الحسناء أن تفتن الناظر وأن تكون فى نفس المنصف أولى من الشمس بالجمال .

أما الخيال الرائع فكقول النابغة الذبيانى فى وصف الليل :

تطاول حتى قلتُ ليسَ بمنقض   وليس الذى يرعى النُّجوم بآيبِ

فقد صور النجوم بصورة الإبل تسرح وتمرح فى أديم السماء ، وصور الصبح بالراعى الغائب الذى يخشى أن لا يؤوب وفى أوبته صرف هذه النجوم .

اذكر هذا ثم تعال ننظر : أهذا هو الغرض الذى سيق من أجله الحديث ؟

كلا ! فإن الغرض أوسع من ذلك ، وعرض النابغة أن يشكو إلى محبوبته هجوم الهم على صدره فى ظلمة الليل ، وقد أفصح عن هذا الغرض فى هذه الأبيات :

كِليني لِهمٍّ يا أميمةُ ناصب   وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكبِ

تطاولَ حتى قلت ليس بمنقضٍ   وليس الذى يرى النُّجوم بآيبِ

وصدر أراح الليلُ عاذب همَّه   تضاعف فيه الحزنُ من كل جانبِ

وهذه صورة شعرية لتمثيل الغرض الذى قصد إليه الشاعر فى مطلع قصيدته ، فقد تحدث عن همه الممض الموجع وليله الذى طال بطوله بثه وشجاه وصدره الذى أراح الليل ما عزب من همه ، وهذا أيضاً خيال رائع : فقد صور الهموم بصورة الإبل تسرح نهاراً ثم تراح ليلاً إلى الحظيرة وكذلك يُشغل المرء عن همومه بالنهار فإذا انقطعت شواغله بالليل دبت الهموم إلى صدره فاحتلته من جديد .

العمل بالحكومة والمدارس

فى شهر أبريل من عام ١٩٢٤ تقرر قبول الرسالة التى قدمتها للظفر بالدكتوراه فى الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة عن الأخلاق عند الغزالى ، وكانت المناقشة العلنية بعد ذلك بدرجة جيد جدا[١] .

كان أول عمل وليته بالحكومة المصرية هو تصحيح كتاب الأغانى بدار الكتب المصرية فى ديسمبر ١٩٢٤ موظفًا باليومية[٢] .

واختارنى الأستاذ حبيب إسكندر مديراً لتعليم اللغة العربية بمدارس التوفيق القبطية ، وكان كثير من التلاميذ الأقباط ينجحون فى جميع المواد ويتخلفون فى اللغة العربية ، فلما توليت التدريس صاروا ينجحون فى اللغة العربية حتى جرجس عبد الملك[٣] .

مضيت للتسليم على الأستاذ حبيب إسكندر فقال : أنا سأفارق مدارس التوفيق القبطية ، وقد اختارتنى الجامعة الأمريكية أستاذًا للكيمياء ، وأحب أن تكون معى فنتائج الامتحانات العمومية فى القسم الحكومى بالجامعة الأمريكية متقدمة ولكنها فى اللغة العربية لم تزد عن الصفر غير درجات بلغت الغاية فى الهزال .

مضينا فقابلنا الدكتور أمير بقطر وما كنت رأيته من قبل ، وهو رجل أمير ولكل سمى من اسمه نصيب ، قال : نكتب العقد ويمضيه المستر مكلانهن ، وفيه أنك رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية .

---

(١) نقلا عن مجلة الاثنين والدنيا بتاريخ ٢ أبريل سنة ١٩٤٥ .

(٢) ١٩٥٠/١٠/٢٤

(٣) ١٩٤٨/٧/١٢

أنا اخترت مهنة التدريس وعرفت حلوها ومرها ورأيت ما يقاسى المدرسون ، وبينت كيف تكتوى قلوب المخلصين فى هذه المهنة العنيفة التي لم يصبر على عنائها غير الأنبياء[1] .

أنا أقترح أن يوكل تعليم المبتدئين إلى رجال اشترط فيهم شرطين :

الشرط الأول أن يكونوا جاوزوا الثلاثين ، والشرط الثانى أن يكون فى بيوتهم أطفال ، ولكن ما الموجب لا شتراط هذين الشرطين ؟

أنا فى الحقيقة أرى أن المبتدئ يحتاج إلى معلم فيه معنى الأبوة ، والمعلم الذى فيه معنى الأبوة يصبر على الطفل ويروضه برفق ويتلقى أخطاءه بالابتسام فلا يحقد عليه ولا يؤذيه بالضرب .

والنظرية صحيحة فرياض الأطفال توكل دائمًا إلى نساء وإن كن صغيرات ، لأن المرأة مفطورة على الأمومة ، وإن كانت صبية لا تصل إلى العشرين[2] .

ويجب أن نغير الطريقة المتبعة فى مدارسنا وهى طريقة التحفيظ ، ونتبع الطريقة المثلى فى التربية وهى طريقة التفهيم ؛ والتفهيم هو أن يفهم التلميذ فهمًا صحيحًا ما يعرض فى الدرس من مختلف الأفكار والآراء .

عند ذلك يهتاج شوقه إلى مناقشة ما يسمع وتثور فيه رغبة التفوق ، فيناقش ويجادل ويضمر فى نفسه فكرة التغلب على الباحثين من رجال العلوم والآداب والفنون[3] .

نظام المدارس لا يتيح فرصة للتعمق وإنما يلهى الطلبة بالقشور لكثرة ما يعرض عليهم من العلوم والفنون ، وسيجىء يوم يعرف فيه الناس أن أسلافنا كانوا أبصر منا

---

(١) ذكريات باريس طبعة أولى صفحة ١٣٨

(٢) ١٩٤٥/١٠/١٠

(٣) ١٩٤٥/١٢/١

بالمذاهب التعليمية لأنهم كانوا يعرضون على الطالب علوماً قليلة ثم يفرضون عليه أن يتعمق[1] .

يجب أن نفهم أن الشبان بين العاشرة والعشرين صالحون لفهم أصعب الدقائق[2] .

ويجب أن يكون فى نيتنا جعل مرحلة التعليم الثانوى مرحلة حاسمة فى تكوين عقول الشبان بحيث لا يحتاجون إلى المعاهد العليا إلا إذا تساموا إلى الأستاذية فى مختلف العلوم والفنون ... يجب أن يصير الشاب رجل أعمال بعد العشرين ، وأتعجب من أن يعيش عالة على أبويه إلى الثلاثين .

وأنا أتمنى أن يصبح التعليم مقصوراً على من يملكون الوقت والمال ولهؤلاء فرص لا يظفر بها غير آحاد أو مئات ، وهم لن يكونوا أشرف من الشبان الذين يصارعون أمواج الحياة قبل العشرين .

مرحلة التعليم الثانوى هى الفرصة الحقيقية لتثقيف الشبان وتضييع هذه الفرصة إثم موبق .

مرحلة التعليم الثانوى هى المرحلة النهائية ثم يلتفت الشاب إلى حاله فيكون رجل عمل فى أى ميدان .

أمة الحمام[3] :

للحمام طبيعة هى غاية فى الصدق ؛ فما تلك الطبيعة التى بلغت الغاية فى الصدق ؟

(١) من كتاب « ليلى المريضة فى العراق » الطبعة الأولى صفحة ٢١٠ .
(٢) من على صفحات مجلة « الرسالة » بتاريخ ١٩٤٣/٤/٥ .
(٣) ١٩٤٦/٣/١٩ .

إنه يطرد فرخه من العش حين يشب الفرخ عن الطوق : يطرده بدون رفق ليتفرغ لتغذية زغب الحواصل من أفراخه الناشئين .

ليت الإنسان يستفيد من هذا الدرس ... إن الرجل يشقى فى تربية ابنه إلى سن الثلاثين .

ألا غضبة الله على ابن يحتاج إلى رعاية أبيه بعد سن العشرين .

تأدبوا يا بنى أدم ، تأدبوا ، فالطير الهائم سبقكم إلى التخلق بالخلق الجميل منذ أزمان طوال .

إن ما يصدر عن الفطرة هو الصدق كل الصدق .

الجامعة المصرية

كان أول درس حضرته فى كلية الآداب فى الأسبوع الأول من نوفمبر سنة ١٩١٣[١] .

كان الأستاذ محمد المهدى أول من تلقيت عليه درس الأدب فى الجامعة المصرية ، وقد صحبته فيها أربع سنين وسمعت محاضراته عن عهد الجاهلية وعهد بنى أمية وعصر بني العباس ، وخص الأدب في الأندلس سنة كاملة كانت من أخصب سنينه فى العهد الأخير . وكنت أصل جناحه بعد المحاضرة حتى يصل إلى المحطة وكان رحمه الله يؤثر سكنى الضواحى على سكن العاصمة ، فكانت الفرص كثيرة لمخاطبته فى شتى المسائل وشجون الحديث ، ويمكن الحكم بأنه كان من نوادر الأساتذة الذين فهموا روح هذا العصر واستمعوا نداء هذا الجيل[٢] .

ولكليتنا الغالية أمجاد جديرة بالتسجيل ، وأخص تلك الأمجاد حرية الفتاة فى ارتياد المعاهد العالية ، وهذا لم يقع بمصر لأول مرة إلا فى كلية الآداب[٣] .

كانت رفيقتى فى دروس الأدب والفلسفة والتاريخ فتاة لطيفة الروح ، وهى الآنسة مَىْ ربيبة الجامعة المصرية وعنوان الكاتبة الموهوبة فى اللغة العربية ... وأنا لم اشترك فى رثاء هذه الكاتبة لأنى لا أزال أراها رأى القلب ولأنى لا أصدق أن الفناء يجوز على شبابها وكان من بسمات الوجود .

وقبل أن تموت مَىْ رأيت تأثير كلية الآداب حين زرت الموصل فى ربيع سنة ١٩٣٨ فقد رأيت المدينة كلها مشغولة بكتاب أخرجته فتاة من طالبات كلية الآداب .

---

(١) ثم انتسب زكى مبارك إلى الجامعة بصفة رسمية فى نوفمبر سنة ١٩١٦

(٢) من كتاب البدائع الطبعة الثانية الصفحة الثانية .

(٣) مجلة الرسالة فى ١٩٤٣/٢/٧ .

التدريس بكلية الآداب

إن الجامعة التى أنشئت لمقاومة الاحتلال هى الدار التى ارتفع فيها صوت الاستقلال[1] .

وليست الجامعة حجرات ولا غرفات ولا مدرجات ولا وظائف ، وإنما هى روح وفكر وعقل وبيان .

حين توليت تدريس آداب اللغة العربية بالجامعة المصرية رأيت أنه لا يجوز أن يسقط تلميذ لأن سقوط التلميذ شهادة على ضعف الأستاذ .

كنت أعطى الطلبة واجبات من أول العام الدراسى ثم أقول لهم :

هذا هو عملكم فى العام كله ، ولكم عليه درجات ولكم أن تختاروا الموضوعات[2] .

توليت التدريس مساعداً للمسيو كازانوفا ، كان يلقى دروسًا باللغة الفرنسية وألخصها للطلبة باللغة العربية ، وكان المسيو كازانوفا يفهم اللغة العربية ولكنه لا يحسن التكلم بها فكان يقول حين يسمع تلخيص المحاضرة : هذا ما أردت أن أقول .

ثم تخبرنا إدارة الجامعة المصرية أن المسيو كازانوفا مات ، ثم ماذا[3] .

ثم تجىء المحنة الجديدة وهى أن أصبح مدرسًا مساعداً للدكتور طه حسين فيرى أن أدرس علم النحو وعلم الصرف .

كنت أستأجر شقة فى شارع الغورية إيجارها ستون قرشًا فى الشهر وهو مبلغ بسيط ، ثم تكون مفاجأة مزعجة وهى أننى عينت مدرسًا بالجامعة المصرية فيصل ساعى الجامعة بزيه الرسمى ليقدم جدول الدروس وفى يده «سركى» أمضى عليه ، وأغرقنى الخجل فى ذلك اليوم .

---

(١) مجلة الرسالة فى ١٩٤٣/٢/١٥

(٢) البلاغ فى ١٩٤٧/١١/١٨

(٣) ١٩٤٨/٨/٢١

وبعد أسبوع كنت بمنزل فى مصر الجديدة إيجاره خمسة جنيهات وكان مرتبى فى الجامعة خمسة عشر جنيهًا ، فيكون الباقى الذى أعيش منه عشرة جنيهات ، وضاع منى المبلغ الذى كنت أتقاضاه عن الدروس التى كنت ألقيها بمدرسة الأليانس فرانسيز لأننى صرت موظفًا فى الحكومة المصرية ... فطلبت الدرجة السادسة الكاملة فلم يوافق مدير الجامعة بحجة أن الدكتوراه من الجامعة المصرية ليست شهادة رسمية لأنها كانت جامعة أهلية[1] .

إذن لابد من الرحيل لباريس ولكن أين المال ؟

عرضت الأمر على الأستاذ عبد القادر حمزة فقال : تكون مراسل البلاغ فى باريس ، وعرض مالا فقلت عندى ما يكفى .

---

(١) كانت الدكتوراه الأولى عن الأخلاق عند الغزالى من الجامعة الأهلية .

المنزل الذى يقصده زكى مبارك كان ڤيللا من دورين بشارع أسوان ، وأحضر أسرته من سنتريس ، وكان يقطن الدور العلوى ، وزوجته وأولاده فى الدور الأول ، وفى سنة ١٩٣٤ بنى أبى ڤيللا فى مصر الجديدة أيضًا من دورين ليظل هو فى الدور العلوى ونحن فى الدور الأول .

السفر إلى باريس : ١٩٥١/٩/٢٤

دخلت باريس مع الصبح في يوم عيد ، وانتسبت إلى كلية دار العلوم بجامعة باريس ، ولكن الفقر صدني عما أريد فاكتفيت بالدكتوراه في الأدب وجعلت رسالتي هي التحبيب في العلوم[١] .

وبعت أثوابي لأشترى مجموعة من مؤلفات جان جاك روسو وفيكتور هوجو وشاتو بريان ، وبعت ساعة نفيسة لأشترى النسخة المزخرفة من التوراة والأنجيل ترجمة دى ساس .

كنت فقيراً أيام طلب العلم في باريس فتفضل الدكتور الديواني مدير البعثة المصرية بأن أعطى لطلبة البعثة دروساً خصوصية في اللغة الفرنسية[٢] .

ورأى أكبر أساتذتي أنني مأزوم فأوصى جريدة « الجولو » أن تأخذ مني مترجمات عن الأدب العربي فترجمت للجريدة قصائد من أشعار المتنبي والبحترى وأبي فراس كما ترجمت أيضاً قصيدتي غريب في باريس .

إلى أين أتوجه ؟ ليتني أعرف ؟ الموارد منقطعة لولا دنانير يرسلها صاحب البلاغ لمراسل البلاغ ولولا دراهم آخذها من الطلبة المصريين الضعاف في اللغة الفرنسية ، حملت همومي على أكتافي ومضيت إلى بحر المانش لأغرق همومي هناك[٣] .

---

(١) ١٩٤٥/١١/٧

(٢) ١٩٤٧/٣/٢٦

(٣) ١٩٥٠/٦/٧

على مدخل البانتيون هذه العبارة : « النصر أو الموت » فجعلت هذه العبارة شعارى . ماذا أصنع ؟ ماذا أصنع ؟[1]

لم يكن أمامى إلا مسلك واحد هو الاندماج المطلق فى باريس لأحدث قراء البلاغ بأحاديث منتزعة من الحياة الواقعية فى باريس ... وكان لابد من معاقرة الحياة فى باريس لأنجح فى مراسلة البلاغ .

هدتنى الفطرة إلى قضاء أوقات الفراغ فى الملاهى والملاعب والمراقص والقهوات ... كنت أذرع باريس بقدمى لأخلق لمقالاتى جواً من الحقيقة لا من الخيال وأعاننى على ما أسمو إليه لسان مرن فى اللغة الفرنسية مرونة عجيبة تقدر على جذب من أحاور من أسراب الظباء ... والفرنسيون يغفرون للرجل جميع الذنوب إذا أمدته العناية الإلهية بلسان فصيح .

وكان لى فى باريس ثلاث قهوات : قهوة صغيرة جدا فى بوليش بجوار قهوة الرحيل ؛ وكانت هذه القهوة الصغيرة مخصصة للمواعيد الغرامية والتأملات الفلسفية ، أما القهوتان الأخريان فهما الروتوند والدوم فى حى مونبارناس ، وفى الدوم وقعت المأساة أو الملهاة التى أدونها فى هذا الحديث .

دخلت ذات صباح فوجدت سيدة تطالع سفر الوجوه بعينين زرقاوين يندر أن يكون لهما شبيه أو مثيل ... وبعد أن دار الكأس نحو عشرين دقيقة هاجمت تلك السيدة الجميلة بعنف فقالت اسمع أيها السيد : ليست الغواية همى ولا هى مناى ... أنا امرأة شقية خدعها شاب باسم الحب وكان ثمرة الحب طفلاً ، فأنا أتسول باسم الحب لأنفق على ذلك المسكين إلى أن يظهر أبوه ... فإن كنت تدعى الرجولة الصحيحة فتقدم لحمايتى ولرعاية طفلى ... وترى كيف أجزيك عطفًا بعطف وإخلاصًا بإخلاص ... وما كدت أسمع هذا القول حتى دارت الأرض تحت قدمى ... ومن أين أنفق على هذه السيدة وعلى طفلها ؟

---

(١) الموضوع منشور فى مقالتين على صفحات مجلة الرسالة العدد ٨٧ و ٨٨ ، وهذه مقتطفات من المقالة الأولى .

ثم نظرت فرأيت المرأة تعرض مشروعًا نبيلاً قد يرفع روحى بعد إسفاف[1] .

وذهبت إلى التسليم على طفلها موريس ... وفرحت مرجريت بما صارت إليه من راحة البال وصفاء النفس .

ومضت تقترح ما تشاء من المغامرات فعلمتنى الرقص وطوفت بى على المكنونات من صناديق الليل . وبفضل مرجريت عرفت من خبايا باريس ما لا يعرف الشياطين ، ولم تكتف بهذا بل نقلتنى إلى روان والهافر وأطلعتنى على المستور من شواطئ المانش ، والله وحده يعلم كيف عاشرت تلك الحسناء ... ولكنى كنت فى صحبة تلك السيدة رجلاً نبيلاً ... وأجمل ما نلت لم يزد عن قبلة ثمينة طبعتها على جبينى حين أخبرتها أنى متأهل ولى أبناء ، وقد قهرتنى الظروف على قبول هدية من العطر لأرسلها إلى ابنتى وزوجتى ، وقد قبلت الهدية ثم ألقيتها خفية فى نهر السين .

---

(١) عرضت السيدة على زكى مبارك السكن معها مقابل إنفاقه عليها وعلى طفلها .

مصرى يظفر بدبلوم الدراسات العليا فى الآداب

كنت أريد أن أكون أول مصرى يظفر بدرجة الدراسات العليا فى الآداب من مدرسة اللغات الشرقية فى باريس، وموضوع الامتحان هو ترجمة "الرسالة العذراء"... فقد حاولت أتكلم باللغة العربية فى امتحان الدكتوراه بالسربون ونجحت المحاولة لأنى اخترت بحثًا إضافيًا هو الكلام عن "طوق الحمامة لابن حزم" لأصحح أغلاط المسيو مرسيه فى بحث كتبه فى الجورنال زياتيك ، وقد استظرف المسيو ماسينيون هذه المحاولة وقال : الدكتور زكى مبارك رجل سياسى استطاع أن يتكلم باللغة العربية فى السربون . (لا يجوز فى جامعة باريس أن يتكلم أحد بغير اللغة الفرنسية ولا كذلك الحال فى الجامعة المصرية) . [1]

ولكن لن أنسى أبداً ما صنع معى المسيو كولان إذ تثور خصومة بينى وبينه على غير ما أريد .

دعوته إلى إلقاء محاضرة فى نادينا وكان للعرب ناد فى باريس وكان موضوع المحاضرة عن "ابن قزمان" لم تعجبنى المحاضرة فقال : موعدنا غداً .

إنه غد مزعج ... هو اليوم الخامس والعشرين من أبريل سنة ١٩٣١ .

رئيس اللجنة هو المسيو مرسيه والعضو الثانى هو جود فردا ديمومبين ، أما العضو الثالث فهو المسيو جورج كولان ، لم أكن أخاف من المسيو ديمومبين فقد كانت بينى وبينه مودة غالية لأنى عاونته على تفسير بعض النصوص العربية .

المسيو مرسيه هو رئيس اللجنة بحكم أنه مدير المدرسة والرسالة مقدمة بالفرنسية عن فن الإنشاء فى القرن الثالث .

---

(١) سطور من مقالتين لزكى مبارك من على صفحات البلاغ بتاريخ ١٩٤٧/٣/٢٦ و ١٩٥٠/١/٣١ .

اليوم الأسود :

مدرسة اللغات الشرقية تضع إعلاناً قبل يوم الامتحان بأسبوعين فيحضر الطلبة جميعًا ليشهدوا امتحان الدكتور زكى مبارك .

المسيو مرسيه يدير المناقشة ولا يتكلم ، والمسيو ديمومبين يحب لى الخير ولكنه لا يستطيع أن ينقذنى من أنياب هذين الرجلين ... يبدأ الامتحان فى الساعة التاسعة صباحًا ويحضر المسيو كولان وقد أعد العدة للانتقام منى ... عندئذ تذكرت قول الشاعر العربى : قد جد الجد فجدوا .

قضيت ثلاث ساعات لأجادل الأستاذ الذى يحقد على التلميذ ، وجاء الظهر وكان يجب أن أفوز بعد جدال دام ثلاث ساعات ، ولكن المسيو مرسيه يقول "تغد جيداً وعد لم يبق حولى غير تلميذى محمد عبد الهادى شعيرة فقلت تعال يا بنى معى" .

رجعنا فى الساعة الثانية فوجدت اللجنة حاضرة ورأيت الدكتور محمد زكى حسنى ينتظر هناك ... مال الدكتور على أذنى وقال :

المدرسة لن تمنحك اللقب الذى تطمح إليه وأنا أقترح أن تنسحب قبل أن يسجلوا عليك الرسوب .

فقلت : هذا يوم لمصر فى باريس ، وأنا أثبت من الجبال الراسيات ويجب أن أرفع الراية لوطنى .

امتحان الترجمة :

اقترحت اللجنة أن أترجم صفحات من العربية إلى الفرنسية ؛ صفحات من كليلة ودمنة وحديث عيسى بن هشام للمويلحى . استمر الامتحان من الساعة الثانية إلى الخامسة ، فأنا بذلك قضيت ست ساعات فى الامتحان ، ومن المحنة جاء الامتحان .

كتاب : الرسالة العذراء

"حاولت أن أتكلم باللغة العربية فى السربون فاخترت بحثًا إضافيًا هو الكلام عن "طوق الحمامة" لابن حزم ، وقد استظرف المسيو ماسينيون هذه المحاولة وقال : الدكتور زكى مبارك كاتب سياسى استطاع أن يتكلم باللغة العربية فى السربون"

زكى مبارك

هذه الرسالة عذراء لأنها بكر ، معان لم تفترعها بلاغة الناطقين ، ولا لمستها أكف المفتونين ، ولا غاصت عليها فطن المتكلمين ، ولا سبق إلى ألفاظها أذهان الناطقين ؛ فاجعلها مثالاً بين عينيك ، ومصورة بين يديك ، ومسامرة لك فى ليلك ونهارك ، تهطل عليك شآبيب منافعها ، ويظلك منها بركاتها ، وتوردك مناهل بلاغتها ، وتدل على مَهْيَع رشدها ، وتصدرك وقد نقع ظمؤك بينابيع بحر إحسانها ، إن شاء الله عز وجل . (١)

تلك الرسالة العذراء أقدمها للقراء بعد أن شغلت نفسى بها عامًا كاملاً : (٢)

الرسالة العذراء طبعت أول مرة سنة ١٩٣١ فى مطبعة دار الكتب المصرية فصححتها وضبطها وقابلت أصولها على ما كتب من نوعها فى فن الإنشاء . وكان فى النية أن أكتب لها مقدمة بالعربية ولكنى اكتفيت بذلك البحث المفصل الذى كتبته

(١) وكانت الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٢ عن دار سعد الدين / دمشق ... وهذه السطور هى ختام الرسالة العذراء وقد نقلت من كتاب : الرسالة العذراء – طبعة دار سعد الدين صفحة ٤٨ .

(٢) وهذه السطور من كلمة المؤلف الدكتور زكى مبارك ومن الصفحات الأولى لكتاب : الرسالة العذراء .

بالفرنسية عن فن الإنشاء فى القرن الثالث وشرحت به آراء ابن المدبر ، وابن درستويه، والصولى ، وابن عبد ربه ، والجاحظ . [1]

وفى البحث الفرنسى بعض الخروج على الحدود التى رسمها الأستاذ وليم مرسيه، وإنى لأعتذر إليه : فقد رأيتنى مضطرا إلى مخالفته ، وإن كنت أضمر له فى نفسى أسمى آيات الإعزاز ، فقد يفنى كل شىء وتبقى ذكريات الساعات الطيبة التى قضيتها فى تحقيق أصول الرسالة العذراء .

وهذا البحث فى جملته تمهيد لكتابى الذى وضعته بالفرنسية عن "النثر الفنى فى القرن الرابع" وقدمته إلى جامعة باريس .

(٢٤) [2]

فإن منيت بحب الكتابة وصناعتها والبلاغة وتأليفها ، وجاش صدرك بشعر معقود ، أو دعتك نفسك إلى تأليف الكلام المنثور وتهيأ لك نظم هو عندك معتدل وكلام لديك متّسق ، فلا تدعونك الثقة بنفسك والعجب بتأليفك أن تهجم به على أهل الصناعة ؛ فإنك تنظر إلى تأليفك بعين الوالد لولده والعاشق إلى عشيقه كما قال حبيب :

ويسىء بالإحسان ظنًا لا كمن   هو بابنه وبشعره مفتون

ولكن اعرضه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجًا بغيره فإن أصغوا إليه وأذنوا له وشخصوا بالأبصار واستعادوه وطلبوه منك وامتزج ، فاكشف من تلك الرسالة والخطبة والشعر اسمه وانسبه إلى نفسك .

---

(١) ترجم الأستاذ الدكتور إبراهيم عوض ما كتبه الدكتور زكى مبارك بالفرنسية ، وذلك حتى يستطيع القارئ العربى الاستفادة الكاملة من كتاب: الرسالة العذراء، وسوف تضم الطبعة الثالثة للكتاب الترجمة العربية .

(٢) قسم المؤلف الكتاب إلى ٣١ فصلاً ، وهذا هو الفصل الرابع والعشرون ، وقد رأينا أن نذكره لأن معظمنا يحب الكتابة فليقف على مقدرته فى الكتابة .

وإن رأيت عنه الأسمـاع منصـرفـة والقلوب لاهيـة فـاسـتـدل به على تخلفك عن الصناعة وتقاصرك عنها ، واسترب رأيك عند رأى غيرك من أهل الأدب والبلاغة :

فقد بلغنى أن بعض الملوك دعا إنسانًا إلى مؤانسته حتى ارتفعت الحشمة بينهما فأخرج له كتابا قد غشاه بالجلود وجمع أطرافه بالإبْرِيَم وسوى ورقه وزخرف كتابته وجعل يقرأ عليه كلاماً قد حبره فيه ونمقه عند نفسه ، وجعل يستحسن ما لا يحسن ويقف على مالا يستثقل قراءته حتى أتى على الكتاب .

فقال له : كيف رأيت ما قرأت عليك ؟

قال : أرى عقل صانع هذا الكلام أكثر من كلامه .

ففطن له ولم يعاوده إلى أن وقف به على تنور مسجور ثم قذف بالكتاب فى النار .

وهذا رجل فى عقله فضلة وفيه تمييز .

وإنما البلية فيمـن إذا بينت له سوء نظمه واختياره ووقفته على سخافة لفظه هجرك وعاداك .

كتاب : النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى

عنينا فى هذا الكتاب بدرس النثر الفنى، أما الزمان فهو القرن الرابع وأما المكان فهو الأمصار الإسلامية لذلك العهد .

فهو عصارة لجهود عشرين عامًا قضاها المؤلف فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى ؛ وإن رأوه أصغر من أن يورث المؤلف شيئًا من الزهو فليتذكروا أنى ألفته فى أعوام سود لقيت فيها من عنت الأيام ما يقسم الظهر ويقصف العمر : فقد كنت أشطر العام شطرين ، أقضى شطره الأول فى القاهرة حيث أؤدى عملى وأجنى رزقى وأقضى شطره الثانى فى باريس كالطير الغريب ، أحادث العلماء وأستلهم المؤلفين إلى أن ينفد ما ادخرته أو يكاد . ثم صممت إلى أن أنقطع إلى الدرس فى جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت ، وكانت العاقبة أن أنعم علىَّ الله عز شأنه بالنصر المبين .

ولكنى أحب أن أكون فى طليعة المنصفين لمؤلف هذا الكتاب ، وهل من العدل أن أظلم نفسى وأنصف الناس ؟

إن هذا الكتاب أول كتاب من نوعه فى اللغة العربية ، أو هو على الأقل أول كتاب صنف عن النثر الفنى فى القرن الرابع ، فهو بذلك أول منارة أقيمت لهداية السارين فى غيابات ذلك العهد السحيق .

ولن يستطيع أى مؤلف آخر مهما اعتز بقوته وتعامى عن جهود من سبقوه أن ينسى أنى رفعت من طريقه ألوفًا من العقبات والأشواك .

وهل يمكن الشك فى أن مؤلف هذا الكتاب هو أول من أرجع الصور الفنية فى نثر كتاب الصنعة والزخرف إلى أصول عربية صميمة ، وكان الباحثون يظنونها أثرًا من اتصال العرب بالفرس واليونان ؟

وهل يمترى منصف فى أن ما كتبته عن أطوار السجع والنسيب فى النثر الفنى باب من البحث جديد ؟

وهل يتردد أريب فى الاعتراف بأن الفصول التى كتبتها عن نشأة المقامات وعن الأخبار والأقاصيص فصول مبتكرة كتبت لأول مرة فى اللغة العربية ؟

والفصول التى أنشأتها عن كُتَّاب النقد الأدبى ؟ لقد جلوت فى تلك الفصول طوائف من الحقائق الأدبية لم يهبها أحد ما تستحق من العناية قبل اليوم .

والمؤلفون المنسيون الذين بعثهم هذا الكتاب ؟

لقد مرت أجيال طوال نُسى فيها أبو المغيرة ابن حزم نسيانًا تامًا حتى كاد يطوى من صفحة التاريخ إلى أن كشف عنه مؤلف هذا الكتاب .

وكان أساتذة الأدب العربى فى الشرق والغرب يعتقدون أن "رسالة الغفران" للمعرى أول مسلاة فى اللغة العربية ويظنون أن ابن شهيد حاكاه حين ألف رسالة "التوابع والزوابع" فجاء مؤلف هذا الكتاب وأثبت أن رسالة ابن شهيد ألفت قبل رسالة المعرى بنحو عشرين عاماً ، وأن المعرى هو الذى حاكى ابن شهيد .

وكان كتاب أبى محمد بن حزم فى : "فن الحب"مجهولاً فى الشرق فلما جاء مؤلف هذا الكتاب وأظهره عدّة المصريون أعجوبة ، وتألفت لجنة من علماء الأزهر برئاسة الشيخ محمد عرفة وكيل كلية الشريعة لتبرئة ابن حزم مما نسب إليه.!

ثم انفضت اللجنة وانزوى أعضاؤها الفضلاء ! أليس ذلك دليلاً على أن هذا الكتاب فاجأ الشرقيين بنبأ عظيم ؟

وما كتبته عن ابن دريد ؟ هل كان ينتظر أحد أن يكون هذا الرجل هو واضع الأقصوصة فى اللغة العربية ، والملهم الأول لبطل المقامات بديع الزمان ؟

تلك ملامح من شمائل هذا الكتاب أقف عندها ولا أزيد .

ومعاذ الأدب أن أمنّ على لغة العرب التى أعزنى بها الله ، وإنما هى ثورة نفسية أنطقتنى بما أراه فى زمانى من غدر وعقوق .

والله المستعان على إفك هذا الزمان .

مرت المناقشات هادئة فى هذا الكتاب ولم يستعر ضريمها إلا حين اتصلت برجلين من كرام الرجال ؛ هما المسيو مرسيه والدكتور طه حسين .

أما المسيو مرسيه فعالم واسع الاطلاع ، وهو رأس المستشرقين الفرنسيين لهذا العهد وكانت له آراء مدونة عن نشأة النثر الفنى عند العرب .

وما كدت أصل إلى باريس حتى هممت بمهاجمته فنصحنى المسيو ماسينيون وأفهمنى أنه رجل صعب المراس ، وأن منزلته فى المعهد العلمى عظيمة وأن المستشرقين جميعًا يجلونه أعظم الإجلال . ولكن كتب الله أن لا أنتصح برأى المسيو ماسينيون فابتدأت رسالتى التى قدمتها للسوربون بفصلين فى نقض آرائه من الأساس فغضب الرجل وثار وصمم على حذف الفصلين بحجة أنهما لون من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسى فى البحث ، وصممت على إبقاء الفصلين بحجة أنهما العماد الذى تنهض عليه نظريتى فى نشأة النثر الفنى .

وكأنما عز على الرجل أن أهاجمه فى عقر داره فمضى يعادينا عداء خفيا كانت له آثار بشعة لا أتذكرها إلا انتفضت رعبًا من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الإنصاف[1] .

وقد قابلت خصومته بلدد أقسى وأعنف ورأيت الحرص على آرائى أفضل من الحرص على رضاه فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه وأضفت إلى البحث الذى قدمته

---

(١) مقتطفات من فاتحة الكتاب ، طبعة أولى سنة ١٩٣٤ عن دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ، وهى الطبعة التى أعاد زكى مبارك كتابتها باللغة العربية .

إلى مدرسة اللغات الشرقية فصلاً كان أشار بحذفه لأني هاجمته فيه ، وانتهينا إلى عاقبة أفصح عنها المسيو ماسينيون كل الإفصاح إذ قال حين لقيته أخيراً في باريس : إن المسيو مرسيه لا يحبك ولكنه لا يستطيع أن ينساك .

النثر الجاهلي :

وهناك رأى مثقل بأوزار الخطأ والضلال هو رأى المسيو مرسيه ومن شايعه كالدكتور طه حسين . (١)

وذلك الرأى يقضي بأن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية ؛ والحياة الأولية لا توجب النثر الفني لأنه لغة العقل وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال. وهذا الرأى أعلنه المسيو مرسيه في المحاضرة التى افتتح بها دروسه في مدرسة اللغات الشرقية في باريس منذ أعوام ، ثم أذاعه مطبوعًا في كراس خاص ، وقد اختطف الدكتور طه حسين هذا الرأى وأذاعه في دروسه بالجامعة المصرية ثم أثبته في كتاب "المجمل" الذى اشترك في وضعه للمدارس الثانوية . وكان ينتظر أن يتنبه المسيو مرسيه ومشايعه الدكتور طه حسين إلى أن العصر الذى وصموه بالأولية عند العرب هو القرن الخامس للميلاد وفي ذلك العصر كان النثر الفني موجوداً عند أكثر الأمم التى جاورت العرب أو عرفوها كالفرس والهنود والمصريين واليونان ، وليس بمعقول أن يكون لتلك الأمم نثر فني قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون ولا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون ! كأن العرب انفردوا في التاريخ القديم بالتخلف في ميادين العقل والمنطق والخيال .

---

(١) وهذه السطور من حديث زكي مبارك عن النثر الجاهلي . صفحة ٣٧ من الكتاب والكتاب الذى بين أيدينا طبع دار الجيل / بيروت

الدكتوراه : [1]

بعد امتحان الدكتوراه أقمت في باريس أياماً لأحضر حفلتين في تكريم صاحب النثر الفني ، الحفلة الأولى أقامها أساتذتي في السربون والحفلة الثانية أقامتها الجمعية المصرية في باريس .

ثم أخرج من باريس في يوم عيد والمطر ينهمر فأتخيل أنه يأخذ مداده من دموعي.

على المحطة ودعني أصدقائي باسمين ، وكان صديقي الدكتور محمد علي حافظ يقول : من وقت إلى وقت سأمر على المنزل الذي كنت تقيم فيه يا دكتور لأتمرن على الصبر الجميل .

---

(١) ١٩٤٩/٧/١٩

نال الدكتور زكي مبارك الدكتوراه الثانية من باريس من السربون عن أطروحته : النثر الفني في القرن الرابع الهجري بدرجة مشرف جدا ، وهي دكتوراه دولة .

ونال الدارس عبد المقصود عبد الغني عبد المقصود الماجستير عن رسالته : "زكي مبارك حياته وأدبه" سنة ١٩٧٢ ، وقد قدمت الرسالة لكلية دار العلوم قسم الدراسات الأدبية ، وكانت بإشراف الدكتور عبد الحكيم بلبع .

حول كتاب النثر الفنى

" قال المسيو دى كومنين : لن يذكر التاريخ أنك الدكتور زكى مبارك أو الدكاترة زكى مبارك ، ولكن سيذكر أنك مررت بالحياة فتركت فيها أثرًا هو كتاب النثر الفنى باللغة الفرنسية" .

زكى مبارك

كتاب النثر الفنى ظهر باللغة العربية سنة ١٩٣٤ استقبلته جميع الجرائد العربية بالترحيب ، ولم يقف فى وجه الكتاب غير كاتبين طه حسين وأحمد أمين (١) .

ولكن الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى وقف وقفة خطيرة يصد بها هذين الكاتبين وقد خافا منه خوفًا شديدًا ، فقد تحداهما أن يأتيا بكتاب مثله إن كانا صادقين ، وهذا أمر مستحيل فلن يستطيع أحد أن يؤلف كتابًا فى قوة كتاب النثر الفنى ، وهو فى نصه الفرنسى مما تزدان به مكتبات الجامعات الأوربية والأمريكية والآسيوية . (٢)

---

(١) ١٩٤٧/١١/٣ المسيو دى كومنين رئيس الجالية الفرنسية فى مصر ومدير مدرسة الليسية الفرنسية بمصر الجديدة .

(٢) قال الصحفى الكاتب محمد محمود رضوان على صفحات كتابه "صفحات مجهولة من حياة زكى مبارك" والذى صدر فى كتاب الهلال سنة ١٩٧٤ : قال المازنى : إنى لأحدث نفسى أحيانًا بأنى لو كنت أقول الشعر فى هذه الأيام لرثيت طه حسين ؛ فإنه يخيل إلىَّ أنه قد مات ، طه حسين الذى عرفته وأحببته وأكبرته جاء غيره الذى أنكره .

ولمعالى الدكتور هيكل باشا رأى كريم فى هذا الكتاب سجله فى مجلة الهلال : "كتاب النثر الفنى كتاب عظيم" . وقد وصفه الأستاذ خلدون فى جريدة الأحرار فقال : "إنه كتاب لم تعرف مثله اللغة العربية منذ عهد بعيد" .

وقيلت فى الثناء عليه خطب رنانة وقصائد جياد .

إلى الأستاذ سلامة موسى :

اسمح لى أن أقول إنك شرحت صدرى بما كتبته عنى ، ويسرنى أن أسمع من مثلك كلاماً مثل الذى قلته عن كتاب النثر الفنى . (١)

وهذه الشهادة لا أستكثرها عليك فقد تفضلت بتقديم مؤلفاتى إلى قرّائك مرات كثيرة قبل أن ترانى ، وفى هذا دليل على أنك تهتم بالفكرة قبل أن تهتم بالألفاظ وذلك خلق عظيم .

لقد وقفت عند قولك عن مؤلف النثر الفنى : (٢)

قال الدكتور زكى مبارك على صفحات جريدة البلاغ فى ١٩٤٨/٧/٥: "حين عدت إلى وطنى ونشرت الكتاب باللغة العربية عرف الناس أنى لم أكن ألعب فى باريس، فنشر الأستاذ أنطون الجميل صورتى بالروب الذى يلبسه المتخرجون من جامعة باريس، ورأى الأستاذ كليم أبو يوسف أن تقام لى فى القاهرة حفلة تاريخية" .

---

(١) مقتطفات من على صفحات كتاب "البدائع" الجزء الثانى صفحة ٢١٠ ، والمقال بتاريخ ١٩٣٥/٨/١٥ .

(٢) كان طه حسين قد أبعد الدكتور زكى مبارك عن الجامعة المصرية ، ونلتقى بهذا الموضوع على صفحات الكتاب .

« يجب بالحق أن نخجل من مجازاته على هذا الإحسان بمحاربته في عيشه وعمله ولست أشك في أن الجامعة المصرية تخسر بإخراجه منها أكثر مما يخسر هو ، فإن رجلا له مثل كفاءته يستطيع أن يجد العيش الرحب والفرصة المواتية لخدمة الأدب في مدرسة فرنسية أو أمريكية بالقاهرة، ولكن الإيلام للنفس يعكر صفوها ويشكك الإنسان في القيمة التي تعود عليه من الإخلاص والجد . » (١)

وأنا أقسم ما فكرت في المنافع المادية حين توليت التدريس بالجامعة المصرية وإنما كان همي أن أغرس الشوق إلى الدرس في نفوس تلاميذي ، وقد ألقيت في صدورهم جذوة لن تخمد ولن ينالها سكون ، ولئن قضت الأغراض بأن أبعد عن الجامعة فإن زملائي سيذكرون دائمًا أني تركت في أنفسهم آثاراً أطيب من المسك وقد حزنوا لفراقي حزنًا أليمًا .

---

(١) وفي ١٩٣٤/٤/٢٨ افتتح الشاعر خليل مطران الحفل الكبير الذي أقيم على مسرح الهمبرا لزكي مبارك ... وبعد أن ألقى خطبة أشاد فيها بزكي مبارك وكتابه ، ألقى شاعر القطرين خليل مطران قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات :

أما الذي ديجته مرسلاً	من الطراز الواضح الرونق
في نثرك الفني وهو الذي	لا يلحق القوم ولم يسبق
بكل معنى بارع باهر	وكل لفظ ناصع مشرق
تجلو خبايا العلم في حقبة	سبيلها شقت فلم تطرق
مستكشفًا مستنبطًا آخذًا	في الريب بالأثبت والأوثق

وألقى الشاعر إبراهيم ناجي قصيدة جاء فيها :

أزكي هذا مهرجانك فاغتبط	فرحًا وهذا يومك المشهود
جاءوا يؤدون النبوغ حقوقه	حدبًا عليه والزمان كنود

وفي ٢٠٠٤/٢/٥ وعلى صفحات جريدة الأهرام ·

قال الكاتب الكبير أنيس منصور :

"... كانت مفاجأتي وخجلي عظيمين عندما قرأت كتابه عن النثر الفني ، لقد كان اكتشافًا رائعًا في الأدب العربي القديم.

إن أعظم منصب فى الجامعة المصرية لا ينالنى من المجد مثل ما أنالنى كتاب النثر الفنى .. والذين يحاربوننى لم يطمعوا فى محاربتى إلا لظنى أنى رجل أعزل لا أنحاز إلى حزب من الأحزاب وليس لى فى الحكومة عم ولا خال .

ولكن خاب ظنهم فإن الحق أعز وأقوى ، وسيرون كيف أزلزل أرواحهم وكيف أملأ قلبهم بالرعب وكيف أريهم عواقب ما يصنعون ، إن النصر سيكون حليف من يصلون النهار بالليل فى تثقيف عقولهم ، أما الثرثرة الفارغة التى يعتصم بها أمثال طه حسين فلن يكون لها فى عالم الجد بقاء .

وبعد فأنا أمامى مصاعب كثيرة وأعرف أنى أقف وحدى فى ميدان القتال ، ولكنى لن أحزن ولن أضعف، وحسبى من النصر أن أكون غصة فى حلوق المبطلين والمرجفين.

طه حسين بين البغى والعقوق

يا دكتور طه : (١)

كيف نسيت فضلى عليك يوم نبذك الناس نبذ النواة، ولم يكن لك نصير سواى؟ أتذكر كيف كان أصحابك يفرون منك كما يفر السليم من الأجرب ؟ أتذكر كيف كنت وحدى صديقك الذى لا يغدر ولا يخون وكان إخوتك وأصدقاؤك بين خائف يترقب وحاسد يتربص ؟

يا دكتور طه :

ماذا تملك من السلطان حتى تهدد وتتوعد ؟ حدثنى ماذا تملك فقد ضقت ذرعًا بوعيدك ؟ هل تملك غير الدسائس التى تسطرها ضدى فى صحيفتك السوداء ؟

إن هذه الدسائس لم تفضح أحداً غيرك ، لأنها أظهرتك على حقيقتك وبينت للناس أنك بعيد كل البعد عن أخلاق الأشراف . كل ما تملك هو الانتساب إلى العلم والعلماء ولست من ذلك فى كثير ولا قليل ، ويجب أن تعلم أنى أزاحمك برأى أرجح من رأيك ، ومنكب أضخم من منكبك ، وساعد أقوى من ساعدك ، وستندم يوم لا ينفع الندم ، فاعرف قدرك ولا تطمع فى أن ألاينك فإنى أؤمن بالله وحده وهو نعم المولى ونعم النصير ، إنما أنت فلا تعرف أنصارك إلا فيمن يزحفون فوق الأرض ، تذكر ربك مرة

---

(١) مقال صدر على صفحات كتاب "البدائع" تحت عنوان "طه حسين بين البغى والعقوق" الطبعة الثانية الجزء الثانى صفحة ١٧١ : وهذه مقتطفات من المقال .

واحدة يا غافل فسينصرني الله عليك ولو خدمت ألف حزب وسيطرت على ألف جريدة ، والمنتصر بغير الله مخذول ولو أعانه الثقلان .

شخصية وشخصية :

يا دكتور طه :

أنت تعجب من رجوعي إلى الجامعة المصرية فلتعلم أن حجتك في هذا العجب ساقطة أشنع السقوط ، لأني لم أجئ إلى الجامعة من عرض الطريق ، فقد زكيتني أنت للتدريس في الجامعة من تسع سنين واشتغلت بالتدريس في الجامعة ثلاثة أعوام بجانبك ولم تؤاخذني بهفوة واحدة [1] .

---

(١) سنة ١٩٣٣ عاد زكي مبارك إلى منصبه مدرساً في الجامعة المصرية إبان الفترة التي كان فيها الدكتور طه حسين خارج الجامعة ، وكان زكي مبارك قد عارض بعض آراء طه حسين في كتابه النثر الفني في القرن الرابع الهجري .

فلما عاد الدكتور طه حسين إلى الجامعة سنة ١٩٣٤يومها دعا الدكتور منصور فهمي الدكتور زكي مبارك إلى مكتبه في شهر مايو وقال له :

أرسلت إدارة الجامعة تسأل عن تجديد العقد والنظام يقضي بأخذ رأي الدكتور طه حسين فاذهب يا بني وصف ما بينك وبينه ، وسأحفظ الخطاب حتى يتم بينكما الصفاء .

قال زكي مبارك · فأجبت منصور فهمي ما نصه : أنا على أتم استعداد لتصفية ما بيني وبين الدكتور طه حسين ولكن لا أفعل ذلك في هذه الأيام ، ولو أنك اقترحت ذلك منذ شهرين لقبلت ، أما الآن فلا تسمح نفسي بمصافحة الدكتور طه حسين ، وأناأعلم أن لذلك دافعاً من الغرض ، ومع ذلك ما الذي يزعجك يا سيدي العميد ؟

أتظن أن الدكتور طه حسين يقترف مثل هذا الانتقام المفضوح ؟

فابتسم الدكتور منصور فهمي ابتسامة مرة وقال : أنت يا بني تسرف في حسن الظن بالناس

حين طلب إلى الدكتور طه حسين تجديد عقد زكي مبارك قال كلمته المشهورة :

"أنا لم أستشر في تعيينه حتى أستشار في تجديد عقده

وهكذا اقترف طه حسين هذا الانتقام المفضوح .

وكتبت عنى تقريراً كان يومئذ يمثل نزاهتك فقلت إنى أؤدى عملى تأدية موفقة وإنك راض عنى وعن عملى كل الرضا ، وأنت تذكر يا دكتور طه حسين أن إرادة فوق إرادتك أخرجتنى من الجامعة .

وتذكر أنك مثلت دور الرجل الكريم فجزعت لخروجى من الجامعة أشد الجزع ، ورشحتنى للرجوع إليها بعد ذلك مرتين ، ومن حسن الحظ أن كل ذلك مسجل فى أوراق رسمية ستشهد عليك إن أنكرت ، فيا أيها الغادر بأخيه كيف تنسى كل ذلك ليصبح لك الشرعية بأن رجوعى إلى الجامعة لم يكن إلا مكرمة خالصة من معالى الأستاذ حلمى باشا عيسى مع أن حلمى باشا لم يصنع أكثر من تحقيق رغبة صالحة أعلنتها أنت مرتين ؟! (١)

ومع ذلك فبأى حق تكون أنت أولى منى بمناصب الجامعة المصرية ؟

إليك بعض الفروق الواضحة بين شخصية زكى مبارك وشخصية طه حسين :

لقد ذهبت أنت فأتممت دراستك فى باريس ، وذهبت أنا فأتممت دراستى فى باريس ، فهل تعرف الفرق بينى وبينك ؟

اسمع أيها الصديق القديم البالى :

ذهبت أنت على نفقة الجامعة ومضيت أنا متوكلاً على الله فأنفقت ما أدخرت من عرق الجبين .

واتصلت أنت بالمسيو كازانوفا فعرض عليك آراءه فرضًا ، ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون إلا نسخة من آراء ذلك الأستاذ ، واتصلت أنا بالمسيو مرسيه ففرضت عليه آرائى فرضًا واتصلت بينى وبينه الخصومة فآذانى أيذاءً شديداً ، ولكن قناتى ظلت صلبة واستطعت أن أقوض كبرياءه فى عقر بيته وفوق كرسى السربون .

---

(١) زكى مبارك يذكر خروجه من الجامعة سنة ١٩١٩ ، وقد ذُكر هذا الموضوع من قبل على صفحات هذا الكتاب .

ولم تمر هذه المعركة بلا غنيمة فقد وقف المسيو ماسينيون يوم أديت امتحان الدكتوراه وقال : إنني حين أقرأ أبحاث طه حسين أقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا وحين أقرأ أبحاث زكي مبارك أشعر بأني أواجه شخصية جديدة .

فإن كنت في ريب من ذلك فاسأل من حضروا امتحاني في السربون وكانوا مئات، وفيهم مدير البعثة المصرية في باريس ولك أن تسأل المسيو ديمومبين ليخبرك أن المسيو مرسيه صارحه بهذه العبارة :

"إني لا استطيع أن أمْنَح زكي مبارك ما يصبو إليه فإني أقرأ في وجه هذا الفتى آيات الطموح الجارف وأخشى أن يجيء غداً ومعه سفير مصر ليطالب بكرسي من كراسي السربون " .

وأنت يا دكتور طه تعلم من هو زكي مبارك ، وتعلم أنه لا يخاف إلا الله المتفرد بالعظمة والجبروت ، وقد عرفت مني ما سرك وساءك والدنيا أفراح وأحزان .

ثم ماذا ؟ اسمع أيها الصديق :

لقد اشتغلت أنت بالصحافة واشتغلت أنا بالصحافة وإليك الفرق بين الشخصين :

كنت أنا رئيساً لتحرير جريدة الأفكار وكانت تدافع عن مبادئ الحزب الوطني وكان يشرف عليها عبد اللطيف بك الصوفاني فكنا نختلف ونختصم كل صباح لأني كنت آبى أن أكتب غير ما أراه من آراء في التقلبات السياسية وكان يتفق أن أخرج من الجريدة قبل أن أتم مقالي فيخرج الصوفاني بك يبحث عني ويترضاني .

وأنت اليوم رئيس تحرير جريدة وفدية فهل تدرى ماذا تصنع ؟

تدخل إلى مكتبك فلا تكتب سطراً قبل أن تتصل تليفونيًا بهذا أو ذاك لتتلقى الوحي ثم تكتب ما يلقى عليك وكأنك الببغاء !

وأنت مع هذا تزعم أنك رجل ذو شخصية وأن من واجب الناس أن يستمعوا قولك .

ثم ماذا ؟ أسمع أيها الصديق :

اشتغلت أنت بالتأليف واشتغلت أنا بالتأليف وإليك الفرق بين الشخصيتين :

مضيت أنت فانتهبت آراء المستشرقين وتوغلت فسرقت حجج المبشرين ، وكان نصيبك ذلك التقرير الذى دمغتك به النيابة العمومية... وأنت تعلم أن ليس لك رأى واحد وصلت إليه بعد جهد وبحث وقد تحديتك فى كتاب النثر الفنى [(١)] .

فسكت وتخاذلت لأنك تعلم أن بيتك أوهى من بيت العنكبوت .

واشتغلت أنا بالتأليف فكانت آرائى كلها مبتكرة ولم يستطع أحد أن يتهمنى بالسرقة من فلان كما اتهموك بالسرقة من جميع الناس .

ومؤلفاتك تموت يوم تولد ولك أن تسأل لجنة التأليف لتخبرك أن كتاب الأدب الجاهلى لم يبع منه شىء بعد النسخ التى فرضتها على كلية الآداب .

أما مؤلفاتى فهى فى جميع الأيدى ويعاد طبعها وتطلب فى جميع الأوقات .

ثم ماذا ؟

كنت أنا فى الجامعة وخرجت ، وكنت أنت فى الجامعة وخرجت فهل تدرى ما كان منى وما كان منك ؟

خرجت أنا من الجامعة فلم أعتمد على غير الله ، وأنت تذكر يا دكتور طه أن الأستاذ سليم حسن سألنى بحضرتك عما عملت ، فأجبت أنت وكنت يومئذ رجلاً شريفًا : لقد عمل زكى مبارك ما يعمل الرجل رآنى أتجنى ورآى لطفى يتدلل فتركنا ومضى يجاهد جهاد الرجال . [(٢)]

---

(١) مرّ بنا ما قيل حول كتاب النثر الفنى من تقريظ ، وحين حاول طه حسين التقليل من شأن الكتاب لم يستطع إلا أن يقول · كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكتاب ؟!!

(٢) كان طه حسين سواء فى وجوده بالكلية أو بعده عنها قد اعتاد تسيير أمورها عن طريقه أو عن طريق آخرين، بخيوط منظورة أو غير منظورة · فقد أهدر سلوكه هذا حقوق زكى مبارك فى العمل أستاذًا بها ، وبعد ذلك عمل أستاذًا بجامعة الإسكندرية واضطره لقبول العمل بوظائف مختلفة وأقل مكانة مما كان يستحق... من كتاب "زكى مبارك" صفحة ٥١ ، وقد صدر الكتاب سنة ٢٠٠٢ تحت إشراف رؤوف سلامة موسى .

وخرجت أنا من الجامعة فاشتغلت بالتدريس والصحافة الأدبية ، وجمعت من المال الحلال ما أتممت به دراستي في باريس وطبعت عدداً عظيماً من مؤلفاتي وكتبت في الأدب والاجتماع صفحات تعد بالألوف والحمد الله رب العاملين .

وخرجت أنت من الجامعة فانزويت في بيتك وأخذت تبحث عن سيد ، وطالت حيرتك في تخير سيدك الجديد فكنت تراه تارة من هؤلاء وتارة من هؤلاء ، ورأيت أخيراً أن مائدة الوفد أشهى من غيرها وأمتع ، فذهبت وقدمت إليها نفسك ، وهددت الدكتور هيكل بكشف أسرار الدستوريين .

أفرأيت الفرق بين شخصية زكي مبارك وشخصية طه حسين ؟

ثم ماذا ؟

كانت لي آراء جريئة وكانت لك آراء جريئة . أما أنا فكنت لا أذيع الرأى إلا حين أعتقد صحته ، وما كان يهمني مطلقاً أن أعادى الجمهور بلا موجب ، أما أنت فكنت لوحة إعلانات لا تذيع الرأى إلا لتغيظ الجمهور وتصبح حديث الناس في الأندية والمجتمعات .

لقد أخرجت كتاب الشعر الجاهلي سنة ١٩٢٦ وكتبت في مقدمته فقرات تتحدى فيها الرأى العام وتعلنه بالحرب الشعواء ، ثم اتفق أن ذهبت لحضور المؤتمر التاريخي في الشام ، ورجوتني أن أحفظ لك ما يكتب ضدك ، فلما عدت سألتني فأخبرتك أن الكتاب قوبل بالإعراض ، فأظلم وجهك لحظة واصفر لحظات لأن أملك خاب في تهييج الجمهور ثم سعيت سعيك في لفت الأنظار إلى كتابك ، أفتذكر كيف كانت العاقبة أيها الرجل الشجاع ؟

كانت العاقبة أن دعاك مدير الجامعة وأمرك بالاستغفار وأذعنت ، ونشر قلم المطبوعات على الصحف المصرية هذه التوبة النصوح :

"أشهد أني أؤمن بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر

طه حسين

وكان حادثًا مضحكًا أخزيت به العلم وآذيت كرامة العلماء ، أنت تؤمن بالله وكتبه يا دكتور وأنت تكذب التوراة والقرآن اعتماداً على رأى خاطئ سرقته من أحد المبشرين ؟

يحزننى والله أن أذكرك بهذا يا دكتور طه فأنا أعرف كيف تؤلمك هذه الذكرى ولكن ماذا أصنع وقد نقضت العهد وهدمت ما بنيناه من صروح مودة عشر سنين .

أبعد هذا تحدث نفسك بمناوشتى وملاحاتى ، وأنا أملك من أسرار حاضرك وماضيك ما يصعب عليك الفرار منه ولو اعتصمت بشواهق الجبال ؟

ثم ماذا ؟

عدت أنا إلى الجامعة فى عهد الوزارة السابقة فهل يستطيع أحد أن يثبت أنى توددت ولو مرة واحدة إلى وزير المعارف السابق ؟

وأقسم ما عرفت يوما منزل حلمى باشا لا فى القاهرة ولا فى الريف مع أن أهله من جيران سنتريس ، ولا رأيت إلى اليوم وجه عبد الفتاح يحيى باشا ولا كتبت سطراً واحداً فى جريدة الشعب أو جريدة الاتحاد .

فهل تعرف أنت شيئًا من هذه الكرامة يا دكتور طه ، وأنت لم تترك حزبًا إلا خدمته ولا جريدة حكومية إلا توددت إليها بعدد عديد من الرسائل الطوال ؟

لقد آن أن تعرف أن هناك فرقًا عظيمًا بين شخصية زكى مبارك وشخصية طه حسين ، وآن لك أن تنزجر وتخشى عواقب التعرض لعداوات الرجال . أكتب هذا وأنا أعلم أنك ستنكمش لأن مثلك لا يطغى إلا حين يأمن فإذا خوفناه خاف .

كتاب : الشعر الجاهلى ١٩٤٦/١٠/٨

نرجع إلى سنة ١٩٢٦ حين ظهر كتاب «الشعر الجاهلى» للدكتور طه حسين وهو كتاب ثار عليه الجمهور ثورة عنيفة لألفاظ وردت فيه، ألفاظ رأى فيها الجمهور تعريضاً بأصول الشريعة الإسلامية ، فرأت الحكومة أن تصادره وأن تمنع تداوله بين الناس . كان الكتاب مهدى إلى عبد الخالق ثروت باشا وكان لثروت فى ذلك الوقت مكانة فى الحياة السياسية والاجتماعية ، وكان الظن أنه يقدر على إسكات الجرائد ، ولكنه لم يستطع فاكتفى بأن يشير على الدكتور طه بالتزام السكوت عمن يناوشونه فى الجرائد والمجلات لئلا تزيد المعركة ناراً على نار، فسكت الدكتور طه على مضض وقلبه مملوء بالأحزان والكروب.[1]

كنت فى ذلك الوقت مدرساً مساعداً للدكتور طه حسين بعد موت المسيو كازانوفا، وقد رجانى الدكتور طه أن أتسلم جميع الخطابات التى تصل إليه وكنت تلميذه الأمين ، ولكن الخطابات كان فيها ما يزعج، وفيها خطاب تهديد بالقتل فأخفيته عن الدكتور طه، وأبلغت محافظ القاهرة أن من الواجب أن يحيط منزل الدكتور طه بالبوليس السرى لأنه معرض للاغتيال وأبلغت مأمور مصر الجديدة ما أبلغت محافظ القاهرة .

---

(١) كان دفاع الدكتور زكى مبارك عن الدكتور طه حسين وكتابه : "الشعر الجاهلى" يرتكز أساساً على سلامة المنهج .

أما زكى مبارك فقد قال .

لقد دفعت عنه دفاعاً ما كان ينتظره ، ولعله دهش منه ، وكنت فى محضره ومغيبه من المدافعين عنه لأن المروءة كانت تطالبنى بذلك .

ثم نظرت فرأيت الشر يصل إلى الدكتور طه من رجلين لهما تأثير على الجمهور من الوجهة الدينية، وهما الشيخ محمد عبد المطلب والأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، فصوبت قلمى إلى صدر الشيخ محمد عبد المطلب فى المقطم والأهرام فانزعج وانسحب من الميدان . ولم أرد مصاولة الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى جريدة (كوكب الشرق) لأنه كان يملك من القدرة على الهجاء ما لم أكن أملك ، فجعلت ميدانى جريدة المقطم ، وفيها الأستاذ خليل بك ثابت وهو رجل يهذب ما يصل إليه من المقالات ، وكنت أعرف ما هو عليه من الأخلاق فأكتب مقالاتى بصورة لا يجوز أن يحذف منها حرف ، وكان الأستاذ الرافعى يشتم ويلطم فيهذب خليل بك مقالته فلا يبقى منها غير الهجاء ، وبهذا انتصرت على كاتب لم تعرف اللغة العربية فى العصر الحديث أقدر منه على مصاولة الرجال .

كتاب : "ذكريات باريس"

تمهيد [1]

عرفت باريس وأهل باريس معرفة قلما تقدر لإنسان سواى ، ولم يكن ذلك فقط لأنى اتصلت بها نحو خمسة أعوام ، وإنما كان ذلك لأنى وصلت إليها بعد يأس وبعد شوق .

وكانت كل زورة تبدو لعينى وكأنها الأولى والأخيرة ، فكنت أنهب محاسنها فى شره ونهم كما يفعل المحب الصبى المولع وهو يودع حسناء ستمضى إلى حيث لا يعرف من أقطار الشمال أو الجنوب .

أضيف إلى هذا أنى يوم دخلت باريس كنت أعرف من دقائق اللغة الفرنسية مالا يعرفه إلا الأقلون، وكنت قبل ذلك ألفت تلك اللغة ألفة شديدة حتى كان لا يتكلم بها جماعة فى جد أو هزل إلا تعقبت ما يقولون تعقب الدارس الفاحص الذى يدرك ما ظهر وما بطن من أسرار الحديث ؛ وهذا كل ما عندى من عيوب الفضول .

يقول المسيو دى كومنين : [2] إن الكريم لا يذكر البلاد التى رحل عنها إلا مصورة بصورة من عرف فيها من كرام الناس .

---

(١) مقتطفات من التمهيد الذى كتبه زكى مبارك فى بداية كلامه ، والطبعة الأولى للكتاب صدرت سنة ١٩٣١ عن المكتبة التجارية الكبرى ...

وصدرت طبعة ثانية فى كتاب الهلال فى أغسطس سنة ٢٠٠٢ ، ولكنها لم تضم كل ما جاء فى الطبعة الأولى وذلك حتى يمكن صدورها فى كتاب الهلال .

(٢) المسيو دى كومنين : رئيس البعثة الفرنسية العلمانية فى مصر ، وكان مدير مدرسة الليسية الفرنسية بمصر الجديدة .

وكذلك تبدو باريس على البعد ممثلة فى شمائل إنسانين اثنين هما المسيو بلانشو وابنة خاله كريمة الجنرال بونال ؛ والمسيو بلانشو سكرتير اتحاد الطيران فى باريس آية من آيات النبل والخلق العظيم ، وابنة خاله الآنسة سوزان مثال أعلى لسلامة الذوق وكرم النفس وحياة الوجدان .

بعد هذين الإنسانين تتمثل باريس فى صور الأساتذة الكبار الذين انتفعت بعلمهم هنـاك أمثـال دوميك ومرسيه وديمومبين وكولان وماسنيون وتونلا وديبويه وميشو وشامار ومورنيه .

فى الباخرة [1]

مرت الساعات بين القاهرة والإسكندرية وأنا مقسم الفكر منتشر الروية ، أنظر تارة فى الصحف وأخرى إلى ما نمر به من حقول ، حتى أسلمنا القطار إلى الباخرة فى غير عناء ونقلت أمتعتى إلى مكانى فى السفينة ، ثم جاءت ساعة الغداء فشغلنا عن توديع الإسكندرية ، إن كانت تحتاج منا إلى توديع ، وهيهات ! فقد تمادت بنا مظالم الحياة وكدنا لا نعرف ما الوطن وما فراقه : إذ كنا فى بلادنا غرباء ، والمظلوم فى وطنه غريب .

مصر فى باريس [2]

أصبحت مدينة الطلبة عنواناً على مجد الأمم : فلكل أمة دار يأوى إليها أبناؤها المغتربون : فلأمريكا وبلجيكا واليابان دور فى مدينة الطلبة ، حتى الأرمن لهم دار !

---

(١) صفحة ٢٢ من كتاب الهلال .

(٢) صفحة ٣٥ من الكتاب نفسه .

أما مصر فمسكوت عنها فى تلك البقعة الجميلة ، وقد اقترح بعضهم مرة فى مجلس النواب على وزير المعارف أن يفكر فى إنشاء دار مصرية بمدينة الطلبة فى باريس ، ولكن قيل يومئذ إنه من الخير للطلبة المصريين أن يعيشوا فى الأوساط الفرنسية .

وهم قد انبثوا بالفعل ولكن أين ؟ فى الحانات والقهوات ؟

كان ياما كان [1]

تحدث بعض الناس فى هذه الأيام عن وصول العرب إلى أمريكا قبل كريستوف كولومبس ، وهى مسألة تحتاج إلى تحقيق طويل ، والذى لا شك فيه أن العرب فرضوا سيادتهم على عدد عظيم من الأمم القديمة ، وملكوا ناصية السياسة والمدنية بلا مزاحم نحو ثلاثة قرون ، وهى مدة ليست قليلة فى سيادة الشعوب .

كل هذا جميل ، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن هناك أعجوبة أخطر من أعجوبة العبور إلى أمريكا قبل أن يعرفها الأسبان ، أو يدرى القارئ ما هى تلك الأعجوبة ؟

تلك هى احتلال فرنسا وإنجلترا وإيطاليا لأكثر أقطار الشرق الأدنى فى أقل من أربعين عاماً .

لقد آن أن نفكر فى الحاضر ، وأن نعرف أن احتلال العرب لجزء من أوربا وتفكيرهم فى فتح أمريكا لا يغنيان شيئًا فى هذه الفضيحة الشنيعة فضيحة الصبر على الاستعباد .

وبيد الأمم الشرقية محو هذا العار ، لو فكرت جدياً فى الخلاص وزهدت فى المجد المكذوب الذى يمثله هذا البيت :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

---

(١) صفحة ٥٩ من الكتاب نفسه .

كتاب المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك [1]

لم يبق إنسان يقرأ ويفهم إلا عرف أن فى الدنيا رجلا اسمه طه حسين ، وصار طه حسين لا يدخل محفلاً ولا يتكلم فى مجتمع ولا ينشر مقالاً فى جريدة إلا قال الناس: هذا هو الرجل الذى رأينا اسمه فى مؤلفات زكى مبارك . [2]

والدكتور طه حسين فيه شيء من الذكاء ؛ وقد هداه ذكاؤه إلى هذه الحقيقة فاندفع يعادينى بلا ترفق ليتم له من نباهة الذكر ما يريد .

وقد اتفق لى من قبل أن أحارب مجلة الحديث الحلبية حين زعمت وزعم بعض قرائها أن الدكتور طه حسين أكبر أديب ؛ فقلت إن الدكتور طه حسين أشهر أديب وليس أكبر أديب .

طه حسين جاهل أشنع الجهل ، وإليكم اليوم مقالاً واحداً من جهله الميمون : [3]

ألقى حضرته محاضرة فى الجامعة الأمريكية عن شعر "البحترى" ونشرها فى جريدة "كوكب الشرق" فهل تصدقون أنه وقع فى خمس غلطات جوهرية فى محاضرة واحدة ؟

إليكم الغلطة الأولى وهى مسجلة فى جريدة كوكب الشرق :

عرض حضرته لقصيدة البحترى ذات المطلع :

مخلف فى الذى وعد   سيل وصلاً فلم يجد

---

(١) هذا الكتاب طبع سنة ١٩٩٥ فى الزهراء للطباعة والنشر بعين شمس .

(٢) من على صفحات مجلة الهلال فى يونيه ١٩٣٧ .

(٣) مقتطفات من مقالة الدكتور زكى مبارك على صفحات مجلة الصباح بتاريخ ١٩٣٥/٩/١٣

فلما وصل إلى هذا البيت :

قــد رحلنا عن العــرا ق وعن قطبــهــا النكد

أخذ يتفلسف بما أتاه الله من عقل وذكاء ، أتعرفون كيف فسر "القطب" فى هذا البيت ؟

لقد زعم أن "القطب" هو إشارة إلى الحياة السياسية فى العراق لعهد المتوكل ، وكأن الأتراك أو القواد من الأتراك قد ملكوا كل شىء ويكون المعنى أن الخليفة المتوكل يهرب إلى الشام فراراً من عنف الأتراك فى العراق .

ذلك هو التـفـسـيـر الذى جـاد به عـقل طه حـسين رئيس قـسم اللغـة العـربيـة فى الجامعة المصرية !

فهل فى الدنيا كلها رجل واحد يوافق على هذا التفسير ؟ اسمعوا ، اسمعوا :

إن جـمـيع نسخ "البـحـترى" مـتـفـقـة على كـلمـة "قطبـهـا" فى هذا البيت ، وطه حسين شخص يحترم النصوص ولكن العلم شىء آخر غير احترام النصوص .

إن كلمة "قطبها" محرفة ، ومن واجب العلماء أن يصححوا المحرف .

أيها القراء اسمعوا وعوا :

إن أهل العراق يقاسون فى بلادهم مكاره الحر الشديد وهم يقيمون سراديب فى جوف الأرض لينجوا بأنفسهم من وقدة الصيف ، والذين زاروا العراق يعرفون ذلك ، والذين لم يزوروا العراق يستطيعون أن يستشيروا كتب الجغرافيا ليعرفوا أن العراقيين يتأذون من شدة القيظ .

وإذن يجب أن نقرأ البيت هكذا :

قــد رحلنا عن العــراق وعن قــيـظـهــا النكد

وتكون كلمة "قطبها" محرفة والصواب "قيظها" .

قد تسألون : وأين الدليل على أن هذا هو الصواب ؟

وأجيب بأن الأبيات التالية تشرح ذلك ، فإن "البحترى" يقول بعد هذا البيت :

حبـذا العيش فى دمشق إذا ليلى برد

سفر جددت لنا اللهو أيامه الجدد

ومن هنا تعرفون أن المتوكل سافر إلى الشام فراراً من قيظ العراق ، ولم يسافر هرباً من دسائس الأتراك كما توهم طه حسين .

أضيفوا إلى ذلك أن البحترى كان يتألم دائمًا من حر العراق ، وكان يحن إلى نسيم دمشق ، وفي ذلك يقول فى قصيدة ثانية :

إن دمشقًا أصبحت جنة   وماؤها السلسال عذب المذاق

وكيف لا نؤثرها بالهوى   وصيفها مثل شتاء العراق

تأملوا هذا البيت الأخير لتعرفوا أن البحترى يفصِّل هنا ما أجمل هناك ، وإنه فى القصيدتين يرمى إلى غرض واحد هو مدح الشام ولوم العراق .

ولكم بعد هذا أن تستفتوا من تشاءون من رجال الأدب فى مصر والشام والعراق والحجاز واليمن والمغرب .

إلى الدكتور طه حسين بك

أيها الأستاذ الجليل :[1]

تلطفت فأوصيتني بكتمان الحديث الذى دار بينى وبينك فى حضرة (الصديق العظيم) الذى يحتل وداده من قلبى وقلبك أعز مكان ، وأنا أستطيع النص على اسم ذلك (الصديق العظيم) بلا تهيب لعواقب العتاب ، لأن للحديث الذى جرى بينى وبينك فى حضرته صلة وثيقة بأصول المذاهب الأدبية التى يشتجر حولها الخلاف فى كثير من الأحايين . فإن قلتَ إن هذا (الصديق العظيم) خلع على ذلك الحديث حلة من الدعابة التى تشهد بما يملك من عذوبة الروح ، وإنه قد يكره أن يشار إلى اسمه فى مجال الدعابة والظرف ، فإنى أجيبُ بأن ذلك (الصديق العظيم) أرحب صدراً مما تظن ، وهو أكبر من أن يرى أن جلال المنصب يمنع من التندر الجميل .

لا خوف من النص على اسم ذلك الصديق ، ولكنى سأعمل بوصيتك ليصح لى القول بأنى لا أتمرد عليك فى كل وقت ، وليصح لك الظن بأنى أقدر على مراعاة الظروف حين أشاء .

ثم ماذا ؟

ثم أستبيح لنفسى التحدث عن بعض ما شجر بينى وبينك ، ويظهر أن المقادير لا تريد أن أسكت عنك أو تسكت عنى ، وفى ذلك الخير كلُّ الخير لو تعرف وأعرف ،

---

(١) من على صفحات كتاب : المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك صفحة ١٩٩ ، والكتاب من إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك .

وهــل ارتفع العقـل إلا بفضل الخلاف ؟ وهل يتصور الناس وجوداً للحيوية التشريعية لو لم يُثر الخـلاف بين الشافعية والحنفية ؟ وهــل تأصلت مشـكلات النحو والصـرف إلا بفضل الجدال بين البصـريين والكوفيين ؟ وهل تفوق العقل المصـرى فى العصـر الحديث إلا بسبب النزاع حول القديم والجديد ، والصراع حول المذاهب الاجتماعية والأحزاب السياسية ؟

إن الخلاف نعمة عظيمة جداً ، ويا ويلنا إذا لم نختلف .

فكيف تريد أن أكون صديقًا ظريفًا لا تسمع منه غير الكلام المعسول ؟

وهل قل الظرفاء من أصدقائك حتى تطالبنى بما تعجز عنه سجيتى ؟

إن (بداوة الطبع) التى كثُر الكلام فى ذمها وتجريحها لم تكن من المثالب إلا فى كلام الشعوبية ، وهم قوم أرادوا الغض من الشمائل العربية . ولولا ذلك الهجوم الأثيم لبقيت من المحامد ، فكيف تنكر على رجل مثلى أن يظل بدوى الطبع فى زمن توارت فيه الصراحة وكثر فيه تنميق الأحاديث ؟

لابد من خلاف بينى وبينك لتجد الأبحاث الأدبية والفلسفية وقوداً يحيا به اللهب المقدس فى حياة العقل والوجدان .

فإن ضاق صدرك بهذه الحقيقة واكتفيت بمحاورة الرجل اللطيف الذى يقول إن الصحراء تشكو الظمأ وإن البحر يشكو الرى وإن الخير فى امتزاج البحر بالصحراء . إن كان ذلك ما يرضيك فشرِّق فى محاورته وغرِّب كيف شئت وكيف شاء .

ولكن ما رأيك فيمن يصارحك بأن الحيوية لن تشيع فى أبحاثك إلا إذا حاورت (الرجل الذى لا يخلو إلى قلمه إلا وفى رأسه عفريت) ؟

تلك كلمتــك ، يا سيـدى الدكتـور ، وأنا عنها راض وبها مختـال ؟ فما هو العـفـريت الذى يحــتل رأسى حين أخلو إلى قلمى ؟ أيكون هو الجن الذى سـمـاه الفرنسيون Génie ؟.

إن كان ذلك فأنت تشهد لي بالعبقرية ، والقول ما قال طه حسين وهل تكون العبقرية إلا من نصيب من يخاصم رجلاً مثلك فى سبيل الحق ؟

وما هى المنفعة التى أرجوها من مخاصمتك وأنت رجل يضر وينفع ؟

ما هى المنفعة التى أجنيها من مخاصمتك وقد صاحبتك عشر سنين كانت أطيب الأوقات فى حياتى ؟

يظهر أنك لا تعلم أنك على جانب عظيم من الجاذبية وأن الرجل العاقل لا يترك مودتك وهو طائع .

فما سبب الخصومة بينى وبينك ؟

إليك أقباساً من البيان :

منذ أكثر من سبعة أعوام ألقيت محاضرة فى الجامعة الأمريكية عن البحترى سجلتها جريدة كوكب الشرق ، وشاء (العفريت الذى يحتل رأسى حين أخلو إلى قلمى) أن أنشر فى جريدة البلاغ مقالاً عنوانه :

"الدكتور طه حسين يغلط خمس مرات فقط فى محاضرة واحدة"

ثم لقيتنى بعد ذلك فى الجامعة الأمريكية وجادلتنى فى تلك الأغلاط فأعلنت أنى أخطأت ، وكان ذلك أن الجمهور أحاط بنا من كل جانب ليرى كيف أدفع هجومك ، وما كان يجوز لى أن أصنع غير الذى صنعت ، لأن أدبى لا يسمح لى بمصاولتك أمام الناس ، ولأن وجهك يشفع لك ، فهو وجه لا يلقاه الرجل الحر بغير الإعزاز والتبجيل .

فما الذى صنعت أنت فى تصحيح الأغلاط التى أخذتها عليك ؟ مضيت فنشرت محاضراتك عن البحترى فى كتابك : "حديث النثر والشعر" ، وأبقيتَ تلك الأغلاط ، أستغفر الله ، بل (تفضلت) فشكلت الكلمات المغلوطة لتقول : إنك لا تعبأ بأى نقد يوجه إليك !!

فما الذى كان يمنع من تدارك تلك الأغلاط ؟ وما الذى كان يمنع من شرح رأيك فى الهامش إن كنت تؤمن بأنى لم أكن على حق ؟؟

ثم ماذا ؟

ثم حدث فى صيف سنة ١٩٢٩ أن أنكرت علىَّ أن أتخذ شواهد لتطور "النثر الفنى" من رسائل عبد الحميد بن يحيى. (١)

وقلت : إن عبد الحميد بن يحيى شخصية خرافية كشخصية امرئ القيس ! وكان ذلك بمسمع من شابين واعيين هما : محمد مندور وعلى حافظ . وكانت حجتك أن عبد الحميد بن يحيى لم يرد اسمه فى مؤلفات الجاحظ ، فرجعت إليك بعد أيام وأخبرتك أن الجاحظ تكلم عن عبد الحميد بن يحيى مرات كثيرة ، وأن مؤلفات الجاحظ تعرف رجلين أحدهما عبد الحميد الأكبر والثانى عبد الحميد الأصغر ، فلم تجب بحرف واحد . ثم ألقيت وأنا فى باريس محاضرة قلت فيها : إن عبد الحميد بن يحيى أخذ أشياء من أدب اليونان ؛ وفاتك أن تنص على اسم الرجل الذى أقنعك بأنه لم يكن شخصية خرافية .

وقد حملنى (العفريت الذى يحتل رأسى حين أخلو إلى قلمى) على أن أسجل هذه القضية فى أحد هوامش كتاب النثر الفنى ، فكانت فرصة اغتنمها صديقك . الأستاذ أحمد أمين ليقول فى مقال كتبه فى مجلة الرسالة : إن زكى مبارك يعوزه الذوق فى بعض الأحيان !!

ثم ماذا ؟

ثم كانت لك يد مؤثرة فى شئون الدراسة الثانوية بحجة أنها تمهيد للدراسة الجامعية ، وكان من أثر ذلك أن فرض على طلبة السنة الخامسة بالمدارس الثانوية كتابا فى نقد النثر لقدامة بن جعفر لا يفهمه المدرسون إلا بعناء فضلاً عن التلاميذ . وأقول بصراحة إنى لم أفلح فى حمل المفتشين على مقاومتك ، فبرزت لك بنفسى فى

---

(١) يقول الدكتور زكى مبارك على صفحات جريدة البلاغ فى ١٩٤٩/١١/٢٢ : ما هجوت أحداً بالمعنى الحرفى لكلمة هجاء ، ولكن النقد الأدبى يراه الناس من الهجاء بسبب فساد الذوق فى هذا الزمان .

مقال نشرته بمجلة الرسالة ، فهل استجبت لصوت الحق وأعفيت التلاميذ من كتاب تقوم تعاريفه على منطق أرسطو طاليس وهم يجهلونه كل الجهل ؟

أنت عزيز علينا يا سيدى الدكتور ، لأنك رجل شهم ، ولكن ما رأيك فى أغلاطك ؟ ومن يدلك عليها إذا سكت عنك ؟

هل تذكر كلمة (الصديق العظيم) منذ أيام حين قال لك وهو يبتسم : كيف صيرتم زكي مبارك دكتوراً وهو رجل مشاغب ؟ أنت تذكر ذلك ولا ريب ، ولكنك تعرف أنى لم أنل ألقاب الجامعة المصرية بلا جهاد ، وأنت نفسك أسقطتنى فى امتحان الليسانس مرتين ، واشتركت فى امتحان الدكتوراه الذى أديته أول مرة مع أنك لم تكن عضواً فى لجنة الامتحان ، وكان لخصومتك الصورية تأثير فى الدكتوراه التى ظفرت بها للمرة الثالثة فلم أصل إليها إلا بعد جهاد سبع سنين .

فما فضلك علىَّ إن لم يكن فضل المؤدب الحصيف ؟

هل تذكر ما وقع يوم غاب سكرتيرك وكنت وحدى الطالب الذى يفهم العبارة الفرنسية لكتاب نظم الآثينيين لأرسططاليس ؟

وهل تذكر أنك أعلنت سرورك بأن يكون فى طلبة الجامعة المصرية من يفهم أسرار اللغة الفرنسية ؟

فمن يبلغك أن الشاب الذى أدخل السرور على قلبك فى سنة ١٩١٩ هو الكهل الذى تنكره فى سنة ١٩٤٠ ؟

أنا أعرف ما تكره منى . أنت تكره منى الكبرياء ، وكيف أتواضع وقد أعاننى الله على بناء نفسى ؟ كيف وقد أقمت الدليل على أن الشباب المصرى خليق بعظمة الاعتماد على النفس ؟ وهل رأيت رجلاً قبلى أتم دراسته فى أوروبا وهو مثقل بتكاليف الأهل والأبناء ؟ هل رأيت رجلاً قبلى يهتف بأوطار الشباب وهو مُثْخنٌ بجراح الزمان بعد الأربعين؟ هل رأيت رجلاً قبلى يؤلف الكتب الجيدة فى البواخر والقطارات والسيارات؟

ومن يصدق أنى أنفق فى سبيل الورق والمداد أضعاف ما ينفق بعض الناس فى سبيل الطعام والشراب ؟

إن الدكتور طه من ذخائرنا الأدبية ، ويجب أن يعيش ، ونحن سناده فى الخطأ والصواب رعايةً لمركزه فى الجامعة وفى وزارة المعارف ، وهو خليق بمركزه فى الجامعة وفى وزارة المعارف .

أيها الأستاذ الجليل :

فى صدرى أشياء وشئون وشجون ، فمتى أنفض همومى بين يديك وقد رأيت الشيب يشتعل فى شعرك الجميل ؟

متى نلتقى أيها الأستاذ الجليل لتصفية الحساب ؟

إن «العفريت الذى يحتل رأسى حين أخلو إلى قلمى» لا يحضر حين ألقاك ، لأنى لا أرى وجهك إلا تذكرت أنى أحببتك إلى حد العشق .

فمتى نلتقى وحولك أرصاد يؤذيهم أن أصل إلى قلبك الرفيق ؟

وهل أجهل أو تجهل أن فى الدنيا ناسا عاشوا بإفساد ما بينى وبينك ؟ الله وحده يشهد أنى لم أخاصمك إلا فى سبيل الحق .

والله وحده يشهد أنى لم أقل فيك غير ما استبحت نشره فى الجرائد والمجلات . ومن ذلك تعرف أن «العفريت الذى يحتل رأسى حين أخلو إلى قلمى» لم يكن عفريتًا لئيماً ، وإنما هو عفريت تلميذك وزميلك وصديقك :

زكى مبارك

١٢/٢/٤٠

الشيخ حسين على

ما فجع رجل بأبيه إلا تجدد جزعى لفجيعتى بأبى ، فما استطعت دخول البيت الذى مات فيه إلى اليوم . ولا تمثلت وجهه الأصبح إلا غلبنى البكاء . (١)

من أجل هذا رأيت الحزن يعصر قلبى حين قرأت فى الجرائد أن الدكتور طه حسين فقد أباه ، ورثه الله عمر أبيه ومنَّ عليه بالصبر الجميل .

أبو الدكتور طه هو الشيخ حسين على ، وكان رجلاً فى غاية من اللوذعية والأريحية ، وإن لم يظفر من الألقاب بما يحفظ له مكانه بين رجال التاريخ .

وقد أكد عندى فكرة الوراثة العقلية والروحية ، فقد كان عقله على قدر من الرجاحة وكان روحه على جانب من الصفاء .

قضى الشيخ حسين حياته فى عمل بسيط بإحدى قرى الصعيد ، ولكن بعده عن الحياة الفكرية فى العاصمة لم يحُل بينه وبين الاتصال بما كان يجد من تطورات فى الآداب والفنون ؛ فكان يحدثك عن المدنية الحديثة بأسلوب يقنعك بأنه من أبناء الجيل الجديد على بعد بلده من التأثر بأفكار الجيل الجديد .

كان الشافعى يقول: "الحر من راعى ودار لحظة" وقد واددت هذا الرجل لحظتين ، فمن واجبى أن أزرف عليه دمعتين .

وإلى الدكتور طه وإخوته أقدم أصدق العزاء .

---

(١) بعد ما كان من طه حسين ضد زكى مبارك فاقرأ ما كتبه زكى مبارك يوم رحيل والد طه حسين على صفحات مجلة الرسالة فى ١٩٤١/٧/٢٨

وما كتبه زكى مبارك يوم رحيل والدة طه حسين على صفحات جريدة البلاغ فى ١٩٥٠/٨/٦ وهذه الصفحات قد ضمها كتاب : المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك .

طه حسين اليتيم

عزيزى "البلاغ" معالى الدكتور طه حسين فى وفاة أمه بأسلوب البلاغ وبقيت تعزيتى بأسلوبى .

فى تاريخ الأدب أن رجلاً ماتت أمه فكتب إليه أحد إخوانه يقول :

الحمد لله الذى أعزها بوقوفك على قبرها ولم يذلها بوقوفها على قبرك .

والدكتور يتيم كالدرة اليتيمة وهى اللؤلؤة التى تحتكرها صدفة ، ومن هنا سمى الثعالبى كتابه "الدرة اليتيمة" .

إن اليتم فى معناه الحقيقى هو فقد الأب والأم ، والمعنى المجازى هو التفرد ، وقد تفرد الدكتور طه بطرائق فى التفكير وفى التعبير فهو يتيم .

وأنا رأيت والدة الدكتور طه لمحًا يوم كانت تزوره فى مصر الجديدة لتستشفى ، وكانت تعانى مرض الشيخوخة وهو أعنف الأمراض ، وإذا لاحظنا أن الدكتور طه أصغر إخوته سنًا وهو مع هذا فى الثانية والستين تكون أمه المنجبة وصلت إلى التسعين .

قال الشاعر :

أقول لهم فى ساعة الدفن خففوا ... علىَّ ولا تلقوا الصخور على قبرى

ألم يكف هم فى الحياة احتملته ... فأحمل بعد الموت صخرا على صخر ؟

وهذه السيدة حملت همومًا كثيرة أفظعها الثكل ، ففى الجزء الأول من كتاب الأيام أن هذه السيدة ثكلت ابنها البكر وكان طالبًا فى مدرسة الطب ، وإنها فقدت طفلة كانت آية فى الذكاء والجمال .

وحظ معالى الدكتور طـه حسين أجمـل من حظى فأنا فقدت أمى سنة ١٩١٧ ، وأنا أؤدى أول امتحان فى الجامعة المصرية فأورثتى موتها حزنًا صبغ حياتى بالدم النجيع .

ماتت أمى ولم تر من حياتى غير تباشير من المجد ، أما والدة الدكتور طه حسين فقد عاشت إلى أن رأته من أكابر الوزراء ، وهذا من أجمل الحظوظ .

أما بعد فهذه كلمة تعبر عن بعض ما أريد أن أقول ، رحم الله الفقيدة الغالية ، ومنح أبناءها وأقرباءها الصبر الجميل ، إنه قريب مجيب .

قادة الفكر

تمهيد :

كتاب "قادة الفكر"[1] هو فى الأصل بحث وجيز كتبه الدكتور طه حسين ليكون هدية لقراء مجلة الهلال ، يوم كان لمجلة الهلال هدايا سنوية .

والمؤلف يعتذر فى ختام كتابه بأنه كتبه فى ظروف منوعة الألوان ، فلم يكن فى جميع تلك الظروف مطمئن النفس فارغ البال ، ومعنى ذلك أنه يرى محصول الكتاب دون ما يريد ولهذا اعتذر بعبارات حزينة تثير الإشفاق .

نحن ننوب عن الدكتور طه فى تقديم هذا البحث الوجيز فنقول إنه تحفة أدبية وعقلية ، وأنه يشهد بقدرته على تلخيص ما يقرأ من جيد التصانيف ، وكلمة "تلخيص" كلمة مدح فى هذا المقام ، لأن المؤلف لم يرد أن يواجه المعضلات الفلسفية مواجهة الباحث المعتزم أخذ الفلاسفة بنقد ما خلفوا من حقائق وأباطيل .

والدكتور طه نفسه يعترف بأنه ملخص : يعترف اعتراف العلماء فلا يدعى أنه أجهد فكره فى غير التلخيص ، ولكن أى تلخيص ؟.

لقد قدم للقراء صورا سريعة متلاحقة بأسلوب سريع لا يسمح للقراء بالوقوف لحظة من زمان .

هل أبخل على المؤلف بكلمة ثناء فأشهد أنى قرأت كتابه فى سهرة واحدة ، وأننى عشت معه لحظات أمتع من لحظات الحوار الظريف بين الندماء.

---

(١) هذه المقالة على صفحات مجلة الرسالة فى العدد ٥٤١ بتاريخ ١٩٤٣/١١/١٥

مزية الدكتور طه أنه يكتب كما يتحدث ، وأنه ينقل إلى قرائه ما استقر فى نفسه بلا تكلف ولا افتعال .

لم يبتكر الدكتور طه كتابه هذا ، إذا أردنا من الابتكار معناه المطلق فلكتابه نظائر فى الأدب الأوربى وإنما ابتكره فى الأدب العربى ، فهو أول كتاب لخص أسرار الباحثين من قادة الفكر الذين سيطروا على العالم القديم والعالم الحديث

وتكاد تكذب الدكتور طه حين يقول إنه يلخص لأنه يفترع الأبحاث بقوة توهمك أنه المفترع الأول ، وأنه سيكون المصدر لمن يتحدثون عن هوميروس أو سقراط أو أفلاطون .

وهذا كلام أقوله لمنفعة قرائى ، وأنا أحب لهم ما أحب لنفسى ولو كان هذا الكتاب ضعيفاً لأخذت بخناق الدكتور طه بدون ترفق، فأنا لا أجامل أحداً على حساب الفكر والبيان .

آفة الإخلاص فى التلخيص:

التلخيص مطلوب ولكنه لا يخلو من آفات لأنه يصد المؤلف عن تعقب من نقل عنهم الواثق بأنهم على هدى فى جميع الأقوال .

وقد وثق الدكتور طه بمن نقل عنهم فلم يجادلهم فى رأى من الآراء .

وتوضيح هذه المؤاخذة أن الدكتور طه ساير الباحثين الأوربيين فى القول بأن الثقافة اليونانية هى مصدر الثقافة الإنسانية ، وأن الناس فى الشرق والغرب وفى جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونان .

والحق أن للدكتور طه عذراً فى هذه المسايرة ، فقد قرأ كتباً ترى هذا الرأى ، ولو أنه تريث لعرف أن هنالك كتباً أجدر من تلك الكتب بالتلخيص، وهى الكتب التى ترى أن المعارف اليونانية منقولة عن المعارف المصرية ، وأن فلاسفة اليونان القدماء لم يكونوا إلا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء .

وأنا لا أسوق هذه المؤاخذة تعصباً لبلادى ؛ فاليونانيون أنفسهم يعترفون بأنهم تلاميذ المصريين ، وكانت زيارة مصر واجبة على كل يونانى يريد التفقه فى درس أسرار الوجود .

أستاذية مصر الفرعونية لليونان الوثنية ليست أسطورة من الأساطير وإنما هى حقيقة من الحقائق ، وإن أراد الدكتور طه أن يساجلنى فأنا حاضر للسجال ومعى العقل الذى ثقفه الدكتور طه يوم كان أستاذى بالجامعة المصرية .

هدية نفيسة :

كان من المألوف بينى وبين الدكتور طه أن نتقارض الهدايا العلمية والأدبية قبل أن تدور الدسائس بينى وبين هذا الأستاذ الجليل ، وأنا أريد اليوم أن أقدم إليه هدية أرجو أن يتقبلها منى .

قال فى كتابه "مستقبل الثقافة" إن عقلية مصر عقلية يونانية وإنه لابد من أن تعود مصر إلى احتضان فلسفة اليونان .

وأقول إن الأفضل أن يعترف الدكتور طه بأن الفلسفة اليونانية منقولة عن الفلسفة المصرية ، وأن يكون تقبل مصر لفلسفة اليونان ترحيباً بآراء مصرية رجعت إلى أهلها بعد طول الشتات .

طفولة الإنسانية :

أفى الحق أن العقل الإنسانى لم ينضج إلا فى القرن الرابع قبل المسيح ؟

هذا سؤال لم يخطر للدكتور طه على بال .

العقل الإنسانى نضج قبل الوثنية اليونانية بأزمان وأزمان وكان مصدر نضجه فى مصر التى سبقت اليونان بأجيال وأجيال .

وأقول مرة ثانية إنى لم أتعصب لبلادى فليقل من يعرف أكثر مما أعرف أن مصر سبقت إلى إذاعة الفكر والعقل عند القدماء على شرط أن يقدم البراهين .

أنا لا أوجب نظرياً أن تكون مصر أول أمة رفعت أعلام الحضارة الإنسانية فمن المحتمل أن تكون سبقت بأمم سكت عنها التاريخ ، ولكن التاريخ المكتوب يحدثنا أن مصر أول أمة رفعت الحضارة الإنسانية ، فما الذى يمنع من أن يتلطف الدكتور طه فيقول كما تقول الوثائق بأن مصر سبقت اليونان إلى رفع قواعد المدنية فى أقدم عهود التاريخ ؟

أنا لا أبتكر وإنما ألخص ما قرأت بدون أن أزعم أنى أقدر من الدكتور طه على التلخيص ، وإن كان من حقى أن أزعم أني قرأت أكثر مما قرأ فى تاريخ تلك العهود .

اليونانيون تلاميذ المصريين ، والبلاد المصرية في جميع الأزمنة أخصب من البلاد اليونانية بدليل أن مصر كانت الملاذ لليونان فى الفكر والمعاش ، ولم يكتب يوماً أن مصر احتاجت إلى الاستظلال بظلال اليونان .

والتاريخ القديم يؤيد التاريخ الحديث .

لم تستطع اليونان بعد ظهور الإسلام أن تكون أمة تسيطر على الشرق أو الغرب ، وهى جهلت تاريخها القديم وجهلت مبادئ فلاسفتها القدماء ، وجهلت أيضاً لغة سقراط فمجدها رهين بتعصب أنصارها من الأوروبيين .

أما مصر فقد وقفت وقفة أبية فى الحروب الصليبية وذلك موقف لن ينساه التاريخ.

معذرة يا أستاذى فقد بدا لى أن أرد إليك بعض ما أسديت إلى من جميل .

بين الإيجاز والإطناب :

أطنب الدكتور طه حين تحدث عن قادة الفكر فى العصر اليونانى ، ثم أوجز إيجازاً مخلاحين تحدث عن قادة الفكر فى العصر الإسلامى، فهل يرى أن الصراع الفكرى فى عهود الوثنية كان أقوى من الصراع الفكرى فى العهود التى احتدم فيها النضال بين الإسلام والنصرانية ؟

يرجع السبب فى الإيجاز والإطناب إلى الكتب التى كانت بين يديه وهو يؤلف كتابه اللطيف وأهمها كتاب : ليون روبان فى تاريخ الفكر اليونانى .

ولو كانت الأقدار قضت بأن يظهر كتاب يؤرخ الفكر العربى لكان من المؤكد أن يصول الدكتور طه صولة القادر على شرح ما قام به العرب فى رفع القواعد من الحضارة الإنسانية .

لقد قرر أن الإسكندر يغرس الفكر اليونانى فى الهند مع أن الإسكندر لم يلم بالهند إلا إلمامة الطيف، فما عساه أن يقول لو تذكر أن الفكر العربى تغلغل فى أرجاء الهند وما زال يتغلغل بفضل المذاهب الإسلامية .

أهم فصول الكتاب :

الفصل المكتوب عن هوميروس خفيف الوزن، ويقرب منه الفصل المكتوب عن سقراط ، ثم تجلت قدرة المؤلف على البيان حين تحدث عن أفلاطون وأرسطوطاليس .

أما الفصل المكتوب عن الإسكندر فهو غرة الكتاب ، ولعله من أجمل ما كتب الدكتور طه حسين .

وأهمية هذا الفصل ترجع إلى براعة المؤلف في تصوير قدرة الفلسفة حين تنتقل إلى الميادين العلمية ، وكذلك يقال فى الفصل الخاص بجبروت يوليوس قيصر ، وما استطاع أن يصنع في إيقاظ الرومان .

والفصل الخاص بالعصر الحديث موجز جدا ولكنه جيد ففيه لمحات فكرية على جانب من الجمال .

تاريخ لطيف :

فى السبت الأول من نوفمبر سنة ١٩١٩ وقف ثروت باشا رحمه الله بقاعة المحاضرات فى الجامعة المصرية وألقى كلمة طيبة قدم بها الدكتور طه حسين إلى الجمهور، وقد قال فى تلك الكلمة إنه يود لو كان سعد باشا حاضراً ليقدم الدكتور طه على ما صنع فى العام الماضى وهو يقدم الدكتور أحمد ضيف، وكان سعد باشا يومذاك منفيًا بأمر السلطة العسكرية .

ثم وقف الدكتور طه ليلقى محاضرته الأولى فشكر أعضاء مجلس الجامعة ؛ من كان منهم فى مصر ومن كان منهم خلف البحر ، وهو يشير إلى سعد زغلول باشا ومحمد باشا محمود ، واندفع بعد ذلك فى محاضرته فحدثنا أنه عزم على إحياء التراث اليونانى لأنه يؤمن إيمانًا جازمًا بأن مرجع الفكر فى الشرق والغرب إلى القدماء من مفكرى اليونان .

وما كاد الدكتور طه يفرغ من محاضرته حتى نهض أحد طلبة الجامعة واسمه زكى مبارك فرد على الدكتور طه رداً خطابيًا أثار إعجاب الجماهير فوقف الدكتور طه ورد على الطالب رداً ظفر بشىء من القبول .

وبدا للأستاذ محمود عزمى أن يؤرخ وقع المحاضرة الأولى للدكتور طه بكلمة إضافية فى جريدة "الاستقلال" ولم يفته أن يوجه عبارة نابية إلى الطالب الذى ثار حين رأى من يقول بأن مرجع الفكر كله إلى مفكرى اليونان .

وفى المحاضرة الثانية رأى الدكتور طه أن يبدأ بكلمة فى التعقيب على مقال الأستاذ محمود عزمى ليبين خطأ الطالب الذى ثار عليه ، فنهض زكى مبارك وقال : لا تتعالوا علينا ففى مقدورنا أن نساجلكم بالحجج والبراهين .

وفى تلك اللحظة مال إسماعيل بك رأفت على أذن الدكتور طه فأسر إليه بكلمات فانصرف الدكتور طه عن التعقيب ومضى فى المحاضرة الأساسية "وليس" فى نفسه أشياء .

بين تاريخ وتاريخ :

هل تغير الرأى عندى فى هذه القضية بين نوفمبر ١٩ ونوفمبر ٤٣ ؟

وهل تغير الرأى عند الدكتور فيما بين هذا التاريخ وذاك التاريخ ؟

لم يتغير رأيى ولا رأيه وأنا موقن بأنى على هدى ، وإن لم يكن الدكتور طه فى ضلال .

ولكن ما الموجب لإثارة هذه المشكلة وقد تقادم عليها العهد ؟

الموجب هو إصرار الدكتور طه على القول بأن مرجع الفكر فى الشرق والغرب إلى القدماء من مفكرى اليونان ، وحرصه على إثبات هذا القول فى الكتاب المقرر لمسابقة الأب العربى، وكان قبل ذلك مقرراً للمطالعة فى المدارس الثانوية ، ونحن لا ندع أبناءنا يقرأون كل ما يساق بلا بينة ولا يقين .

يضاف إلى هذا أن الدكتور طه عقد فصلاً خاصاً بهذه القضية عنوانه"بين الشرق والغرب " وقد أراد بهذا الفصل أن يجعل القيمة العقلية من حظ الغرب ، وأن يجعل البوارق من حظ الشرق وانتهى إلى النص على أن الغرب وطن الفلاسفة وأن الشرق وطن الأنبياء . فماذا يريد الدكتور طه بهذا القول ؟

وما حظه فى أن يقرر أن العقل الشرقى انهزم أمام العقل اليونانى مرات فى التاريخ القديم وأنه ألقى السلام فى التاريخ الحديث ؟.

وما الغرض من الإصرار على أن العقل الشرقى يذهب فى فهم الطبيعة وتفسيرها مذهبا دينياً قانعاً بدليل أنه خضع للكهان فى عصوره الأولى وخضع للديانات السماوية فى عصوره الراقية ؟

لابد من نقض هذه الآراء قبل أن يفتن بها التلاميذ لأنها صادرة من رجل ممتاز من الوجهة الأدبية أو لأنها مسجلة فى كتاب رقم عليه اسم وزارة المعارف العمومية .

وما الذى يمنع من تبصير الدكتو طه بالصواب ؟

هل نجا من شوق التعرف إلى الحق ؟

وهل هان الشرق على أهله حتى نسكت عما يرمونه بالعقم والإهمال فى الميادين العقلية ؟

على الدكتور طه أن يسمع وله أن يجيب إن كان يملك الجواب.

نماذج من الأخطاء :

وقبل أن نواجه المشكلة الأساسية نذكر نماذج من أخطاء الدكتور طه فى تصوير الحياة العقلية .

فمن أخطائه أن يهون من فنون الحساب والهندسة فيجعلها فنوناً عملية لا عقلية.

ومن أخطائه أن يقول بأن سيادة النظام الملكى فى الحكومات الشرقية دليل على أنها لم تنضج من الوجهة السياسية .

وهذه الأخطاء فى الفكر لا تحتاج إلى شرح ، فمن الواضح جدا أن نظام التقدم كنظام المقاييس وثيق الصلة بالحياة العقلية .

ومن الواضح جدا أن فنون الهندسة والحساب ليست فنوناً علمية إلا عند التطبيق ولكنها فى ذاتها فنون عقلية .

ومن أوضح الواضحات أن نظام الحكومة وسيلة لا غاية ، فإن نجح النظام الملكى فلا بأس ، وليس من الحتم أن تكون القلقلات الحكومية فى التاريخ القديم دليلا على أن اليونان كانوا أرقى الناس فى الحياة السياسية .

والخطأ الأعظم أن يقف الدكتور طه موقف المقرر المتحكم فى قضية واهية ، فما كان اليونانيون كما أراد لهم أن يكونوا ، ولا كان هو نفسه بموقن أن يملك توجيه مؤرخى الفلسفة من المحدثين كما حاول أن يقول .

فلاسفة وأنبياء :

حجة الدكتور طه على قوة الغرب أنه وطن الفلاسفة ، وحجته على ضعف الشرق أنه وطن الأنبياء ، فما قيمة هذا الكلام إذا أقيمت له الموازين ؟

لا يمكن فهم هذه المسألة فهما علمياً إلا إذا غضضنا النظر من الناحية الدينية وجعلنا الأنبياء والفلاسفة رجالاً كسائر الرجال ، وهم كذلك بالفعل فقد شرح القرآن بأن الوحى هو الذى يميز الأنبياء عن الناس ، فما كان الأنبياء ملائكة ولا آلهة وإنما هم ناس .

يجب أولاً أن نعرف من هو الفيلسوف ؟

الفيلسوف هو محب الحكمة ، هو رجل يريد أن يسمو بنفسه عن الجهل ويهمه أن يتحرر من تقاليد الأنبياء ، ولكن فى أكثر أحواله يؤثر السلامة . وقد يركن إلى الخمول، ومعنى هذا أن الفلاسفة لم تكن لهم فاعلية بدليل أنهم عاشوا فى عزلة عن المجتمع ولم يفكروا فى إقامة حكومة تحقق آمالهم فى شرف الوجود .

وسقراط أبو الفلاسفة لم يسلم عقله من الخضوع لمعبد أبوللون ، وكان حاله عند الحكم عليه غاية فى سوء المصير ، فقد ظهر أنه لم يستطع خلق عصبية تحميه من القتل ولم يكن تلاميذه وحواريوه إلا أنصاراً لا يجيدون غير البكاء .

وكان عيباً فظيعًا لأن سقراط نشأ فى عهود الفروسية ، فلو كان فيلسوفًا متسقا مع زمانه لجعل تلاميذه من الفرسان فى زمان لا ينتصر فيه غير الفرسان .

أقول هذا وأنا أعرف أن استسلام سقراط للموت خلق صوراً شعرية قليلة الأمثال: فقد أوحى إلى أفلاطون ما أوحى ، ثم كانت ترجمة فيكتور كوزان لأفلاطون موجهة إلى الشاعر لامرتين بقصيدة غاية فى الروعة والجمال .

الفلاسفة أصحاب فضل من جهة الفهم لا من جهة الفاعلية وبهذا ظلوا متخلفين عن قافلة الوجود .

أنبياء مرسلون :

هناك فرق بين النبى والرسول ، والظاهر أن النبى رجل كامل من الوجهة الذاتية بغض النظر عن المسئولية الاجتماعية ، فبينه وبين الفيلسوف الصادق تشابه فى السلوك مع فوارق سنفصلها بعد حين .

أما الرسول فرجل مجاهد يرى من واجبه أن يستقتل فى هداية المجتمع وأن يرحب بالموت فى سبيل الجهاد .

وقد نجح الأنبياء المرسلون فى هداية الشرق والغرب فإليهم يرجع الفضل فى إقامة الدعائم للحضارة الإنسانية .

وهل من القليل أن يستطيع ثلاثة من الأنبياء المرسلين أن يسيطروا بالفكر والروح والعقل على الكثير من أقطار الشرق والغرب بأضعاف وأضعاف وأضعاف ما سيطر الفلاسفة الثلاثة سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس ؟

مثال :

نشأ النبى محمد "صلى الله عليه وسلم" فى بيئة وثنية فصعب عليه أن يهدى قومه بالمنطق إلى طريق الحق ، وكان منافسوه من رهبان النصارى وأحبار اليهود يعيرونه بالعجز عن خلق آية تشهد بأنه رسول .

وقد حار النبى محمد " صلى الله عليه وسلم" فى إقناع خصومه بأن الآيات من عند الله وأنه لا يملك تبديل الأنظمة الوجودية لأنها من وضع واجب الوجود .

وفى يوم من أيام الارتياب مات ابنه إبراهيم ، وفى ذلك اليوم كسفت الشمس فأقبل أعداؤه مبايعين ، لأنهم وثقوا بأن الشمس لم تكسف إلا حزنًا على موت ابن الرسول .

عند ذلك تعرض محمد لمحنة أخلاقية فهو بين أمرين :

الأمر الأول أن يستغل جهل معاصريه فيوافق على أن الشمس كسفت لموت ابنه إبراهيم فيكون من أكابر الأنبياء .

والأمر الثانى أن يصدع لكلمة الحق ولو تعرضت نبوته للضياع

وقف محمد ينادى بأن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وأنهما لا يتأثران بمؤثر ولو كان من الأنبياء .

فى تلك اللحظة تناظر أصدقاء محمد "صلى الله عليه وسلم" عاتبين فقد ضاعت فرصة لا ينتظرون أن تعود .

ولكن محمد "صلى الله عليه وسلم" لا يبالى غضب أصدقائه إذا خاصموا الصدق .

ماذا أريد أن أقول؟ أن أقول إن محمدا "صلى الله عليه وسلم" هو القائد الأول فى الفكر الإنسانى بهذه اللمحة الواحدة بغض النظر عما تبعها ولحقها من اللمحات .

إذن يكون القائد الأول للفكر هو محمد لا سقراط ولو غضب الدكتور طه حسين .

وما غضب الدكتور طه وما خطره وهو يستوحى جماعة من المؤلفين فى تاريخ الفكر عند اليونان ؟

صيال الآراء :

أراد الدكتور طه أن يغض من العقلية الشرقية بحجة أنها خضعت للكهان والأنبياء، وأنا لا أتزيد عليه فذاك كلامه وهو كلام مدون فى كتاب طبع مرتين وتبنته وزارة المعارف بعد مجلة الهلال .

والظاهر أن الدكتور طه يتوهم أن الكهانة ظاهرة شرقية لا غربية وذلك توهم ظريف ، لأن الدكتور طه نفسه يشهد بأن سقراط قد استلهم الكهان مع أنه فى زعم الدكتور طه أول محرر للعقل الإنسانى من أغلال الأضاليل .

وأقول بعبارة صريحة إن الكهانة لم تصر مهنة مقدسة إلا فى عهود الوثنية اليونانية ، فقد كانت لها معابد وكان لمعابدها سدنة وأمناء وكان المصير لكل معضلة فردية أو قومية رهينًا برأى "الصوت المتنكر" فى زوايا الظلام المنثور فوق معابد اليونان.

أما كهان الشرق فكان مركزهم فى المجتمع أيسر وأخف لأن الشرق سبق الغرب إلى استحياء العقل ، وهل يستطيع مكابر أن ينكر فضل الشرق فى السبق إلى رفع القواعد من الحضارة الإنسانية ؟

ثم ماذا ؟ ثم يجيء الكلام عن تفرد الشرق بالأنبياء ، وهنا تثور المعضلة من جديد ، معضلة الموازنة بين الشرق والغرب .

وأقول إن النبوات فى الشرق دانت الإنسانية بديون يراها الحاضر ويذكرها التاريخ ، فالأنبياء الثلاثة موسى وعيسى ومحمد من أرومة عربية ، وهم قد شرقوا وغربوا وملئوا الدنيا ضجيجًا فكريًا وروحيًا فى أزمان لم تعرف سوى الذى أثاروا من صيال الآراء .

إن الصراع بين الإسلام والنصرانية هو أول وثبة جريئة لإيقاظ العقلية الإنسانية ، ولا نستطيع أن نتصور مدنية تقوم على الفكر والرأى قبل الصراع الذى ثار بين المسلمين فى الشرق والنصارى فى الغرب .

الإسلام يحرر ألمانيا وانجلترا :

كانت دعوة لوثر دعوة جزئية فى تحرير المسيحية من العبودية الرهبانية ، فما مصدر تلك الدعوة التى حررت عقول الإنجليز وعقول الألمان .

مصدر تلك الدعوة مصدر إسلامى ، وأنا أتذكر أن الإسلام ظهر فى الشرق.

"لوثر" قوة فكرية عظيمة ولكنه لم يخطر على بال الدكتور طه وهو يتحدث عن قادة الفكر لأنه لم يأخذ الفكر عن اليونان مع أن "لوثر أثر فى الأخلاق الأوربية تأثيراً لا يقاس إليه تأثير سقراط وأفلاطون .

وأعجب العجب أن اليونانيين لم يستجيبوا لدعوة "لوثر ، ولم يتركوا المذهب الأرثوكسى .

قال هتلر فى كتابه إنه لا يعترف بغير قوتين اثنتين : قوة ألمانيا ، وقوة انجلترا، ولم يفته غير النص على أن ألمانيا وانجلترا يتبعان الروح الإسلامى ، وهو الروح الذى ينكر أن يكون بيننا وبين الله وسيط، ولو كان من أعاظم الرهبان .

الشرق يؤثر فى الغرب ولا يزال يؤثر فيه من الوجهة الروحية والعقلية ، فما هذا الذى يقول الدكتور طه ؟

هو ينقل كلاماً ، وناقل الكفر ليس بكافر كما قال القدماء .

بين الشرق والغرب :

تجمع الغرب النصرانى لمناضلة الشرق الإسلامى فى أعوام الحروب الصليبية ، فماذا وقع فى تلك الحروب وقد طالت حتى جاوز مداها عشرات السنين ؟

قهرنا خصومنا ودحرناهم لأن أسلحة الحرب كانت واحدة ولم يكن لخصم أن يتفوق على خصم بغير قوة العقيدة ورسوخ اليقين .

وكان نصارى الغرب يهمهم أن يستولوا على مصدر النصرانية فى الشرق ومعنى هذا أنهم جاءوا مسلحين بعزائمنا الروحية ، ولولا العقيدة التى نقلوها عن الشرق لعجزوا عن ملاقاتنا فى أى ميدان .

سيوف الله :

كان من المؤكد أن يهزم الشرق الإسلامى فى هذه الحروب لأن أدوات القتال قد تغيرت وتبدلت ، ولم يستعد الشرق لمنازلة الغرب لأنه غير مزود بالأسلحة التى ابتدعها شياطين الغرب الجديد .

لطف الله بالشرق الإسلامى ولطف ... ألم تسمعوا أن الحرب فى روسيا لم تمس الأقاليم المأهولة بالقبائل الإسلامية .

عتاب :

هو عتابى على الدكتور طه ، فهل يميل إلىَّ بفكره لحظة واحدة ليغير رأيه فيما بين الشرق والغرب ؟ وماذا يقع إن لم يسمع ؟

الشرق لن يتخلى عن السيطرة الروحية ، وإن عجز عن السيطرة الحربية ولن يوهن من قوة الشرق أن يقرأ أبناؤه كلاماً منقولاً عن أحد الأجانب ولو كان الناقل طه حسين .

كتاب أحمد شوقى : بقلم "زكى مبارك[1] "

اتفق لى أن كتبت فصولا مطولة عن شعر شوقى فى سنة ١٩٢٥ وهى فصول منزهة عن الغرض يجدها القارئ فى كتاب "الموازنة بين الشعراء " وكانت فرصة طيبة عرفت فيها أخلاق النقاد المعاصرين [2] .

ويعزّ علىّ أن أصرح بأن جمهرة النقاد كانت من أصحاب الصحف الأسبوعية ، وكان شوقى عودهم التطلع إلى مائدته الفاخرة وجيبه الثقيل ! وكانوا كلما احتاجوا إلى "بره ومعروفه " طافوا حول شعره يتلمسون ما فيه من نقائص وعيوب ، وكان الرجل يغار على شعره غيرة الكريم على عرضه ، فكان يخرس ألسنتهم ويقصف أقلامهم بالهدايا والهبات ، وقد ظنَّ أولئك المساكين أنى أكتب عن شعر شوقى لنفس الغرض الذى يسوقهم ويحفزهم إلى الكتابة عن شعره، فكانوا يتقدمون إلىَّ ناصحين ، وكان نصحهم يتلخص على اختلاف ألوانه فى هذه الكلمة الطريفة : "إن شوقى لا يحترم من ينصفه".

والالتزام الذى يفهمونه هو السخاء والكرم والجود، وهذا النوع من الاحترام يبدو لعينى بغيضاً ممقوتا لا يتطلع إليه إلا سفلة الناس .

وليت شعرى كيف يحتاج الرجل إلى هبات الأغنياء ورغيف واحد يكفيه يوماً وليلة، وليس بطن الإنسان إلا وعاء لا يستحق أن تذل فى سبيل ملئه النفوس . ولكن هذا هو

---

(١) كتاب أحمد شوقى بقلم زكى مبارك صدر عن الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٧ والكتاب من إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك ، والمقالات من على صفحات مجلتى الرسالة وأبوللو وجريدة البلاغ .

(٢) وهذه السطور استهلال لمقالة زكى مبارك بعنوان : شوقى أمام التاريخ ، وقد نقلت من على صفحات مجلة أبوللو ديسمبر سنة ١٩٣٢ وهى على صفحات الكتاب

الذى وقع لنقاد ذلك العصر مع الأسف ، وقد استطاع أولئك المرتزقون أن يشوهوا النقد الأدبى أبشع تشويه، وأن يقلبوا الحقائق الأدبية قلبًا كريهًا ، وأن يروضوا الجمهور على الاعتقاد بأن الرجل لا يقول كلمة الحق إلا مأخوذا بغرض دفين

التربية والتعليم فى شعر شوقى : البلاغ فى ١٩/١٠/١٩٣٤

إن شوقى كان يتطلع إلى مستقبل الأمة فى حياتها التهذيبية فكان يسوق الحديث عن الأزهر والجامعة المصرية ، وكان له فى أكثر المواقف قصائد ومقطوعات ينحو فيها منحى المربى الحكيم ، وإن لم يقصد إلى تحديد شىء فى المذاهب والآراء التعليمية : فكان شعره فى هذا الباب من عفو الفطرة ، وقد تجود الفطرة أحيانًا بما تعجز عنه عقول الباحثين .

واجب المعلم :

ولشوقى قصيدة مشهورة فى واجب المعلم يحفظها التلاميذ لأن أساتذه اللغة العربية يسرهم جدا أن يعمل تلاميذهم بقول شوقى :

قم للمعلم وفه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا

كتاب : حافظ إبراهيم بقلم زكى مبارك

أول ميزة لحافظ أنه كان "محدثًا " وكلمة محدث فى هذا الموطن تماثل الكلمة الفرنسية : "كوزير " [1] .

والحديث نوع من الأدب الرفيع ولا يحسنه إلا الأقلون ، وقد كان حافظ محدثًا بكل معنى الكلمة ، كما يقولون ، فإذا صادفك فى الطريق ألهاك حديثه عن نفسك وعما تقصد إليه ، وأذكر أنى ما صادفته مرة فى الطريق إلا ألهانى وشغلنى بأدبه نحو ساعة أو يزيد ، وكنت فى جميع المرات أجد مشقة فى صرف نفسى عن حديثه ، لأمضى إلى حيث أشاء [2] .

أما مجالسه فكانت جنة دانية القطوف ، وكان يجلس فيتحدث فى ظرف ولياقة وينتقل من فن إلى فن ، ومن حديث إلى حديث، وهو فى ذلك يمزج الحلو بالمر والجد بالهزل ويحول الجالسين إلى آذان مرهفة وقلوب واعية وأحلام تكاد من طرب تطير والخمر التى وصفوها بأغرب الأوصاف لا تفعل بالنفس ما كانت تفعله أحاديث حافظ إبراهيم .

---

(١) كتاب حافظ إبراهيم صدر فى المكتبة الثقافية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٨ ... ثم صدرت طبعة ثانية مزيدة سنة ١٩٩١ عن دار الجيل/ بيروت والكتاب جمع وإعداد وتقديم كريمة زكى مبارك

(٢) وهذه السطور من مقالة لزكى مبارك على صفحات هذا الكتاب تحت عنوان المحدث حافظ إبراهيم.... ، وقد نشرت من قبل على صفحات جريدة البلاغ فى ١٩٣٢/٧/٢٩ .

وقد قمت بجمع مادة الكتاب من على صفحات مجلتى الرسالة وأبوللو وأيضًا جريدة البلاغ .

وربما كان اهتمامى بنقل تلك المقالات تأثرى بكلمة نشرها زكى مبارك على صفحات مجلة أبوللو استهلها بقوله . كانت ذكرى حافظ تهيجنى فى كل لحظة ممثلة فى بيته الحزين

مـــرضنا فـــمـــا عـــادنا عـــائد ولا قـــــيـل أين الفـــــتى الألمعى

ولقد لقيته مرة فى المساء فاحتجزنى بالقوة فى مشرب نيوبار وانطلق يتحدث. وكنت من لحظة إلى لحظة أقول : اعفنى يا حافظ بك أنا عندى الحصة الأولى وأنت تعرف ، ما الحصة الأولى عند المدرسين وهو فى كل مرة يقول : اسمع هذا فقط.

ثم انصرفت وأنا أوقن أن الدنيا كلها بما فيها من حصة أولى وأخيرة لا تساوى لحظة فى حضرة حافظ إبراهيم . فيا رحمتا من صرفتهم الشواغل أو المقادير عن أحاديث حافظ إبراهيم ! فإن هؤلاء حرموا من خير كثير ، ولم يعرفوا شيئًا قيمًا عن حافظ لأن شعره ونثره لا يقاسان إلى حديثه، فإن له أمثالاً ونظائر فى الشعر والنثر ، ولكنه كان فى حديثه منقطع النظير والأمثال .

بين حافظ وشوقي [1]

كان التنافس بين حافظ وشوقي قد وصل إلى أبعد الحدود ، وزاد في خطر ذلك التنافس أن حافظ كان رجلاً عذب الروح ، وكانت له مع الصحفيين صلات يؤلب بها أحقادهم على شوقي حين يشاء .

وما أذكر غلبة شوقي على حافظ إلا تعجبت فقد كان حافظ غاية في الذكاء واللوذعية ، وكان علمه بتاريخ العرب وآدابهم علمًا يفوق الوصف ، وكان فهمه لدقائق الحياة المصرية أعجوبة الأعاجيب فكيف تفوق عليه شوقي ، وكان رجلاً يدل مظهره وحديثه على أنه فرد من سواد الناس لا يمتاز بعبقرية ولا نبوغ ؟

أكاد أجزم بأن شهوة الحديث هي التي أضعفت شاعرية حافظ فقد كان كثير الحديث ، وبالحديث وصل إلى ألوف القلوب ، وبالحديث ضاع ، لأن الحديث يأخذ من القوى النفسية طاقات لاتصلح بعدها للغناء .

لو أن أحاديث حافظ دونت لكان فيها ثروة فكرية تفوق ما ترك شوقي من الثروة الشعرية ، ولكان من الممكن أن يعد من أقطاب التاريخ الأدبي في هذا الباب ، ولكن هذا الزمن لا تتسع تقاليده الأدبية لمثل ما كانت تحرص عليه عناية القدماء في أمثال هذه الشئون .

أما شوقي فكان يؤثر الصمت ليحتفظ بالمدخر من قواه النفسية وليلقى الناس بالقصيد لا بالحديث فظفرت جهوده بالخلود .

---

(١) من مقال زكي مبارك على صفحات الرسالة في ديسمبر ١٩٤٢ ، والمقال على صفحات هذا الكتاب.

أحقاد العبقريين :

ومع هذا فأحقاد العبقريين كأحقاد الأطفال تنوب بعد ليال، ففى سنة ١٩٢٧ أقيمت حفلة لتكريم شوقى فأنشد حافظ قصيداً جاء فيه :

أميـر القـوافى قد أتيت مـبايعًا　　　وهذى وفود الشـرق قد بايعـت معى

فدعاه شوقى وقبل جبينه والدمع فى عينيه .

ثم شاء القدر أن يموت حافظ قبل شوقى بأسابيع فقال شوقى يبكيه :

قـد كنت أوثر أن تقـول رثائِى　　　يا منصف الموتى من الأحـيـاء

لكن سـبقت وكل طول سـلامة　　　قـدر وكل منيـة بقـضـاء

وددت لو أنى فـداك من الردى　　　والكاذبون المرجـفـون فـدائى

وهى أعظم قصيدة قالها شوقى قبل أن يموت ، ولعلها خير ما جاد به خاطره برفق وحنان .

ألاعيب الحظوظ :

مـات شوقى وحـافظ فى مـوسم واحـد هو صيف سنة ١٩٣٢ .. فـارتجت الأقطار العربية لموت شاعرين كانت إليهما قيثارة الغناء فى أعوام تزيد على الثلاثين.

وفى خريف تلك السنة بدا لإحدى شركات السجائر أن تخرج علبة باسم شوقى وعلبة باسم حافظ فجعلت ثمن العلبة الأولى خمسة قروش ، وثمن العلبة الثانية أربعة قروش ، وسعيد الدنيا سعيد الآخرة كما يقولون .

توضيح :

لهذا الاستطراد غاية هى خلق جو يفسر ما كان بين شوقي وحافظ وما يليق بأديب أن يهمل ما كان بين حافظ وشوقى من مصاولات عادت على الشعر أطيب الثمرات.

كان شوقي في أخريات أيامه مصابا برعشة عنيفة تتمثل في اضطراب يديه بدون انقطاع ، ومع هذا فقصيدته فى رثاء حافظ لا تدل على تعب أو إعياء ، أما آخر قصيدة نظمها فهى قصيدته فى افتتاح مصنع مشروع القرش ، وبعد أن صفق المحتفلون ، وأطالوا التصفيق لقصيدة شوقى كان زادهم عند الانصراف أن يتلقوا ملحقًا لجريدة الجهاد تنعي به شوقي .. فعرفوا أن تصفيقهم كان تحية تلقاها الشاعر، وهو على سرير الموت يرحمك الله يا شوقى .

تلقيت الخطاب التالي بإمضاء طه إبراهيم الخطيب [١] :

"السلام عليكم وبعد فقد درسنا وسمعنا أن المرحوم شوقى لم يكن يلقى شعره بنفسه ولكننا لم نعرف السبب فهل تتفضلون بالإجابة ولكم الشكر سلفًا " .

وأقول إن الشعراء كانوا ينشدون أشعارهم بأنفسهم ، فقد وجدت فى ديوان ابن نباتة المصرى فى مواطن كثيرة هذه العبارة : "وقال ولم ينشد " .

ومعنى ذلك أن طارئًا حال بينه وبين الإنشاد ، فما السبب فى أن شوقى لم ينشد شعره قط .

يرجع السبب إلى أن شوقى كان مصابًا بعلتين : العلة الأولى زيغ البصر ، والذى ينشد شعره فى حفلة مضطر إلى مواجهة الجمهور بعيون ثوابت ، وقد تحدث شوقى عن هذه العلة فى مقدمة الطبعة الأولى عن الشوقيات .

---

(١) ١٩٥١/٤/٢٤

ولم يتحدث شوقى عن العلة الثانية ، ولم يتحدث عنها أحد ممن وصفوه ، وهى علة لاحظتها عليه وقد صحبته مدة طويلة ، وهذه العلة حبسة في اللسان فقد كانت تعتريه من حين إلى حين بصورة تمنعه من إتمام الحديث ، وكان رحمه الله يجد مشقة فى النطق وهذا عيب ليس له فيه يد .

أما الشاعر حافظ إبراهيم فكان فصيح اللسان جميل الإنشاد ، وقد ضاعت الفرصة من أيدينا ، وكان من السهل تسجيل صوته بالفونوغراف .

كرسى شوقى

أعلنت كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول عن كرسى شوقى وتفننت فى وضع الشروط ، المنافس الوحيد هو الدكتور طه حسين ولكنى سأنتصر عليه .. وخرج من الميدان عباس محمود العقاد وأحمد حسن الزيات .

لا يفهم الشاعر إلا الشاعر والدكتور طه حسين لم ينظم الشعر [(١)] .

الأستاذ عمر الدسوقى لقينى مصادفة فى "المترو" فحدثنى أن الذين تقدموا لكرسى شوقى ثلاثة : بشر فارس وعبد الوهاب حمودة وزكى مبارك .

أترك الحكم للجنة التى ستوازن بينى وبين الزميلين ، والأفضل أن أترك الأمر لله [(٢)] .

أنا صاحب الفكرة وقد انتهزها سواى وما أكثر هؤلاء [(٣)] .

أنا أتعجب من كلية الآداب بجامعة فؤاد تعلن عن كرسى شوقى وتضع شروطا ثم تتجاهل الشروط [(٤)] .

---

(١) ١٩٤٩/٤/٤

(٢) ١٩٤٩/٥/٢٣

(٣) ١٩٤٩/٨/٢

(٤) وأنا أيضاً أتعجب من حرمان زكى مبارك من كرسى شوقى ؟ !!

إن زكى مبارك أول من أنصف أحمد شوقى .. يقول زكى مبارك على صفحات جريدة البلاغ فى ١٩٣٢/١٠/٢١ وفى مقالة تحت عنوان «كلمة صدق فى توديع أمير الشعراء» إن نفسى لتطيب كلما ذكرت أنى كنت أول ناقد أنصف شوقى فى حياته كما يشهد بذلك كتاب الموازنة بين الشعراء " .

وكتاب بالموازنة بين الشعراء كان مقالات نشرت قبل أن تصدر فى كتاب سنة ١٩٢٥ .

علمت أخيراً أن الكلية أعطت كرسي شوقي للدكتور طه حسين وهذا تصرف غير سليم ، فالدكتور طه حسين لم يكن يعترف بشاعرية شوقي وقد هجاه في جريدة الاتحاد بمقالات بلغت الغاية في العنف .

ديوان زكى مبارك [1]

إهداء الديوان

إلى تلك الفتاة التى خفق لها القلب أول خفقة ، والتى قلت فيها أول قصيدة وسكبت عليها أول دمعة .

إلى تلك الفتاة المنسية التى تنام فى قبر مجهول تحت سماء سنتريس .

إلى بقاياك فى التراب يا فاتحة الأمانى وخاتمة الآمال .

إليك – يا كل ما كنت أملك فى مطلع الصبا وفجر الشباب – أقدم هذا الديوان :

وأقسمُ ما قدمت إلا أضالعى ... يمزقها حزنى وينشرها وجدى

فلا تحسبيننى بعد أن خانك البِلَى ... تخونت ما بينى وبينك من عهد

كأنى عنيت نفسى حين قلت وأنا أغترب لطلب العلم فى السربون :

جنت علىَّ الليالى غير ظالمة ... إنى لأهل لما ألقاه من زمنى [2]

فما رأيت من الأخطار عادية ... إلا بنيت على أجوازها سكنى

ولا لمحت من الآمال بارقة ... إلا تقحمت ما تجتاز منْ فتن

أحلت دنياى معنى لا قرار له ... فى ذمة المجد ما شردت من وسن

---

(١) ديوان زكى مبارك ، هو الديوان الأول للشاعر زكى مبارك ، وقد صدر سنة ١٩٢٣ عن المكتبة التجارية الكبرى .

(٢) من قصائد الديوان الأول .

أديب يعبد الحسن (١)

حَسبْتم هذه الدنيا	تضيق برحبها عنا
فصرتم كلما جئنا	نَفَرتم جهرةً منا
أسأتم إذ تبرمتم	بهذا المغرم المضْنىّ
وجرتم حين غيرتم	بصدق ولائه الظنا
ولو أنصفتمو قلتم	أديبٌ يعبد الحسنا

(١) من قصائد الديوان الأول .

إلى الفنان محمد عبد الوهاب [1]

قضى الفنان محمد عبد الوهاب أشهر الصيف فى باريس هذا العام ١٩٣٣ بمناسبة إخراج فيلم الوردة البيضاء ، فرأى الشرقيون المقيمون فى باريس أن يقيموا له حفلة تكريم وكان صاحب الديوان من أعضاء لجنة الاحتفال ، ثم قضت ظروف بالتبكير فى العودة إلى مصر ، فقال الأبيات الآتية وهو يودع باريس ويعانى لوعة الحرمان من رؤية صديقه الفنان :

"يا أميرَ الغناء يفديك روحى ... من صروف الهوى وجور الغرام
أذبلتْ عودك الصبابة حتى ... عدت مثل الخيال فى الأحلام
وغدا صوتك القوى أنينًا ... باكيَ اللحن شاكيَ الأنغام
خذ دموعى فنح بها ياهزازا ... ذاب من قسوة الجوى والهيام
صدَّنى عن لقاك فيض حنيني ... لبلاد النخيل والآطام [2]
قد دعتنى مصر فطار صوابى ... وتناسيت ملهمى وإمامى
وتجاهلت واجبى نحو تكريـ ... ـمك بين الأماثل الأعلام
أنا بالروح والفؤاد صفىٌّ ... فتقبل تحيتى وسلامى»

---

(١) من قصائد الديوان الأول.

(٢) الآطام جمع أطم بضمتين وهو القصر ، ومصر معروفة بالقصور الشوامخ ، وقد سمى العرب مدينة الكرنك "الأقصر" من أجل ذلك .

إلى الوالد العزيز [١]

مازلت أمرح في نعمى وعافية	من نيلك الجزل أو من رأيك الحسن
وأسهر الليل في علم وفي أدب	أبغي رضاءك عن قصدي وعن سنني
وأستقل لأجل الفضل ما سمحت	به الليالي لأهل الفضل من محن
حتى بلغت بجدي ما طمحت	إليه نفسي كما يرجوه لي وطني
فاليوم أهديك ما أبدعت من أثر	أبقى على الزمن الباقي من الزمن

قيمة الديوان :

يسأل عنها الأصدقاء الذين أغروا الشاعر بنشره في إلحاح ، فهو صورة طريفة من صور الوفاء : يسأل عنها الأديب الموسيقار مدحت عاصم الذي كان يشتهي أن تجمع هذه الأشعار في ديوان ، والأستاذ عبد الله حبيب الذي تمنى غير مرة لو انقطع صاحبنا للشعر ، والأديب عبد المجيد عيسى البيه راوية الشاعر الذي لا يلقى صديقه إلا ذكَّره على إغفال موهبته الشعرية . ثم يسأل الدكتور أحمد زكي أبو شادي الذي استطاع بحماسته للشعر الحديث أن يقهر صاحبنا قهراً على نشر هذا الديوان ، ولولا صدق هذا الرجل في إلحاحه النبيل لظلت هذه الأشعار حبيسة النسيان ، فإلى أدبه وفضله أقدم خالص الثناء .

(١) من قصائد الديوان الأول .

وفى شتاء سنة ١٩١٥ ألف الأستاذ محمد حسنين العدوى وكيل الأزهر والمعاهد الدينية يومئذ جمعية أدبية أراد بها توجيه الأزهريين إلى إجادة الشعر والإنشاد ، فكان زكى مبارك أظهر الطلبة الذين انتظموا فى سلك تلك الجمعية [١] .

وقامت مسابقة بين الخطباء والشعراء فى مسجد محمد بك أبى الذهب بحضور كبار العلماء ، فكانت قصيدة زكى مبارك ، أظهر القصائد ثم صحت رغبة المغفور له السلطان حسين كامل فى إقامة مسابقة فى الشعر والخطابة والكتابة بين الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى ومدرسة العلوم فكان زكى مبارك من أوائل من رشحته مشيخة الأزهر الشريف لتلك المباراة ، وأشار فضيلة الأستاذ الشيخ محمد حسنين العدوى بنشر قصيدته فى جريدة المؤيد ، وكانت أول مرة نشرت فيها الجرائد شعراً لصاحب هذا الديوان ، ولا تسأل كيف زها صاحبنا وتاه على أقرانه بذلك النصر المبين.

---

(١) من مقدمة الديون .

كتاب الأم [1]

إن الشافعي لم يعرف "كتاب الأم" بصورته الحاضرة .

والفرق عظيم بين كتاب يؤلفه الشافعي أو يمليه أو يرويه عنه أصحابه، وكتاب يؤلف بعد وفاته بسنين ، الفرق عظيم جدا بين هذين الوضعين في التأليف والتصنيف، إلا أن تكون الحقائق الأدبية في مصر مما يكال بالمكيال ، ومن العار أن يؤلف أعظم كتاب في الفقه الإسلامي فوق أرض مصر وتحت سماء مصر ولا يعرف المصريون مؤلفه على التحقيق ، لكن من حسن الحظ أن يوفق إلى الكشف عن هذه الحقيقة باحث من أبناء هذه البلاد [2] .

---

(١) كتاب الأم صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٢٤ عن مطبعة حجازي ، وطبعة ثانية عن مكتبة مصر بالفجالة ١٩٩٢

(٢) والسطور التي مرت بنا مقتطفات من تمهيد زكي مبارك للكتاب (سنة ١٩٨٨ احتفلت كلية الآداب بسوهاج فرع جامعة أسيوط بإحياء ذكرى المغفور له الدكتور زكي مبارك فأقامت المهرجان العلمي الأول عن زكي مبارك ، وكان من بين الكلمات التي ألقيت في المهرجان كلمة ألقاها الدكتور محمود بن الشريف الأستاذ بالدراسات العليا بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر حيث تحدث تحت عنوان : زكي مبارك وكتاب الأم، واستهل الكلمة بهذه السطور :

نقف الآن وقفة مع الذي حقق ووثق وكان من نتاج تحقيقه وتوثيقه كتاب فجر به قضية وأقام به دعوى كشف النقاب عن اعتقاد علمي خاطئ ذلكم المحقق هو الدكتور زكي مبارك وذلك الكتاب هو كتاب الأم ، وقد أثبت زكي مبارك بالشواهد والأدلة أن الشافعي لم يعرف كتاب الأم بصورته الحاضرة وأن الكتاب ألف بعد وفاة الإمام الشافعي بعدة سنوات .

وبدقة دقيقة حكم الدكتور زكي مبارك بعد أن ساق البراهين والحجج بأن الإمام الشافعي أملى مسائل وكتب مسائل وتحدث بمسائل ثم ترك كل هذا بعد موته وديعة بين أيدي أصحابه ، وفي خزائنهم وصدورهم فجاء البويطي فألف من ذلك كله كتاب : "الأم" وأعطاه للربيع بن سليمان فزاد عليه . للإمام الشافعي فضل العلم ولأصحابه فضل التأليف والجمع .

وأنهى الدكتور محمود بن الشريف كلمته بقوله وها نحن أولا بدورنا في هذا المؤتمر نذيعها ونحييها من جديد لعلها تهدي باحثينا وشبابنا الذين لم يعاصروا هذه المعارك العلمية والأدبية إلى لون من : البحث والتحديد والتدقيق والتحقيق يهديهم ، والله هو الهادي ومنه العون وبه التوفيق.

إن الشافعى أملى مسائل وكتب مسائل وتحدث بمسائل ثم ترك علمه ورسائله وديعة فى خزائن أصحابه وصدورهم بعد موته ، فجاء البويطى فصنف من ذلك كله كتاب الأم وأعطاه للربيع بن سليمان فزاد فيه وتصرف [1] .

فنحن حين ننسب كتاب " الأم" إلى البويطى لا نريد أن نغض من قيمة الشافعى وهو صاحب المذهب وإنما نريد أن نحقق نسبة الكتاب من الوجهة التاريخية ، وأن نعين منهج التأليف فى أوائل القرن الثالث ، وأن نثبت فضل البويطى والربيع فى جمع هذا الكتاب .

وليس ذلك بالقليل إلا أن تكون الحقائق الأدبية فى مصر مما يكال بالمكيال كما أشرنا فى أوائل هذه الأوراق [2] .

عناصر الكتاب[3] :

كنا نسهر فى منزل الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق فى إحدى ليالى رمضان وكان بالمجلس الأستاذ أحمد أمين ، وجرى ، ذكر المعارك التى قامت حول رأينا فى نسبة كتاب الأم ، فقال الأستاذ أحمد أمين ، المعروف بدقة البحث وسلامة الذوق : هناك فروض ثلاثة : الفرض الأول أن يكون الشافعى جلس على "شلتة" وصنف كتاب الأم ، والفرض الثانى أن يكون جلس على "دكة" وأملاه كله فى حلقة الدرس ، والفرض الثالث أن يكون كتب بعضه وأملى بعضه ، ثم نظمه البويطى أو الربيع بن سليمان .

وقد استبعد الأستاذ أحمد أمين الفرض الأول والثانى ورجح الثالث وهو يميل إلى أن الكتاب بصورته الحاضرة وضع بعد وفاة الشافعى رحمه الله .

---

(١) صفحة ٢٧ من كتاب مكتبة مصر .

(٢) صفة ٣٢ من الكتاب نفسه .

(٣) صفحة ٢٣ من الكتاب نفسه ، والكتاب تحقيق زكى مبارك وقد صدرت طبعة ثالثة ١٩٩٨ عن مكتبة الشرق الجديد بدمشق .

أما أنا فأقول بفرض رابع : وهو أن يكون الشافعي أملى مسائل وكتب مسائل وتحدث بمسائل ثم ترك علمه ورسائله وأماليه وديعة فى خزائن أصحابه وصدورهم بعد موته، فجاء البويطى فصنف من ذلك كله كتاب الأم وأعطاه للربيع بن سليمان فزاد فيه وتصرف ، وإلى القارئ مرجحات هذا الفرض الرابع .

أولاً : ليس فى الكتاب مقدمة - وهى الخطبة فى التعبير القديم - ولو ظهر هذا الكتاب فى حياة الشافعى لوضع له خطبة ، ولو أن الشافعى كتب خطبة لهذا الكتاب المنسوب إليه لعض عليها أصحابه بالنواجذ وبقيت فى صدر الكتاب .

فإن سأل القارئ : وأين خطبة البويطى ؟

فإنا نجيبه بأن البويطى زهد فى نسبة الكتاب إلى نفسه فلم يضع له خطبة ، وجاء الربيع بن سليمان فسكت عن تقديم الكتاب إلى الجمهور لأنه كان معروف النسبة إلى البويطى، بدليل قول المكى والغزالى "كتاب الأم الذى ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان" وكلمة "ينسب الآن " تدل على أنه كان قبل ذلك "الآن " ينسب إلى البويطى وهو المؤلف الأصيل .

ثانيًا : فصول الكتاب لا تمضى فيها الرواية على وتيرة واحدة ، ففى أحيان كثيرة تجرى عبارة "قال الشافعى رحمه الله " أو رضى الله عنه ، وفى بعض الأحيان تجىء عبارة حدثنا الربيع بن سليمان قال أخبرنا الشافعى إملاءً" وفى بعض العبارات يقول المؤلف "سألت الشافعى عن كيت وكيت .

وفى اختلاف هذه العبارات دليل على أن مؤلف الكتاب جمع ما أثر عن الشافعى فى أبواب الفقه ، وما سمعه منه إملاء وما سأل عنه بنفسه فأجابه الشافعى عما سأل .

وقليل من حسن الفهم يكفى للاقتناع بأن هذا المنهج يدل على أن كتاب الأم وضع بعد وفاة الشافعى ولا سيما إذا لاحظنا أن أيام الشافعى بمصر كانت قصيرة بحيث لا تتسع لجمع كتاب تتوغل فيه أساليب النقل والاستقصاء ، ولا ننسى أن كلمة "رحمه الله " يكررها المصنف فى أكثر الأبواب وهى كلمة لها دلالة على كل حال .

الأدب النسائى الحديث

المرأة المصرية تقتحم الحياة الفكرية

كان أستاذنا الشيخ محمد المهدى - طيب الله ثراه - يعجب من قلة العناية بتدوين أدب النساء ، ويرى أن حملة الأدب ورواة الشعر جاروا سائر الناس فى استصغار شأن المرأة [1] .

وحجة أستاذنا المهدى أن أبا زيد القرشى اختار تسعا وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم يجئ فيها بواحدة لامرأة ، لا من الجاهلية ولا من الإسلام ، والمفضليات وعدتها مائة وعشرون قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة أبيات لامرأة مجهولة من بنى حنيفة .

والواقع أن علماء الأدب لم يغفلوا الأدب النسائى إغفالاً تامًا ، ولكنهم مع اهتمامهم به لم يذكروه إلا فى مجال التندر ومطارح الأسمار .

دين المرأة على الأدب :

إن من الحق أن الأدب مدين للمرأة ، لأنها فى بعض نواحيها مخلوق طريف يوحى إلى الرجل أشرف العواطف وأجزل الآراء ، ولا يكاد رجل يتكلم إلا فى خياله طيف

(١) مقتطفات من مقال للدكتور / زكى مبارك على صفحات مجلة الهلال فى ديسمبر ١٩٣٥ .

امرأة ساجية الطرف مصقولة الذوق معسولة الحديث ، والرجل الذى لا تسوقه المرأة إلى ميادين المجد يمشى إلى غايته فاتر الجهد خامد الإحساس ، ولكنه مع عرفانه بفضل المرأة يتجنى عليها وهو عامد لأن فطرته تفرض عليه القسوة ويكاد يؤمن بأنه لا يجمل فى عينى المرأة إلا إذا تسلح بالعنف .

تلك فطرة الرجل وفطرة المرأة ، فليقم التاريخ على أساس هذه الفطرة وليكن فيه ظالم ومظلوم ليصح له الانسجام الذى ينشده أهل الآداب والفنون .

وبالرغم من هذا كله نشعر بأننا مضطرون إلى الاعتراف بقوة الأدب النسائى فى العصر الحديث ولن نملك من التجاهل ما كان يملك رواة الأدب فى الأعصر الخالية، لأن النساء فى الأدب القديم لم يكن لهن من وسائل الدعاية ، ما يملك نساء العصر الحديث، فالتجنى على الأدب النسائى لم يعد فى طاقة الباحث الأمين ، لأن المرأة تطل عليه من جميع النوافذ فلها فى كل مدرسة مقعد ولها فى كل جريدة مكتب ولها فى كل ناد مكان .

باحثة البادية :

أظهر الشخصيات التى أقامت قواعد الأدب النسائى بعد عائشة التيمورية هى المرحومة ملك ناصف "باحثة البادية" ، وكانت امرأة حصيفة معروفة بجزالة الرأى ومتانة الأسلوب ، ولها كتاب جيد اسمه "النسائيات" هو الحجة الباقية على ما تركت تلك المرأة القوية من الأثر البالغ فى الأدب والاجتماع .

ونجاح ملك ناصف فى الكتابة كان من بين المغريات التى دفعت الجنس اللطيف إلى اقتحام ميادين الإنشاء ، ويمكن الحكم بأنها صاحبة الفضل الأكبر فى توجيه النساء إلى احتراف الأدب والتسامى إلى منابر الخطباء .

الآنسة مى :

ثم تجيء عروس الأدب النسائى فى هذا الجيل ، وهى فتاة أعرفها جيداً ، فقد كانت رفيقتى فى الدرس وزميلتى فى طلب الأدب والفلسفة بالجامعة المصرية .

والآنسة مَىْ هذه شخصية صحيحة النسب إلى حواء ، هى شخصية نسائية فى كل شيء قلبها قلب امرأة وعواطفها عواطف امرأة وأسلوبها فى الكتابة والخطابة والحديث أسلوب فتاة خلوب تعرف كيف تغزو الصدور والقلوب ، ومن مزايا هذه الفتاة أنها أدخلت [1] فى النظام الاجتماعى سنة الأندية الأدبية وكان لها فى بيتها ناد يختلف إليه الناس فى مساء الثلاثاء .

السيدة هدى شعراوى :

ثم ماذا ؟ تجيء السيدة هدى شعراوى ، وهذه السيدة لا يمكن إضافتها إلى الشواعر أو الكواكب لأن آثارها الأدبية قليلة جداً ولكن لا مفر من الاعتراف بأنها ترعى النهضة النسائية رعاية قوية ، ولها سلطان أدبى لا يمكن إغفاله فى هذا المجال ، وقد استفادت من الأسفار والرحلات وتركت فى كل بقعة حلت بها آثاراً عطرة لا ينكرها إلا المتحاملون ، وقد اتفق لى مرة أن أدرس النهضات النسائية فى باريس فوجدت للسيدة هدى شعراوى اسماً عالياً هناك ، وعرفت أنها تمثل المرأة المصرية أشرف تمثيل . السيدة هدى شعراوى زعيمة وليست أديبة ، فسلطانها الأدبى لا يصدر عما تكتب وما تؤلف ولكنه يصدر عن الفكرة التى تدعو إليها فى صدق وعنف ، وهى نموذج للمرأة التى تسبق زمانها بأجيال .

---

(١) من يريد المزيد من حديث زكى مبارك عن النادى الأدبى لمىْ وعن معنى اسم مى يعود للمقال.

فتيات الجامعة المصرية :

وبعد كل ما سلف نرى من الحتم أن نشير إلى النهضة النسائية فى المدارس والجرائد والمجلات ، فمنذ عشرين عامًا كنا جميعًا فى الجامعة المصرية من الطلبة الخناشير ولم يكن معنا من الجنس اللطيف إلا فتاة واحدة نرعاها بأبصارنا فى الغدو والرواح ، أما اليوم ففى كليات الجامعة المصرية أســراب من الفــتيات ، وذلك بشير أو نذير بأدب نسائى سيقوى ويعنف بعد حين .

ومنذ عشرين عامًا لم تكن الفتاة ترسل كلمة إلى جريدة إلا وفوق اسمها برقع ، أما اليوم فالفتيات والسيدات يكتبن الصفحات النسائية بلا تهيب ولا استحياء ، وذلك سلطان أدبى لم يكن أحد يفكر فيما سيصل إليه من قوة الضجيج .

كان الأدب النسائى فى بداية أمره مقصوراً على الشئون النسائية ، أما اليوم فهو يقتحم سائر الموضوعات ، وإلا فمن الذى كان يظن أن المتنبى تدرسه فتاة كالذى وقع من الآنسة سهير القلماوى ؟

ومن الذى كان يظن أن الفتاة تنشئ القصائد والأقاصيص لشرح النوازع الوجدانية كالذى يقع من الآنسة جميلة العلايلى ؟

يضاف إلى ذلك الأندية النسائية فى مصر وفلسطين وسورية ولبنان وحلب والعراق وتونس وما إلى هؤلاء من البيئات العربية التى قوى سلطانها واستفحل ، وصار له أعداء وأشياع .

إن المرأة العربية فى هذه الأيام تتوثب ولها نفوذ خطر سيلون الأدب كله بلون جديد، ومن العقل أن نفكر فى مصير هؤلاء الأديبات اللائى احترفن التمثيل والغناء ، فلهن سلطان على العقول والقلوب لا يتجاهله إلا الأغبياء ، ولو كنت أملك الصراحة كلها فى هذا المجال لبينت مالهن فى عالم الدسائس الأدبية ، وشرحت كيف يغزون الأندية والمسارح والملاعب بفنون من الفكر المصقول لا يحسنه الرجال .

كتاب : "اللغة والدين والتقاليد "

اللغة مظهر من مظاهر الأناقة فى الإفصاح، والدين صورة العقيدة التى يحيا بها الناس ، والعادات مظاهر لما تأصل من كريم الشمائل والخلال ؛ فالإنسان المهذب تقوم حياته الأدبية على لسان فصيح ودين حق وعادات كريمة تصل بينه وبين الأقربين من إخوانه فى الوطنية ؛ وقد تسمو فتصل بينه وبين الأبعدين فى الإنسانية .

اللغة فى ذاتها شخصية استقلالية ، فالذى يعبر بلغته يشعر بالقوة وتنطبع نفسه على حب الكرامة والاستقلال.

إذن ما رأيكم فى لغة التعليم ؟

إن التعليم عند المستقلين يجب أن يكون باللغة القومية لغة الآباء والأجداد ، ومن العسير أن نجد فى الدنيا أمة مستقلة تصطنع فى التعليم لغة أجنبية .

أنا أقرر أن لغة التعليم فى كليات الجامعة المصرية يجب أن تكون باللغة العربية، وأقول بصراحة إن اللغة الإنجليزية لم تسد فى كليات الطب والهندسة والعلوم لسبب معقول ، إنهم يزعمون أن اللغة العربية تعوزها المصطلحات العلمية ، وهذا وهم أو هو عجز يستتر بهذا الوهم المصنوع ، فالمصطلحات العلمية لم تكن مما تفردت به الإنجليزية أو الفرنسية ، وإنما هى ألفاظ نحتت نحتا من اليونانية واللاتينية وفى مقدورنا أن نأخذها كما أخذوها بعد أن نصقلها صقل التعريب فتضاف إلى اللغة القومية [1] .

وتعليم العلوم بلغة البلاد يخلق فينا قوى جديدة ويدفعنا إلى الترجمة والتأليف.

---

(١) مقتطفات من صفحات كتاب اللغة والدين والتقاليد والذى صدر أول مرة سنة ١٩٣٦ عن مطبعة عيسى البابى الحلبى ، وصدرت طبعته الثانية عن دار الهلال فى كتاب الهلال سنة ١٩٩٠

إن فقر مصر فى الترجمة والتأليف يقع وزره على رجال الجامعة المصرية ، فلو سلكوا مسلك الحزم والجد وتذكروا أنهم يعيشون فى بلد كان وطن المعارف والعلوم لأقبلوا على لغتهم فاصطفوها وجعلوها لغة التعليم، وأمدوها بكل طارف وتليد، وتسامت همتهم إلى جعلها لغة الشرق فعاشوا بفضلها سادة أعزاء .

إن اللغة العربية من أكبر لغات الشرق، ومصر فى هذا الزمان على رأس الحركة العلمية فى الشرق ولا ينقصها إلا أن تجعل العربية لغة التعليم فى جميع المعاهد ، فتقهر الأساتذة على الترجمة والتأليف ، وتسوقهم سوقًا إلى اجتذاب الأمم الشرقية باسم الأدب الحق ، أدب الفكر والمنطق و الفن الجميل .

كيف ندعى شرف الاستقلال وليس عندنا معجم واحد يسجل تطور اللغة فى العصر الحديث؟.[١] .

إن الرسائل التى تقدم لامتحان الدبلوم والدكتوراه يجب دائمًا أن تكون باللغة القومية ففى جامعة باريس مثلاً لا تقبل الرسالة بغير اللغة الفرنسية ولو كانت فى موضوع يتصل بإحدى اللغات الأجنبية .

أما فى مصر فالأمر بالعكس ، تقدم الرسالة إلى الجامعة المصرية بأى لغة أجنبية بدون اعتراض ولو كانت فى صميم الآداب العربية أو الشريعة الإسلامية.

وقد قاومت هذه البدعة مرات كثيرة فى جريدة البلاغ لأن كلية الحقوق جرت على تقاليد الامتحانات العالية على إيثار تقديم الرسائل بلغة أجنبية، واتفق لها مرة أن قبلت رسالة كتبت باللغة الفرنسية عن الدِّية فى الشريعة الإسلامية .

أيها الناس :

إن اللغة لا تكون من مقومات الاستقلال إلا يوم تشغلنا بمخاوفنا وأمانينا ويوم تصبح من القوة بحيث يكون لها عشاق فى المشرق والمغرب ويوم تطغى فى وطنها وتستطيل فلا يكون لها مزاحم ولا منافس ولا شريك .

---

(١) قدم الكاتب الكبير الأستاذ كمال اللجمى للكتاب فى طبعته الثانية . وكتاب اللغة والدين والتقاليد باعتبارها من مقدمات الاسقلال هو بحث كتبه الأديب الكبير المرحوم الدكتور زكى مبارك منذ أكثر من خمسين عاماً .

لا تكون اللغة العربية من مقومات الاستقلال إلا حين تفى بأغراض الجد والهزل، وتربط أبناءها بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم أوثق رباط ، وسيكون هذا مصير اللغة العربية فى مصر إن صحت العزائم وسلمت النفوس .

وهذا أمل ليس بالبعيد ، فلا تحسبونى من الحالمين .

والدين :

الدين من مقومات الاستقلال ، ولكن أى دين ؟

أهو ذلك الدين الذى يتمثله ناس فى الصلاة والصيام واصطناع شمائل النساك ؟

لا ، لا

الدين الذى يبنى الأمم هو الدين الذى يهتم أهله أولاً وقبل كل شىء بالفضائل الإيجابية .

لا يكفى أيها الناس أن تصلوا وتصوموا وترسلوا لحاكم وتكثروا من التسبيح فهذه فضائل ولكنها فى روحها فضائل فردية .

إن الدين الذى يسند الاستقلال هو الدين الذى صوره الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال :

"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " .

الدين الذى يصون الاستقلال هو الدين الذى يوحى إليك بأن تكون عون أخيك فى المغيب ، هو الدين الذى يفرض عليك الإيمان بأن عرض أخيك هو عرضك وماله هو مالك وهواه هواك .

هو الدين المضمخ بالنفحات الشعرية الذى يوجب عليك أن تفرح لفرح أخيك ، وأن تحزن لحزنه وإن تقطعت بينك وبينه الأسباب .

هو الدين الذى يتمثل به كل فرد من أمتك وكأنه إنسان من أهلك.

هو الدين السمح الكريم الذى تغنى به الرسل والأنبياء .

وهذا الدين الذى نتحدث عنه هو الدين الذى يرفع قواعد الاستقلال وبدونه لا يرفع لأمة بناء .

إن الدين الحق يوصى بدفن الضغائن والحقود، والناس لا يستطيعون التعاون على بناء الوطن إلا إذا استطاعوا التعاون على بناء الإخاء، فانظر أين أنت من إسعاد قومك ، فإن كنت رجلاً يفرح لفرح عدوه ويشجى لشجاه فأنت امرؤ فيك خلق ودين ، وإن كنت لا تفكر إلا فى نفسك فأنت من العصبة الوحشية التى أطال فى ذمها الحكماء.

الدين ثروة قومية وهو عماد من عمد الاستقلال لأنه يصحح ضمير الفرد، والفرد الصحيح الخلق ليس إلا حجراً سليمًا فى بناء القومية.

إن الدين من أهم القوى فى خلق التماسك الاجتماعى ؛ والتماسك الاجتماعى أهم ما يحفظ به بناء الاستقلال [١] .

---

(١) طالب زكى مبارك بأن يكون عندنا معجم يسجل تطور اللغة، وهذا الكلام التقيت به على صفحات هذا الكتاب الذى نشر سنة ١٩٣٦ ، وربما يكون زكى مبارك قد قال هذا الكلام من قبل واليوم فى سنة ٢٠٠٦ جاء مجمع اللغة العربية ليطالب فى مؤتمره الثانى والسبعين بأن يكون له معجم .

عيد اللغة العربية (١)

اخترت هذا الموضوع لأنبه على حقائق أدبية ولغوية واجتماعية أرى فى التنبيه عليها فائدة تنفع الأمة العربية أجزل النفع لأنها تزيد فى ثقتها بوجودها الأدبى ، ولأنها تنير الطريق أمام المهتمين بالوحدة العربية وهى فكرة يمكن تحقيقها بسهولة إن تعاونا على رفع ما يعترضها من العقبات والأشواك .

ولأجل أن يتضح موضوع هذا الحديث أرجو أن تتذكروا ما كنا عليه قبل أعوام قصار لا طوال، فقد كان فى كل قطر عربى جماعة يدعون إلى إيثار اللهجة العامية المحلية فى الخطابة والكتابة والتأليف ، ومع أن هذه الدعوة واهية الأساس فقد كانت تجد سبيلاً إلى بعض الأسماع والأذهان ، وكان العقلاء يخشون أن تنخدع بها الجماهير هنا وهناك .

والدعوة إلى اللهجة العامية المحلية دعوة سهلة القبول لأنها تبشر سامعيها بالإعفاء من تكاليف الفصاحة العربية ؛ وهى تكاليف لا يقوى على حملها غير الأقوياء من أهل البيان .

كانت هذه الدعوة تجد من يسمع وتجد من يجيب ثم خفت صوتها بعد أن جلجل وصلصل عدداً من السنين ، فما الذى أسكت ذلك الصوت؟

يرجع السبب إلى النهضة الأدبية الحديثة التى ظهرت طلائعها فى الديار المصرية والسورية واللبنانية والعراقية ، ولم يكن لهذه النهضة غنى عن لغة قوية تستطيع التعبير عن الدقائق والجلائل من المعانى والأغراض .

---

(١) مجلة الرسالة فى ١٩٤٣/١٢/١٢ .. وهذه مقتطفات من المقال.

عند ذلك انهزمت اللغة العامية لأنها لغة العوام ، والعوام لا يحتاجون إلى لغة غنية لأن مطالبهم فى التعبير لا تزيد عما تحتاج إليه الحياة اليومية فى المنازل والأسواق.

إن اللغة سلاح من الأسلحة وهى فى يد الخـــطيب كالسـيف فى يد المحارب ولا حجة للعاقل أن يدخل الميدان وفى يده سيف مفلول .

يجب أن نقتدى بما تصنع الأمم القوية وهى تفكر فى توحيد اللغة قبل أن تفكر فى توحيد الأقاليم لأن وحدة اللغة هى حجر الأساس فى بناء القومية .

يجب أن تكون للعرب والمسلمين لغة واحدة فى المشارق والمغارب ، لغة يتلاقون عندها كما يتلاقون فى جبل عرفات وكما يتلاقون فى توحيد الله عند الصلوات .

أنا أدعوكم إلى الاحتفال بعيد اللغة العربية فقد انتصرت على أبنائها لا على أعدائها . فما كان للغة العربية أعداء غير أولئك الأبناء.

فى إنجلترا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا إذاعات عربية لا تعرف غير اللغة الفصيحة لأنها تريد أن تخاطب العرب بلغتهم الدولية لا المحلية ، واللغة الفصيحة هى لغة العرب الدولية كما يفهم الأوربيون والأمريكيون وهم أهل الخبرة بطبائع النفوس فى هذا الجيل.

اسمعوا صوت الزمن إن لم تسمعوا صوت الحق واحتفلوا معى بعيد اللغة العربية فى عيد القمر وهو عيد التضحية وعيد الوفاء .

كتاب : الفكر التربوى عند زكى مبارك[1]

يجب أن نروض التلاميذ على حب العلوم والآداب رياضة قوية ؛ رياضة تحقق عندهم الشوق إلى إذا يصيروا من أكابر العلماء والأدباء[2] .

وهذا لايتيسر إلا إن غيرنا الطريقة المتبعة للتدريس في مدارسنا المصرية ؟

وهى طريقة التحفيظ ، إنها طريقة عقيمة لأنها تبدو وكأنها ضرب من التكليف ، وهو فى أجمل صورة غباء فى غباء .

يجب أن نتبع الطريقة المثلى فى التربية وهى طريقة التفهيم[3] .

وعدت قراء البلاغة بتقديم صور صحيحة فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية .. والغرض هو تشريح أحوال المدرسين والتلاميذ من الوجهة النفسية لتكون وزارة المعارف على بينة مما تتطاير به الأهواء فى تلك الأجواء[4] .

---

(١) هذا الكتاب جمع وتقديم وإعداد كريمة زكى مبارك بالاشتراك مع الكاتب العربى السعودى الأستاذ زهير محمد جميل، وقد صدر عن مكتبة مصر سنة ١٩٩٠ ، على نفقة الكاتب زهير محمد جميل كتبى الذى قدم الكتاب بقوله :

إن زكى مبارك يعتبر مدرسة تربوية ذات مزاج مستقل ، انتقدت المريض من الأفكار وحافظت على التراث بكل أصالته وعراقته ومجده ، بل تحدى زكى مبارك كل دخيل على المدرسة الإسلامية التربوية وقاوم كل موروثات التقليد والجمود .

(٢) هذه السطور من على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ أول ديسمبر سنة ١٩٤٥ وهى على صفحات هذا الكتاب تحت عنوان تلميذ المدرسة الثانوية صفحة ١٣٤ .

(٣) الموضوع بكامله على صفحات هذا الكتاب تحت عنوان : "العمل بالحكومة والمدارس" .

(٤) سطور أخذت بتصرف من على صفحات جريدة البلاغ فى ١٩٤٥/١٠/١٠ وهى على صفحات هذا الكتاب (٤) . وقد سجل الكاتب سلامة موسى فى "المجلة الجديدة" أنه كان يجدر بالدكتور زكى مبارك أن يجمع مقالاته التعليمية فى كتاب خاص لتكون نبراساً يهتدى به المعلمون.

وأبدأ بالمدرسة الابتدائية فأقول : إنها مكونة من شخصيتين ، شخصية المدرس وشخصية التلميذ ، فمن هو المدرس فى المدرسة الابتدائية ؟

هو شاب تخرج فى مدرسة دار العلوم أو فى كلية الآداب أو فى كلية العلوم وهؤلاء الشبان لا ينبغى أن يختاروا للتدريس فى المدارس الابتدائية ، ولكن كيف ؟

إليكم أسوق الحديث فاسمعوه متفضلين :

هذا الشاب كان فى السنة النهائية بمدرسة دار العلوم وكان له أساتذة من أمثال الأساتذة محمد عطية هاشم يتلقى عنهم دقائق الأبحاث فى اللغة والأدب والنحو والصرف وقد ظفر بالدبلوم من مدرسة دار العلوم فمضى إلى أهله فى نشوة روحية ، وهل من القليل أن يظفر شاب بدبلوم دار المعلمين ؟

ولكن العقدة النفسية تصورها الأسطر الآتية :

هذا الشاب المتوثب الطموح تعينه الوزارة فى مدرسة ابتدائية ليحاور تلاميذه بهذه الصورة الطريفة :

المدرس : قل يا شاطر : قطع محمود الغصن .

التلميذ : قطع محمود الغصن .

المدرس : من الذى قطع الغصن ؟

التلميذ : الذى قطع الغصن هو محمود .

المدرس : والغصن ياشاطر .

التلميذ : هو المقطوع .

المدرس اسمع ياشاطر : إذا كان محمود هو الذى قطع الغصن فهو الفاعل ، وإذا كان الغصن هو المقطوع فهو المفعول به .

اسمعوا يا رجال المعارف إن هذا الشاب يشعر بخيبة الأمل حين ينتقل من تحقيق الخلاف بين البصريين والكوفيين إلى تحقيق الخلاف بين محمود الذى قطع الغصن والغصن المقطوع ، مع أن محمود لم يقطع الغصن إنما هى إشاعة وهمية .

ولهذا يدخل المدرسة بلا قلب وبلا نفس وبلا روح .

أنا أقترح أن يعين الشبان المتخرجون من مدرسة دار العلوم فى المدارس الثانوية ليجدوا تلاميذ يفقهون عنهم بعض ما تعلموه عن أساتذتهم المتفوقين .

إن وزارة المعارف تخطئ حين تجعل الترقية متمشية مع الانتقال من الابتدائى إلى الثانوى ، والصواب أن تكون الترقية متمشية مع كفاءة المدرس ولو كان فى مدرسة أولية ، فبهذا نضمن وجود مدرسين يرتاحون إلى التعليم بالمدارس الابتدائية وهى أساس البناء فى الحياة التعليمية .

تمهيد[١] :

تلاميذ المدارس الثانوية يكرهون علم النحو وعلم الصرف ، ولو شئت لقلت إن صدورهم تضيق بدروس اللغة العربية ، فما هى الأسباب ؟

ترجع الأسباب فى جملتها إلى أن وزارة المعارف ترى أن كل من يحمل إجازة دار العلوم جدير بأن يُدَرِّس من مواد اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وأدب وإنشاء .

وقد اعترضت على ذلك يوم كنت مفتشًا بالتعليم الثانوى ، واقترحت على مكتب التفتيش أن يراعى مواهب المدرسين ، فهناك مدرس يميل إلى علم النحو ومدرس يميل إلى علم الصرف ومدرس يميل إلى علم الآداب ومدرس يميل إلى تعليم الإنشاء .

وما اقترحته على مكتب التفتيش أخذته من حياتى ، ففى الأعوام التى قضيتها مدرسًا بكلية الآداب كنت أختار تدريس علم الصرف عند تقسيم الدروس مع أن تدريس الآداب سهل فلى كثير من المؤلفات ، ولكن كنت أريد أن أجذب الطلاب إلى علم الصرف - لأنه هندسة اللغة العربية .

---

(١) البلاغ فى ١٩٤٦/٧/١

فهل تراعى هذا التوجيه مدارسنا المصرية فتنشئ منصب "مدرس المادة" فى كل مدرسة بحيث تكون مواهب المدرس هى الأساس فيما يتولاه من مواد التدريس ؟

إن مدرس اللغة العربية يستطيع إذا كان من أصحاب المواهب أن يضع فى صدور تلاميذه بذور الشوق إلى المشاركة الجدية فى الحياة الأدبية والفنية والاجتماعية، وفى مقدوره إن أخلص لواجبه أن يدفع تلاميذه دفعًا إلى رحاب الواجب فى خدمة الوطن الغالى وهو يستطيع أن يخلق منهم رجالاً يفرقون بين المعانى الوطنية والمعانى الإنسانية بحيث يصبحون فيما بعد من دعائم الحياة القومية[1] .

إن الغاية التى تبذلونها فى إلقاء الدروس تعدى تلاميذكم بالجد والنشاط ، وتروضهم على النظام وتغريهم بحب التفهم لما يسمعون وما يقرأون ، وأنتم القدوة الصحيحة للتلاميذ ، فاحذروا أن تعدوهم بالضجر واليأس .

وتذكروا دائمًا أن المدرس المنشرح الصدر المبتهج النفس هو وحده الذى يقدر على جعل المدرسة أحب إلى التلميذ من كل مكان ؛ ففى الدنيا متاعب كثيرة تنتظر رجال الغد من تلاميذكم ، فأعطوهم من ذخائر الأمل والبهجة ما يدفعون به متاعب الحياة فى الأيام المقبلات ، والله كفيل بالتوفيق .

---

(١) صفحة ١١ من الكتاب .

كتاب : ملامح دينية

بقلم : زكى مبارك[1]

صورة إسلامية[2] :

فى أحد أيام صيف ١٩٣٨ – وكنت ضيف العراق – أطلعنى السيد صادق الوكيل رحمه الله على قصة صدرت فى بيروت تسمى "خطيئة الشيخ" فما أذكر اسمها بالضبط ولعل إحدى المكاتب ترسلها بالثمن محولا على البريد فأعرف ما فيها من مقاصد وأغراض .

أخذ السيد صادق الوكيل يقرأ من تلك القصة صفحات معينة ، وهى الصفحات التى يشرح فيها المؤلف كيفية الوضوء وكيفية الصلاة بصورة مزج فيها القصص بالتعليم ، ثم عقب : ترضينى هذه الطريقة فأنا أخشى أن يجىء يوم ننسى فيه كيفية الوضوء وكيفية الصلاة .

وفى صيف سنة ١٩٣٩ قضيت أيامًا فى الإسكندرية لأستكمل الصور المنشودة لكتاب "أدب الشواطئ" وهو كتاب صرفتنى عنه ظروف الحرب أو صرفنى عنه إفقار الشواطئ من احتراب العيون والقلوب ، وسأرجع إلى اتمامه ونشره يوم يرجع الأمان إلى صدر الزمان .

وأوجه الغرض من هذه الكلمة وأقول :

---

(١) كتاب ملامح دينية بقلم زكى مبارك صدر عن دار الشعب سنة ١٩٩٠ .

(٢) هذه الكلمة صفحة ٩٩ من الكتاب وهى على صفحات مجلة الرسالة فى العدد ٤٦٩ بتاريخ ١٩٤٢/٦/٢٩ .

فى ساحة الفنون بالشاطئ الإسكندرى لقينى الشيخ محمد أبو العيون وهو أزهرى طيب القلب جدا وقد تهم حين تراه بأن تسأله الدعاء على قلة هذا النوع فى هذا الجيل ، وإنى لأرجو أن يتفضل فيذكرنى بالدعوات الصالحات حين أخطر فى البال .

كنت أمتع عينى بأحد ملاعب "التنس" فى الشاطئ حين لقينى الشيخ محمد أبو العيون ، وللملاعب التنس فوق الشاطئ الإسكندرى جاذبية تفوق الوصف ، ولكن قدوم هذا الشيخ الصالح صدنى عن ذلك النعيم وأشعرنى أن للتقوى جاذبية رائعة ، وأن النظر فى وجه الرجل العابد يوحى من الشعر مالا يوحيه النظر فى طلعة البدر الوهاج .

ولم يكن بد من صحبة هذا الشيخ فى ذلك الوقت وكانت الشمس تتأهب للاستحمام ، وهى تستحم فى البحر كل يوم قبل الغروب ، ولعل هذا هو السبب فى أن جسمها خالد الإشراق .

هل يضايقك أن نتعشى معًا يا حضرة الدكتور ؟

أنا لا أتناول طعاماً بالليل ويكفى أن أكون فى ضيافتك الروحية .

تعالَ معى إلى الفندق فهنالك مشكلة ينفع فى حلها تعاون الرفاق .

وما تلك المشكلة ؟

خادم بالفندق يرفض أن يتعلم كيفية الوضوء وكيفية الصلاة مع أنى عرضت عليه خمسة قروش ولو أنه استزادنى لزدته ولكنه يرفض .

مضينا معًا إلى الفندق لحل تلك المشكلة وأنا أبتسم ابتسامة تخفى على الشيخ فمن المضحك أن يفكر رواد الشواطئ فى تعليم خدمة الفنادق كيفية الوضوء وكيفية الصلاة .

أخذ الشيخ يعلم الفتى كيفية الوضوء بإيجاز ، وكان الموقف فى جملته من غرائب المضحكات لأن قروش الشيخ وقروشى جعلت الفتى من المأجورين ، ولا قيمة لعبادة يكون جزاؤها بأيدى الناس .

كان الفتى يضحك ويلعب .. ثم تغير وجهه فجأة فصار فى خشوع النساك واحتجزنا ساعتين لنعلمه سائر الفروض الإسلامية ، ولم يفته أن يرد القروش التى أخذها من الشيخ والقروش التى أخذها منى ، برغم الإلحاح فى قبول الهدية، وكانت حجته أنه قضى فى صحبتنا لحظات هى أثمن وأنفس من أطايب الأموال .

وفى الأسبوع الماضى زرت الإسكندرية لبعض الشئون فراعنى أن أجد فتى يهجم على يدى فيقبلها بحرارة وشوق ثم يسألنى الدعاء ، وهو الفتى نفسه الذى علمناه كيف يصلى وكيف يصوم .

هلال شعبان وهلال رمضان[١] :

فى الأشعار الشعبية التى تقص أخبار الزناتى خليفة وأبى زيد الهلالى يوصف الوجه الجميل بأنه كهلال شعبان ، وقد التفتُ إلى هذا المعنى مرات كثيرة فرأيت هلال شعبان يبدو غاية فى الإشراق بصورة مميزة عن سائر الشهور وتجعله هلال شعبان بلا جدال ، فهل يتفضل الفلكيون بتعليل هذه الظاهرة الطبيعية ؟ وقد أدركت الجماهير آثارها منذ أزمان ودونوها فى أشعارهم الشعبية بدون تفكير فى علتها الأساسية .

أما هلال رمضان فهو فى أغلب أحواله نحيل وينبنى على نحوله أن تراه عيون ويغيم على عيون بحيث يجوز أن يصوم المصريون فى يوم الأحد ويصوم العراقيون فى يوم الاثنين والتونسيون فى يوم الثلاثاء كالذى وقع منذ بضع سنين .

فما الحكمة فى نحول هلال رمضان ؟

إن راعينا الحساب الذى يجريه الفلكيون فالهلال يولد فى وقت واحد ، بلا تفريق بين هذا القطر وذاك ، وإن راعينا "الرؤية" فهى تختلف فى القطر الواحد ، وقد صمنا مرة ثم أفطرنا ثم صمنا ، وكان لذلك حديث بين الشيخ سليم البشرى والسلطان حسين ، وهذا شاهد على نحول هلال رمضان .

وفى حل هذه المشكلة رأى قوم أن نعتمد على الحساب لا على الرؤية لنتقى شر الخلاف حول بداية الصوم ، وهو فى بعض مظاهره من المضحكات .

---

(١) وهذه الكلمة صفحة ٩٦ من الكتاب وهى على صفحات مجلة الرسالة فى العدد ٩١ فى سبتمبر سنة ١٩٤٢ .

ولكن الحساب فى هذه السنة كان محرجًا فهو يقول بأن هلال رمضان يمكث دقيقة واحدة بعد غروب شمس التاسع والعشرين من شعبان "وما دقيقة واحدة يمكث فيها الهلال بعد الغروب ثم يغيب ؟

أمن أجل دقيقة واحدة نقطع ما بين الفجر والمغرب صائمين بدون تكليف من الشرع الشريف ؟

لا ، الرؤية هى الأساس وهى أيضًا الشاهد على أن الإسلام يبنى قواعده على أصول لا تحتمل الشك والافتراء ، أصول يستوى فى إدراكها العوام والخواص .

وهنا تظهر الحكمة الحقيقية لاشتراط الرؤية فى ثبوت هلال رمضان .

تقليد جميل :

قالت إحدى الجرائد إن المحكمة الشرعية جرت على العادة التقليدية فى ثبوت الرؤيا فصنعت كيت وكيت .

وأقول إن هذا تقليد جميل ويعز علىّ أن تضعف مظاهره من عام إلى عام ، فلا نرى "موكب الرؤية" فى الفخامة التى شهدها الآباء والأجداد .

هذا الموكب هو "التهيؤ" لاستقبال شهر الصيام ، وهذا التهيؤ هو فى ذاته قربان من أعظم القرابين ، وهو يعد النفوس لروحانية هذا الشهر الجليل .

أتذكرون اختلاف الفقهاء فى صحة الصيام لمن فاته أن ينوى الصيام ؟

هذا دليل على أن النية هى الأساس فى جميع الأعمال الأخلاقية والنية رياضة تقوى بها عضلات النفوس ، والنفوس كالأجسام لها جوارح وعضلات وأعضاء ولكن أكثر الناس لا يفقهون .

آداب إسلامية :

إن مـن يقـرأ كتـب الفقـه الإسـلامى يعجب من ترفق الإسلام بالصائمين فهو لا يفرض الصوم على من يتأذى بالصوم لسبب من الأسباب ، ثم يفتح له باب التحرر من تلك الفريضة بتعويض خفيف تقدر عليه أكثر الجيوب ، وهو الجود بصدقات ينتفع بها بعض الفقراء والمساكين .

فإن عجزت عن الصوم فتصدق ، وأنا أومن بأن الله يجزى المتصدقين أضعاف ما يجـزى الصـائمين ، لأن الجـود بالمـال يحـتـاج إلى عزيمة دونها عـزيمة الإمساك عن الطعام والشراب .

ومع هذا فلا يجوز لك الخروج عن آداب الصيام بحجة الاعتصام بالصـدقات ، فما يخرج على آداب الصيام غير السفهاء .

وإن استطعت أن تصـوم وأن تتصـدق فتلك غـاية لا يتسـامى إليـها غـير عظمـاء المؤمنين .

المهم هو أن تكون لك نية في جميع أفعالك ، فتصوم عن نية وتفطر عن نية ، المهم هو أن تحـفظ أدبك مع الله الذى ترفق بك فلم يكلفك مـالا تطيق ، كن رجلاً فى إيمانك ليجعلك الله أحد عظماء الرجال .

كتاب : الفكر الدينى عند زكى مبارك

أيها السادة[1] :

نحن فى ضيافة القرآن فما الذى نجده على مائدة القرآن ؟

نجد الأعاجيب من أطايب العقل والوجدان .. وإلا فكيف اتفق أن يثنى القرآن على جميع الأنبياء والمرسلين ، ولكن أى ثناء ؟

إن النصارى لم يمجدو المسيح بمثل ما مجده القرآن .

واليهود لم يثنوا على موسى بمثل الذى أثنى عليه القرآن .

والشرائع القديمة لم تحفظ ذكرياتها الطيبات إلا بفضل القرآن .

فكيف صح للرجل الذى اسمه محمد أن يزكى منافسيه من الأنبياء والمرسلين ؟

---

(١) طبع هذا الكتاب سنة ٢٠٠١، ونشر فى مكتبة سعيد جودة السحار بالفجالة ، وقد طبع على نفقة صاحب السمو السيد فيصل بن على بن فيصل آل سعيد وزير التراث والثقافة بسلطنة عمان . ومما قاله صاحب السمو السيد فيصل :

" أبادر بالقول إن ما يضمه الكتاب بين دفتيه لهو مجموعة قيمة تبرهن على العقيدة الراسخة عند الأديب والمفكر الراحل من مضامين القرآن الكريم وحكمه وإرشاداته .. وهذا لعمرى باب من أبواب المعرفة يجب على أبناء الجيل الراهن ولوجه والاستفادة منه "

وكتب الافتتاحية الأستاذ مال الله بن على حبيب اللواتى ، وكان مما قاله :

إن من يقرأ زكى مبارك يشده إلى ما يقرأ عنوية أسلوبه المتميز بدقة الوصف وسلامة التعبير ، وأكثر ما يتجلى فى كتاباته تمسكه بالقيم والمبادئ التى يؤمن بها .

ويلمس القارئ مدى استيعاب أديبنا الراحل لمضامين القرآن الجليلة .. ولعلنى لا أجانب الحقيقة لو قلت بأن جمال اللفظ وبلاغة التعبير التى تتسم بها كتاباته قد اكتسبها من صلته الوثيقة بالقرآن ، ولا غرو فى ذلك طالما أن القرآن بحد ذاته نزل معجزة بلاغية بهرت بلغاء الحجاز فى عهد الرسول ﷺ وما فتئت تبهر البلغاء والفصحاء والعرب إلى يومنا هذا ؟

كيف صح لهذا الرجل أن ينسى أول حقيقة فى حياة المجتمع ، وهى السخرية من جميع المبادئ ليتم له التفرد بالعظمة النبوية ؟

هـنا تظهر بـارقـة من النور تشهد بأن هذا الرجل لم يكن طالب صيد، وإنما كان نبياً .

ارجعوا إلى القرآن أيها السادة تجدوه لا يفرق بين أحد من الأنبياء، وعندئذ تؤمنون بأن محمداً لم يبن مجده على أنقاض الشرائع .

ارجعوا إلى التاريخ أيها السادة وانظروا كيف صنع من سموا أنفسهم مصلحين .

اقرأوا تواريخ المسيطرين وانظروا كيف كانوا يمحون آثار من سبقوهم بلا ترفق .

استنطقوا الآثار فى الشرق والغرب ، وانظروا كيف كان الملوك ينكرون فضل آبائهم[1] .

ارجعوا إلى ماضيكم القريب مع إخوانكم وأصدقائكم تجدوهم سلقوكم بألسنة حداد .

انظروا كيف ينسى الأخ فضل أخيه وكيف يعق الابن أباه .

انظروا وتأملوا ثم تذكروا كيف صح للرجل الذى اسمه محمد أن يقيم كتابه على تمجيد من سبقوه إلى الإيمان .

نشأ النبى محمد فى بيئة وثنية فصعب عليه أن يهدى قومه بالمنطق إلى طريق الحق[2] .

وكان منافسوه من رهبان النصارى وأحبار اليهود يعيرونه بالعجز عن خلق آية تشهد بأنه رسول .

---

(١) مقطفات من محاضرة ألقيت فى محطة الإذاعة العراقية فى ليلة المولد النبوى سنة ١٩٣٧ وغيرها صفحة ٦٩ على هذا الكتاب .

(٢) مقتطفات من مقال على صفحات مجلة الرسالة فى ١٩٤٣/١١/١٥ تحت عنوان : محمد القائد الأول فى الفكر الإنسانى ، والمقال صفحة ٣١ من هذا الكتاب .

وقد حار النبي محمد في إقناع خصومه بأن الآيات من عند الله، وأنه لا يملك تبديل الأنظمة الوجودية لأنها من صنع واجب الوجود .

وفي يوم من أيام الارتياب مات ابنه إبراهيم ، وفي ذلك اليوم كسفت الشمس فأقبل أعداؤه مبايعين لأنهم وثقوا بأن الشمس لم تكسف إلا حزنًا على موت ابن الرسول ... عند ذلك تعرض لمحنة أخلاقية فهو بين أمرين :

الأمر الأول أن يستغل جهل معاصريه فيوافق على أن الشمس كسفت لموت ابنه إبراهيم فيكون من أكابر الأنبياء ، والأمر الثاني أن يصدع لكلمة الحق ولو تعرضت نبوته للضياع .

وقف محمد ينادى بأن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وأنهما لا يتأثران بمؤثر ولو كان من الأنبياء .

فى تلك اللحظة تناظر أصدقاء محمد عاتبين فقد ضاعت فرصة لا ينتظرون أن تعود .

ولكن محمداً لا يبالى غضب أصدقائه إذا خاصموا الصدق .

ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أقول إن محمداً هو القائد الأول فى الفكر الإنسانى بهذه اللمحة الواحدة بغض النظر عما تبعها ولحقها من تبعات .

وإذن يكون القائد الأول فى الفكر الإنسانى هو محمد[١] .

---

(١) ص ١٩٠ من الكتاب ، وهى من على صفحات كتاب البدائع فى الجزء الأول .

إلغاء الدراسات الإسلامية من جامعة إستامبول:

فى عرف الدول قانون مصنوع اسمه "حق الفتح" فلنعرف اليوم أنه جد قانون جديد اسمه "حق النصر" فالفاتح يصنع ما يشاء والمنتصر يفعل ما يريد .

وحق النصر يطبق فى تركيا الكمالية كل التطبيق بلا مرعاة للقواعد والأصول ونحن لا ننكر أن مصطفى كمال انتصر بفضل الحزم والجد وقوة المراس والصبر على مقارعة الخطوب ، فله منا كل حمد وثناء ، ولكن هذا لا يمنع أن ننظر إلى بعض تصرفاته العلمية والاجتماعية نظراً كان خليقًا بأن ينظر مثله لو وقف مثلنا موقف الناقد الذى يرقب الحوادث بدون أن يكون له فيها هوى خاص .

إن هذا الرجل المنتصر يريد مجاراة أوربا فى كل شىء ، لأن أوربا عنده هى النموذج وهى المثال ، ولكنه يسرف فى مجاراتها كل الإسراف ، فإن الأمم الأوروبية لم تفكر جدياً فى تخليص لغتها من الألفاظ اليونانية والعربية ، أما هذا الرجل الذى أطغاه النصر فيسعى جاهداً لتخليص اللغة التركية من جميع الألفاظ العربية والفارسية ، وينسى أنه يشل لغته بهذه الوثبة الجامحة ، فإن اللغة المصنوعة لا تعبر عن أصحابها كما تعبر اللغة التى احتلت أذهان الناس وعقولهم منذ أزمان .

وقد حدثنا من نثق بروايته أن كبار الحكام فى تركيا يحفظون من تقاريرهم نسخًا سرية مكتوبة بحروف عربية لأن الحروف اللاتينية لم يمض عليها من الزمن ما يربطها بالألفاظ التركية ربطًا وثيقًا كالذى كانت ترتبط به وهى حروف عربية ، فإذا كان هذا خط ما يكتب بحروف لاتينية فكيف يكون حال لغة تفصل منها ألوف من ألفاظها الحية لتحل محلها ألفاظ ماتت منذ عهود طوال ؟

أما البدعة الجديدة فهى إلغاء الدراسات الإسلامية من جامعة إستامبول ، وهى بدعة من جميع النواحى ، فإن أمم أوروبا تهتم فى جامعاتها بالدراسات الإسلامية بحجة أن الإسلام دين لكثير من الشعوب ، وأنه لا يصح بالرجل العالم أن يجهل ديناً يدين به ثلاثمائة مليون .

إن مصطفى كمال لن يستطيع مطلقًا أن يطارد الإسلام فى البلاد التركية ، فكيف جاز له وهو رجل خبير بأهواء الشعوب أن يطبع شباب تركيا على غرار مدنى صرف ، وهو يعلم أن فى دمائهم قوى إسلامية تجيش وتضطرم وإن تجاهل المسيطرون ؟!

من حق مصطفى كمال أن يحارب المتخلفين عن العلم والمدنية من رجال الدين ولكن من الخطر أن يتجاهل الدين نفسة تجاهلاً تاماً، وأن يتوهم أن الدين ولى زمانه وزال .

لقد سمعنا أن بطل تركيا يصم أذنيه عن النقد ولو كان صحيحاً ولكن المخلصين للعزة الإسلامية لا يملكون كتمان الحق ، ويرون أن رياضة شبان تركيا على فهم أصول الدين فهما صحيحاً تسمو بهم إلى آفاق من المجد والكرامة والنبل .

عندما يوافينى الموت(*)

هذا موضوع مزعج ولكنه طريف ، والموت نفسه طريف لأننا لا نراه إلا مرة واحدة ؛ نحن الشجعان ، أما الجبناء فيرونه فى كل يوم مرات[1].

ماذا أقول حين يوافينى الموت ؟

سأذكر يوم أموت أننى كنت أوفى صاحب وأكرم صديق ، فما جاملنى إنسان إلاسقيته الشهد وظللته بسحائب العطف وأغدقت عليه نمير البر والحنان[2] .

سأذكر أننى أديت واجبًا مهمًا حين حذرت الناس من الناس ، فأنا من أكثر الكتاب حديثًا عما يعتور بنى آدم من الغدر والعقوق ، وسيذكر الناس ماكتبت وما نظمت ، فإن لم يقرأوا رسائلى وأشعارى فلأمهاتهم الثكلى ، ولأبنائهم اليتم ، ولأزواجهم الإرمال !

وسأذكر يوم أموت أنى كنت غصة فى حلوق الأدعياء ، فما تركت دعيًا إلا كويت جبينه وأقذيت عينيه وأنمته على الشوك فى رعاية الأفاعى والصلال .

ومن يدريكم لعلى أجد "وظيفة" فى جهنم بعد أن أموت ؟!

فإن وصلت إلى " وظيفة" فى جهنم فسترون وتعلمون ؛ سترون يا بنى آدم كيف أكبكم على وجهوهكم فى النار ؛

فأعاقب اللصوص فى عالم الشعر والنثر والتأليف وستعلمون كيف أنتقم من السفهاء الذين يكذبون ويفترون ويظلمون بلا تورع ولا استحياء .

(*) مجلة الهلال فى ١٩٣٦/١٢/١

(١) قبل كلمة زكى مبارك ، نشرت جريدة الهلال عدة أسطر بإمضاء محرر الهلال حيث قال : كلنا يحذر الموت ويخشاه وكلنا يندب الميت ويبكيه ، أما من شبع من الدنيا وارتوى من حلوها ومرها وأدى واجبه، وبلغ رسالته فإنه يقبل على الموت فرحًا مغتبطًا راغبًا مشغوفًا ، كما سوف يقبل عليه الدكتور زكى مبارك بعد عمر طويل عريض – إن شاء الله – على رأى ابن سينا .

(٢) هذه فقط بعض سطور من مقال زكى مبارك .

الدكتور زكى مبارك لن يموت(*)

قرأت الدعابة الطريفة التى نشرها الدكتور إبراهيم عبده فى العدد الممتاز من مجلة الاثنين الصادر فى أول أبريل فتذكرت أشياء وقعت فى "الأباريل" الماضية[1] ؛ أشياء كانت أجمل ما وقع فى حياتى وهى أسرار مجدى فى حياتى .

ففى شهر أبريل من سنة ١٩٢٤ تقرر قبول الرسالة التى قدمتها للظفر بالدكتوراه فى الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة ، وكانت نتيجة المناقشة العلنية بعد ذلك درجة جيد جدا[2] .

وفى اليوم الخامس والعشرين من أبريل سنة ١٩٣١ ظفرت بالدكتوراه فى الآداب من جامعة باريس بعد مناقشة علنية دامت ثلاث ساعات بدرجة مشرف جداً[3] .

وفى اليوم الرابع من أبريل سنة ١٩٣٧ ظفرت بالدكتوراه فى الفلسفة مع مرتبة الشرف فى الجامعة المصرية الجديدة جامعة فؤاد الأول[4] .

وفى اليوم الأول من أبريل ، ١٩٤٥ نعانى الناعى مداعباً فى مجلة الاثنين .

وما هو الموت ؟ وما هو تكريم الأموات[5] ؟

(*) مجلة الاثنين والدنيا فى ١٩٤٥/٤/٩

(١) الدكتور إبراهيم عبده هو صاحب المقالات المشهورة فى ذلك .. الوقت بعنوان : خدعوك فقالوا .

(٢) كانت الرسالة عن : الأخلاق عند الغزالى .

(٣) كان موضوع الرسالة : "النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى" وهى دكتوراه دولة .

(٤) كان موضوع الرسالة "التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق" .

(٥) نقلت فقط بعض السطور من كلمة زكى مبارك .

إن كان الموت أن ينهدم جسمى يوماً فهذا سيقع وإن كان الموت أن آرائى ستموت فذلك أكذوبة من أظرف الأكاذيب ، فآرائى ستسيطر على الناس إلى آخر الزمان .

قد أموت ، فما هى وصيتى إلى أبنائى ؟

وصيتى إليهم أن يتخلقوا بأخلاقى العلمية .

زكى مبارك

أول دكتور فلسفة من الجامعة المصرية القديمة

وأول دكتور فلسفة من الجامعة المصرية الجديدة

وأول حائز لدبلوم الدراسات العليا من مدرسة اللغات فى باريس

شباب الأدب وشيخوخته
هل يهرم الأدب بهرم الأدباء ؟

للأدب شبابه وشيخوخته كسائر الأحياء وهو خليق بأن يكون أمة وحده فيتمتع بالقوة والفتوة ويقاسى آلام الضعف والهزال كما يتفق ذلك للأفراد والشعوب[١].

فالمؤلف الفتى يدفعك إلى ميادين المغامرة ويثير فيك التطلع إلى استكشاف المجهول .

والمؤلف الشيخ يقنعك بأن الدنيا لم يبق فيها خير، وأن الحياة ليست إلا مسغبة يفترس فيها كرام النفوس وأن التقوى توجب التحرز من جميع الناس .

الأدب صورة النفس ؛ وهو يختلف قوة وضعفًا باختلاف النفوس والقلوب ، فقلب الفتى ينتج أدبًا فتيًا ، والقلب الكهل ينتج أدبًا كهلاً ، وإليكم بعض البيان :

أكثر الشعراء يبدأون حياتهم بالتشبيب لأن النفس تتفتح على أزهار الحسن والصباحة والجمال ، ومتعة الإحساس هي أول ما تقع عليه العيون .

ولكن من هو الفتى ومن هول الكهل ؟

أعيذكم أن تلجأوا إلى السنين والحساب ، هيهات هيهات ، ففى الدنيا فتيان لم يتجاوزوا العشرين ولكنهم يعيشون بقلوب هرمة أضناها الضعف وأضناها الهزال .

---

(١) مقتطفات من مقال الأديب زكى مبارك على صفحات الهلال بتاريخ ١٩٣٦/١/١، والمقال به الكثير من الأمثلة فمن يحب المزيد يعود للمقال .

وفى الدنيا شيوخ جاوزوا الستين ولكنهم يعيشون بقلوب معمورة بالبأس والفتوة والشيطنة والاعتزام .

ومن أمثال الفرنسيين : "لاتسأل عن سنى ولكن اسأل عن عمر قلبى" .

إن شباب الأدب يتبع شباب الأدباء ، وإن شيخوخة الأدب تتبع شيخوخة الأدباء .. ومنذ أجيال طوال قال أبو نواس :

قالوا كبرت فقلت ما كبرت يدى عن أن تمد إلى فمى بالكاس

فالأديب الشاب هو الذى تحيا عواطفه وحواسه حياة الفتوة . والأديب الكهل هو الذى تعيش غرائزه ومشاعره عيش الكهولة ، وبين هذين العهدين ألوف من النوازع يدرك ألوانها علماء النفوس .

وقد رأينا ناساً يبدأون حياتهم بالتنسك ويختمونها بالفتك ، ورأينا رجالاً يبدأون حياتهم بالعنف ويختمونها باللين ، وإنما كان ذلك لأننا لا نملك من أمور حياتنا إلا قليلاً؛ وإلا فكيف اتفق لبعض النساك أن يقضى صدر حياته فى الزهد والتنسك ثم تقضى عليه الأقدار بأن يقع فى حبال إحدى القيان فينتقل من حال إلى حال ويقول :

قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها فاعجب لما تقضى به الأيام

فاليوم أعذرهم وأعلم إنما طرق الضلالة والهدى أقسام

ومن أجل هذا لا تعجبوا حين ترون صورة أدبية مكتهلة تصدر عن أديب شاب ، أو صورة فتية تصدر عن أديب كهل ، فنحن جميعاً أسرى الحوادث وقد ينقضى عهد الشباب فى هدوء ثم تجد أخطاراً يبعثها الحب فيتحول الكهل إلى أتون مستعرلا يحد شواظه تماسك ولا يصد أوامره عقل ولا يوقف تياره استحياء .

كان للمعرى أدب فى شبابه وأدب فى شيخوخته ، أما أبو نواس فلم يُعرف إلا بأدب الشباب، لأن دنياه فرح ولهو وفتون فانطلق فى أودية البيان كيف شاء وخلف الخمريات التى تعد من أنفس الذخائر فى الأدب العربى .

ولنقترب من عصرنا فنقول :

كان حافظ إبراهيم أقوى من تغنى بشعر الوطنية وهو شاب ، وكانت قصائده على ألسنة الناس ، وكان اسمه ملء المسامع .

ثم اختطفته الحكومة فألهته بوظيفة فى دار الكتب المصرية فسكت زمانا طويلاً ، ثم فتح عينيه فرأى نفسه أحيل على المعاش فعاد ينظم قصائد الوطنية ولكن هيهات والذين قرأوا قصائده الأخيرة يذكرون أن أنفاسه كانت فواتر، وأن نجمه كان يشرف على الأفول .

أما شوقى فكان شاعراً فى شبابه وشيخوخته ، وكان شعره فى الشيخوخة أقوى وأجزل . والسر فى هذا يعرفه من عرف شوقى ، فالرجل كانت له آمال عراض طوال وكانت أعصابه كتلة من القوة والفتوة ، وكان يضمد جراح الشيخوخة بأحلام الشباب ، ومن أجل هذا ظل يهدر هدير الفحول إلى أن عقله الموت بأعنف عقال .

كتاب : الكامل[1]
في اللغة والأدب والنحو

قضيت شهوراً طوالاً في تحقيق الجزء الأول من كتاب الكامل ، ولابد أن يصدر هذا الجزء بمقدمة أتحدث فيها عن شخصية المبرد مؤلف الكتاب .. مكثت أتصيد الغرض للتعرف إلى روح ذلك المؤلف العظيم ولكن الحظ لم يكن يسعفني بما أريد ، ثم اتفق أن تفضلت وزارة المعارف العراقية فدعتني لتدريس الأدب العربي في دار المعلمين العالية في بغداد ؛ المدينة التاريخية التي تعلم فيها المبرد فأحسست وأنا أتأهب للسفر إلى وطن ذلك المؤلف أن صورته اقتربت مني كل الاقتراب وما هي إلا ليال راجعت فيها ما كتبه عنه السيوطي وياقوت حتى رأيتني قادراً على تقديم أخباره إلى القراء في صورة تشوق الناظرين .

(حقق الدكتور زكي مبارك الجزء الأول من كتاب الكامل للمبرد لمؤلفه : أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الشمالي الأزدي المعروف بالمبرد ، وحقق بعضاً من الجزء الثاني ثم سافر إلى بغداد فعهدت مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر إلى الأستاذ أحمد محمد شاكر تحقيق الجزء الثاني الذي بدأه زكي مبارك ثم الجزء الثالث .

***

(١) ذكرت هذا الكتاب لأوضح اهتمام زكي مبارك بالنشء ، فقد كان زكي مبارك المربي التربوي يرى أن تأثر التلميذ بالأستاذ أكبر من تأثر الطالب بالأستاذ ولهذا كان يرى ضرورة اختيار الأساتذة لتعليم الصغار .

تقرير طبى

مرفوع إلى حضرة صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف .

أيها الأستاذ الجليل .

كنتم سألتمونى منذ شهرين أن أقدم إليكم تقريراً عما صنعت فى مداواة ليلى المريضة فى العراق[1] .

---

(١) سنة ١٩٣٧ سافر زكى مبارك إلى العراق أستاذاً للأدب العربى بدار المعلمين العالية ببغداد .. ومن بغداد أخذ ينشر على صفحات مجلة الرسالة مقالات تحت عنوان "ليلى المريضة فى العراق" ؛ وذكر فى هذه المقالات أنه طبيب وليس بأديب .

ولقد أثارت كتابات زكى مبارك عن ليلى المريضة فى العراق العديد من التساؤلات ، يقول الأديب والناقد العربى الكويتى الأستاذ / فاضل خلف على صفحات كتابه "زكى مبارك بين رياض الأدب والفن" والذى صدر سنة ١٩٥٧ عن مكتبة الآداب بالجماميز بالقاهرة :

استمر زكى مبارك فى ابتكار طرائفه عن ليلى والطب فصار موضوع ليلى المريضة فى العراق شغل القراء الشاغل .

أيضاً يقول فاضل خلف : ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الرسائل فتح باهر فى الأدب الحديث .

(ويعاود فاضل خلف الحديث مرة ثانية عن ليلى المريضة فى العراق فينشر الرسائل التى ناقشت هذا الموضوع ثم يقول فى رسالة أخرى من اليمن جاء فيها :

والله عجيبة كيف أن حكومة العراق ماتحبس الدكتور زكى ولد مبارك الذى يعرض فى مقالاته بنسوان العباد المحترمات مثل الحاجة ليلى وهى مريضة وحضرة الست ظمياء بنت عمتها ؟

وتجيب المجلة على الرسائل بقولها : لا تستطيع حكومة العراق التعرض للدكتور زكى مبارك بنصف كلمة لأنه لم يتعرض لأحد من نسوان العباد ، أما "ليلى" و"ظمياء" فهما من الأسماء المنتحلة لشخصيتين خياليتين : كأبى زيد السروجى مع الحريرى وعيسى بن هاشم مع بديع الزمان ، اختلقهما الدكتور زكى مبارك ليجرى الحديث على ألسنتهما والمحاورات والمعانى التى يريدها .

وعن دار الهلال صدرت طبعة رابعة من كتاب "ليلى المريضة فى العراق" بتاريخ ٢٠٠٢ تقديم الدكتور عبد الرشيد الصادق محمودى ، وقد قال فيما قال :

كان زكى مبارك مؤمنا بالقومية العربية ، وكان يعتقد أن مصر والعراق هما دعامتا الوحدة العربية وقد كان صادقًا بعيد النظر فى كل ذلك . =

فأنا اليوم أجيبكم إلى ما سألتم راجيًا أن تغضوا النظر عما وقع من إمهال وتسويف .

وقد كنت نشرت بعض فصول هذا التقرير بمجلة الرسالة فى السنة الماضية فارتاع زملائى من أطباء بغداد وشكونى إلى الجمعية الطبية المصرية وكانت حجتهم أنه لا يليق بالطبيب أن يفشى سر المريض .

وما أجهل أنى أخطأت ولكن متى سلمت أعمال الرجال من الأخطاء ؟

وهل يدعى العصمة إلا أهل الغفلة والحمق والخبال ؟

إن أعظم مزية يتحلى بها كاتب هذا التقرير هى أنه يعترف سراً وعلانية بأنه إنسان يخطىء ويصيب .

* * *

لقد قضيت نحو تسعة أشهر فى بغداد وأنا فى حوار موصول مع ليلى وظمياء وأنت تعرف كيف يتعرض القلب – حين يألف مثل هاتين الشيطانتين – للطواف بأركان الحقائق والأباطيل .

أقول هذا وأنا أشعر بأنى لم أوفق كل التوفيق فى تدبيج هذا التقرير لأنه خلا خلواً تاماً من شوائب الرياء فى وقت صار فيه الرياء سيد الأخلاق ، وإلا فما الذى كان يمنع من أن أضيف إلى نفسى وإلى ليلى محامد ومناقب يسير بها الركبان ؟

ما الذى يمنع من أن أقول إن ليلى لم تعتب علىَّ مرة واحدة وإنى كنت فى هواها أعقل الناس ؟

منع من ذلك التعقل مانع واحد هو الغرام بالصدق ، منع من ذلك أنى أشعر بأن الأدب أصبح على شفا الهاوية بفضل شيوع التدليس فى تصوير العواطف والغرائز والطباع .

= وينهى الدكتور عبد الرشيد الصادق محمودى كلامه بقوله :

ومن سوء الحظ أن ليلى العراقية مازالت مريضة وفى حاجة إلى من يداويها ، وها نحن نرى الذئاب تحيط ببلادها وتتلمظ طمعاً فيها ، أما الأشقاء العرب فهم بين متآمر عليها أو عاجز عن إغاثتها .

منع من ذلك أنى أبغض أشد البغض أن تشعر وأنت تقرأ هذا التقرير بأن فيه شيئًا من الزور والبهتان .

* * *

أيها الوزير :

سترون فى هذا التقرير رموزًا كثيرة ، وقد تجدون من يحدثكم بأنى سلكت فيه مسلك الغمز والتجريح ، فإن سمعتم شيئًا من ذلك فاختبروه بأنفسكم على ضوء الحق لتعرفوا أنى أخلصت النصح للأمتين العظيمتين مصر والعراق .

وما الذى يوجب التصريح فى مواطن يكفى فيها التلميح ؟

إن البلاغة تجعل اللبس والغموض من أغراض الكتاب فى بعض الأحيان ، فكيف تحرمون علىَّ ما استباحه المفكرون فى مختلف العصور والأجيال ؟

إن هذا التقرير يحدد صلات مصر بالأمم العربية والإسلامية ويدلها على مذاهب الخلاص من الشبهات والأراجيف . وهو كذلك يشرح المعضلات التى يتعرض لها الجيل الحديث فى مصر والشرق وما كان يتيسر ذلك إلا إذا اعتمد الكاتب على رموز وإشارات يفهمها أولو الألباب.

السـفـر إلـى العـراق

" كانت مـهمتي أن أكون سـفير مـصـر فى العراق وأن أعود فـأكون سفير العراق فى مـصـر ، والسـفـارة الأدبية أفضل من السـفـارة الرسمية" .

زكى مبارك

فى سنة ١٩٣٧ رأى زكى العرابى باشا أن يعيننى مفتشاً للمدارس الأجنبية[1] .

توليت التـدريس فى شـهـر مـايو[2]... وطلبت وزارة المعـارف العـراقـيـة من وزارة المعارف المصرية انتدابى لتدريس أدب اللغة العربية بدار المعلمين العالية فى بغداد ، فتوكلت على الله وسافرت .

شعرت بالحزن يعتصر قلبى وأنا أفارق مصر .

المهم أنـى وصلت إلى دمـشق ولـم أكن رأيتـهـا من قـبل ، ثم امـتطيت سـيـارة إلى بغداد فدخلتها مع الفـجر ، ونزلت فى فندق "مور" شربت الشـاى ومـضـيت إلى الكلية بغبار الطريق وألقيت الدرس الأول ثم مضـيت لمقابلة وزير المعـارف وهـو مـعـالى الشـيخ محمد رضا الشبيبى عضو المجمع اللغوى المصرى .

---

(١) ١٩٤٩/٥/٢٨

(٢) على صفحات كتاب "زكى مبارك" والذي صدر فى سلسلة "أعلام ومشاهير" بإشراف الدكتور رؤوف سلامة موسى عن مطابع المستقبل سنة ٢٠٠٢ نقرأ على صفحة ٥١ بتصرف.

أهدر سلوك طه حسين حقوق زكى مبارك فى العمل أستاذاً بالجامعة المصرية ، وبعد ذلك أستاذاً بجامعة الإسكندرية ، واضطره بقبول العمل بوظائف مختلفة وأقل مكانة مما كان يستحق .

قال معالى الوزير حين رآنى : أهلا وسهلاً بالدكتور ، إن كتاب النثر الفنى هو الذى أحضرك إلى بغداد ، وأظن أنه يجب أن تسلم على رئيس الوزراء جميل المدفعى[١].

أتذكره بالخير فقد رأى من كرم الضيافة أن يحضر أول محاضرة ألقيها فى كلية الحقوق عن الشريف الرضى ، وانتقال رئيس الوزراء لحضور محاضرة يلقيها مصرى إكرام للغريب .

دخلت بغداد وأنا متأهب لإعداد جيل من الأساتذة يقومون بإحياء الآداب العربية فى البلاد العراقية ، ولم يكن تلاميذى شباباً ؛ وإنما لهم ماضٍ فى التدريس بالمدارس الابتدائية ، وقد قسمت الدرس إلى قسمين[٢] :

قسم شفوى : وهو شرح سورة الحجرات فى "التفسير للزمخشرى" وقد ضجر الطلبة من أن نقضى العام كله فى تفسير سورة الحجرات ، وكان جوابى أن المهم عندى هو أن تعرفوا أسلوب الزمخشرى فى تفسير القرآن وتتذكروننى بالخير حين أرحل عن هذه البلاد .

أما القسم الثانى : فهو تكليف الطلبة بواجبات من أول يوم ؛ واجبات قوية تروضهم على البحث والاستقصاء ، فكنت أقضى الأمسية فى الإشراف عليهم بالمكتبة العامة : مكتبة بغداد وهى صورة مصغرة من دار الكتب المصرية .

كان الغرض أن لا يسقط تلميذ فى الامتحان لأنى أومن بأن سقوط التلميذ هو أيضاً سقوط للأستاذ .

قضيت مع الوزير ثلاث ساعات فى مراجعة تلك الإجابات فقال الوزير وهو معالى محمد رضا الشبيبى : هذا جميل ولكنى حزنت لأنك قدمت استعفاءك من التدريس بالعراق .

---

(١) دخل زكى مبارك بغداد مع الفجر فى الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٣٧

(٢) ١٩٤٦/١٠/٢١

قلت : أنا أتعبت نفسي في هذه السنة حتى أضنيتها فيجب أن أستريح في السنة المقبلة وإلا كانت النتيجة أن أزعزع سمعتي الأدبية وأن أسيء بكسلي إلى وطني ، فقال الوزير :

بعد أن تعود إلى مصر وتستريح شهرين قد تغير رأيك .

فقلت : أنا أحب هذا وأتمنى أن أعود .

فاجعة بغداد[1] :

في ضحى اليوم العشرين من حزيران ذهبت إلى دار المعلمين العالية لمراجعة بعض الشئون فلقيني الدكتور عقراوي مذعوراً وهو يقول :

وقع اعتداء على الدكتور محمود عزمي فانزعجت وأسرعت لنجدته ، دخلت مكتب نائب العميد فرأيت الدكتور محمود عزمي بخير ؛ وجدته أصفر اللون ممزق الثياب وهو يرتجف، قلت سلامتك يا دكتور ماذا بك وما الذي حدث ؟

فأشار إشارة خفيفة فالتفت فإذا رجل ممدود فوق بساط المكتب وهو مدرج بالدماء ، رجل أخفى الدم معالم وجهه وكاد ينقله إلى حظيرة الأموات ولكن صوته وهو يتألم ويتوجع دلني على شخصيته فعرفت أنه الصديق الكريم الدكتور حسن سيف .

أخذت الدكتور محمود عزمي في سيارة ، واقترح الشيخ محمد رضا الشبيبي نقل حسن سيف إلى أحد مستشفيات سويسرا ولكن مدير المستشفى يقول إنه مات ... بعد ذلك خرج معالي الشيخ لتوديعه في المطار المدني وألقى خطبة تأبين[2] .

---

(١)١٩٤٧/٨/١٩ مقتطفات من كلمة تحت عنوان "فاجعة بغداد" من كتاب وحي بغداد للدكتور زكي مبارك ، وللمزيد أن يعود القارئ لكتاب "ليلى المريضة في العراق" والموجود حالياً الطبعة الرابعة طبعة دار الهلال سنة ٢٠٠٢ .

(٢) من على صفحات الأسمار والأحاديث صفحة ١١٠

مضيت فكتبت مقالة للأهرام فجعلتها افتتاحية ، وكان الغرض شرح بعض الأسباب التى أوجبت فاجعة بغداد خوفًا من أن يتوهم المصريون أن هناك حقدًا يضمره العراقيون للمصريين .

حين وصلت إلى مصر زرت جميع الجرائد ورجوتها أن تسكت عن فاجعة بغداد كانت مهمتى أن أكون سفير مصر فى العراق وأن أعود فأكون سفير العراق فى مصر ، والسفارة الأدبية أفضل من السفارة الرسمية .

كتاب التصوف الإسلامى :

يجب أن يطبع كتاب التصوف الإسلامى ليرى النور قبل أن أموت .

وفى سبيل كتاب التصوف الإسلامى أقدم الجواب الآتى إلى إدارة المعهد الذى أظلنى ورعانى :

حضرة الأستاذ وكيل دار المعلمين العالية :

أقدم إليك أصدق التحيات وأذكر أنك تلطفت فكتبت تسألنى عن استعدادى لمواصلة العمل بدار المعلمين العالية فى العام المقبل ، وأجيب بأن نسيم الحياة العلمية والأدبية فى هذا المعهد خليق بأن يجذبنى إلى بلدكم الطيب الجميل .

ولكنى لا أكتمك أن عندى مشروعًا أدبيًا سيحرمنى التشرف بصحبتكم فى العام المقبل وهو طبع كتاب "التصوف الإسلامى" الذى نلت به الدكتوراه فى الفلسفة من الجامعة المصرية برتبة الشرف ، وطبع هذا الكتاب لايتيسر فى بغداد لأسباب فنية ، وتأجيل طبعه يزعجنى لأنى آراه أعظم عمل قمت به فى حياتى وأحب أن يرى النور قبل أن أموت .

وإنما اقتصرت على هذا السبب فى تخلفى عن مواصلة العمل بدار المعلمين العالية لأنه سبب علمى تقدره أنت ويقدره العراق الذى يعرف قيمة الحرص على آثار العقول .

وأؤكد لك أيها الزميل الكريم إنى أشعر شعوراً صادقًا بأنى مقبل على تضحية خطيرة فى سبيل ذلك الكتاب . هى الحرمان من الجو الأدبى الذى تنسمت هواءه فى صحبتكم وصحبة الزملاء الأماجد الذين أحاطونى بأشرف معانى الوداد ، ولو شئت لنصصت على مودة الدكتور فاضل الجمالى الذى احتمل معنا مشاق الكفاح فى رفع دار المعلمين العالية ، وكان اشتراكه فى التدريس من أشرف معانى الصدق فى الجهاد .

أما تلاميذى فليس بينى وبينهم ما يوجب العتاب ، فقد قدمت إليهم جميع ما أملك من المعارف الأدبية والعلمية والفلسفية ، وسيصيرون بإذن الله من أشرف خدام العراق وإن كان فيهم من يعتب أو يلوم لأنى أثقلت كاهله بالواجبات فسيعرف بعد حين أن الرجل لا يذوق معنى السعادة إلا بإقذاء العينين تحت ضوء المصباح .

ذلك اعتذارى أقدمه إليك أيها الزميل الكريم ، وليتك تعرف كيف أفارق بلداً يكون فيه وزير المعارف شاعراً مثل معالى الأستاذ محمد رضا الشبيبى ويكون فيه مدير المعارف العام أديباً مثل سعادة الأستاذ طه الراوى .

جعلنى الله وإياكم من خدام العلوم والآداب والفنون والسلام .

من المخلص

محمد زكى عبد السلام مبارك

تلقى الدكتور عقراوى هذا الخطاب بالدهشة والاستغراب وأخذ يناقش العذر الذى سجلته فى الخطاب وقد عجب من أن يكون طبع كتاب التصوف الإسلامى موجبًا لأن أترك عملى فى بغداد مع أن أكثر العراقيين يطبعون مؤلفاتهم فى القاهرة بدون أن يجشمهم ذلك ترك أعمالهم فى العراق .

آه ثم آه من حالى فى دنياى !

ويظهر أن الدكتور عقراوى حدث بعض زملائه عن خطاب الاستقالة فطار الخبر إلى وزارة المعارف وماكنت أحب أن يصل الخبر إلى وزارة المعارف فهناك رجل يؤذيه أن أفارق بغداد هو الوزير محمد رضا الشبيبى ، الرجل العظيم حقًا وصدقًا الرجل الذى شرفنى بحضور أول محاضرة ألقيتها على الجمهور فى كلية الحقوق ، الرجل

الذى اتسع صدره لكل ما نشرت فى جرائد القاهرة وبغداد من النقد الصريح أو الملفوف لوزارة المعارف العراقية ، الرجل الذى انشرح صدره حين رآنى أتكلم فى المؤتمر الطبى باسم العراق .

سأل عني سعادة الأستاذ طه الراوى مرات كثيرة فى هذه الأيام فلما لقينى قال :

أنت تهرب منى ؟

واستصحبنى إلى منزله وسألنى عن الأسباب الحقيقية للاستقالة لأنه استبعد أن تكون مقصورة على طبع كتاب التصوف الإسلامى وقال إنه مستعد لترضيتى ، وأسرف فى التلطف فقال : نستطيع أن نعفيك من الدروس إن كانت أتعبتك ، ويكفى أن تقيم فى بغداد لأنك أحدثت موجة فى العراق ، وقد استقدمنا الأستاذ الثعالبى قبل ذلك لمثل هذا الغرض .

لن أرجع إلى بغداد فى العام المقبل ، وإن كان فى هذا التمنع خروج على رغبة الأستاذ الجليل مدير التربية والتدريس بوزارة المعارف العراقية ، فقد كتب إلىَّ يقول :

وزارة المعارف : بغداد ١٩٣٨/٧/١٢

الأخ العزيز الدكتور زكى مبارك أيده الله :

تحيات عاطرة وأشواق أخوية ، وبعد :

تناولت رسالتك المختصرة التى تحمل على اختصارها سعة نفسك وسمو عواطفك .

وقد أكدت على الدكتور عقراوى أن يجمعني والأخ الدكتور زكى مبارك قبل سفره ، ولكن شاءت الأقدار أن تنتهى سنة مملوءة بالصفو والسمر بحادث ترك كل حزن وكدر .

أما الداعى الأصلى لرغبتى في الاجتماع فهو استطلاع رأى الدكتور زكى فى العودة إلى العراق فى السنة القادمة ، إن الكتاب الموجه إلى الدكتور العقراوى والذى تعتذر فيه عن العودة فى السنة القادمة لا يحوى أسباباً كافية تدعو لعدم العودة .

أما نحن من جهتنا فقد بدأنا نتذوق حلاوة الأخ وأدبه ، وليس من الإنصاف تركنا بهذا الشكل ، ولذلك فأرجو رجاء أخوياً أن تنظر فى الأمر نظرة جدية ثانية وتخبرنى

إن كان فى إمكانك العودة فى السنة القادمة ، وأرجو أن يكون ذلك ممكنًا ، وأرجو أن تعلم أن معالى وزير المعارف يشاركنى فى الترحيب بك إن قررت العودة فى السنة القادمة .

فى انتظار قرارك الأخير الإخوان جميعًا يلهجون بذكرك ، تحيات عائلتى وأطفالى وللعائلة والأطفال .. أهدى التحيات للدكتور منصور فهمى وللأستاذ العشماوى وإن لم أحظ بشرف التعرف عليه بعد ، ولكل من يذكرنى من الإخوان فى مصر .

محمد فاضل الجمالى

* * *

تصل إلىَّ جرائد بغداد بلا انقطاع ؛ يرسلها أديب لم أعرفه فى بغداد هو السيد عبد القادر أحمد ، أرانى الله وجهه بخير وعافية وجزاه عن الأدب والذوق خير الجزاء .

وفى جرائد بغداد قرأت أن جريدة "العُقاب" تقترح أن أمنح لقب "ابن بغداد" .

ثم قرأت أن جريدة "اليوم" تقترح أن أمنح لقب "ابن العراق" .

فما هذا الكرم يا أبناء الرافدين ؟

ابن بغداد ؟

ابن العراق ؟

أهلا وسهلاً ، فأنا بإذن الله أخوكم الشقيق ما حييت .

أنا ابن بغداد وابن العراق لأنى وقفت وقفة الأسود أدفع التهم الكواذب عن بغداد والعراق .

فهل يعرف العراقيون كيف وقفت ذلك الموقف ؟

الله يشهد أنى فكرت فى خدمة مصر قبل أن أفكر فى خدمة العراق .

ومع ذلك اتهمنى الغافلون بأنى أجامل أهل العراق .

وهل يكون من المجاملة أن نقول كلمة الحق ؟

لم أرد - يشهد الله - إلا أن أحفظ لوطنى مكانة فى قلوب الصناديد من أهل العراق .. فإن كان العراقيون رأونى أديت لوطنهم خدمة حين دفعت عنهم ، قالة الزور والبهتان فذلك منهم تلطف وترفق ، وستحفظ مصر لهم هذاالجميل .

أنا ابن بغداد ؟ أنا ابن العراق ؟

إن من الشرف العظيم أن أكون ابن بغداد وابن العراق .

لم يبق فى نفسى إلا كلمة أقولها لكم يا أبناء الرافدين وهى دعوتكم إلى الثقة بأن المصريين يحبونكم أصدق الحب ويرونكم إخوانهم الأشقاء .

عواطف نبيلة من شعب نبيل :

فى صباح اليوم السادس عشر من حزيران تلقيت إشارة تليفونية من وزارة الخارجية المصرية تسألنى عن اسمى الكامل وعن منصبى بوزارة المعارف ، وأردت أن أعرف الموجب لهذه الأسئلة المفاجئة فقيل تمهيداً لوسام سأتلقاه من حكومة العراق .

وفى صباح الخامس عشر من تموز تلقيت برقية من الصديق الكريم السيد عبد القادر أحمد الموظف بمديرية الدعاية فى بغداد يهنئنى بوسام الرافدين .

ومعنى تلك الإشارة وهذه البرقية أننى خطرت فى بال أهل الصدق والوفاء من أقطاب بغداد .

وأنا مع ذلك لا أعد "وسام الرافدين" تحية شخصية ، وإنما أعده رمزًا لتوكيد الصلات الأدبية والعلمية بين مصر والعراق ، وقد جاهدت فى ذلك جهاد الصادقين .

* * *

وفى صيف ١٩٣٩ مات الملك غازى فرأت الحكومة العراقية دعوة أدباء الأقطار العربية لحضور الاحتفال بتأبينه .

اختـار الأزهـر الشيخ إبراهيم الجبـالى ، واختـارت الحكومة المصرية الدكتور عبد الوهاب عزام ، واختارت وزارة المعارف على الجارم ، واختارت الصحافة اثنين : أسعد داغر وإبراهيم المازنى .

ولكن الهتاف عن الحكومة العراقية يقول :

يا مولانا أنت مدعو بصفتك الشخصية مادامت وزارة المعارف تخطتك .

كانت مفاجأة غريبة ، فقد رجعت إلى بغداد وطـويت الفيافى كما طويتها فى السنة الماضية .

كتاب عبقرية الشريف الرضى

كتابى هذا هو مجموعة المحاضرات التى ألقيتها فى قاعة كلية الحقوق فى بغداد ، وكانت تلك المحاضرات من أشهر المواسم فى حياتى ، فقد كان أصدقائى يخشون أن يمل الجمهور بعد أسبوع أو أسبوعين، ولكن الجمهور كان يزداد إقباله من أسبوع إلى أسبوع ، ولم ينقذنى منه غير التصريح بأنى أنفقت كل ما كنت أملك ولم يبق إلا أن أستريح[1] .

لا تسألونى كيف ظلمت نفسى فأنفقت ما أنفقت ؛ فقد ساءنى أن أعرف أن "دار المعلمين العالية" لها فى بغداد تاريخ : فكانت تفتح ثم تغلق ، فاستعنت بالله وانتفعت بعطف معالى وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشبيبى وأريحية الأستاذ طه الراوى ومودة الدكتور فاضل الجمالى وعولت على همة زميلى وصديقى الدكتور فؤاد عقراوى

---

(١) كتاب عبقرية الشريف الرضى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٣٨ ، ثم طبعة ثانية عن دار الجيل/ بيروت / سنة ١٩٨٨ ... وهذه السطور مقتطفات من فاتحة الكتاب .

والسطور التالية مقتطفات من الحوار الذى أجراه الكاتب الصحفى نبيل فرج مع الأديب بدر الديب عن الأدب والفن على صفحات مجلة "الكاتب" فى نوفمبر سنة ١٩٧٥ يقول الأديب بدر الديب بالنص : إننا مازلنا نغمط الدكتور زكى مبارك حقه كواحد من أكبر نقادنا إن لم يكن أكبر نقادنا إلى الآن فى نظرى ففى كثير من مقالاته جهد نقدى مبدع .

وأعتقد أن كتابه "عبقرية الشريف الرضى" من أخطر كتب النقد العربى الحديث لأنه أعاد تقييم شاعر وغي وضعه على خريطة الشعر العربى كله .

وعلى صفحات مجلة الثقافة فى يناير سنة ١٩٧٦ وفى العدد ٢٨ ، كتب رئيس التحرير الدكتور عبد العزيز الدسوقى تحت عنوان . "دراسة العبقريات" كتب يقول لست أدرى لماذا لم تهتم حركة النقد العربى الحديثة بدور زكى مبارك الريادى فى دراسة العبقريات . فقد فطن زكى مبارك منذ وقت مبكر إلى علاقة العبقرية بالإبداع الفنى ، ثم ظهر هذا الاهتمام بصورة علمية فى أواخر العقد الثالث من القرن العشرين عندما درس "الشريف الرضى" فى كتاب سماه: عبقرية الشريف الرضى وبذلك يكون زكى مبارك أول ناقد أدبى يستخدم كلمة عبقرية ويضيفها إلى شاعر عربى قديم ، ومن أوائل الذين اهتموا بدراسة الشخصية الأدبية على ضوء منهج حديث .

وأقمنا لدار المعلمين العالية أساسًا من التقاليد الجامعية فأغنينا مكتبتها بالمؤلفات القديمة والحديثة ، وعلمنا طلابها كيف يبحثون ويراجعون وغرسنا فيهم الشوق إلى التحقيق والاستقصاء .

ورأيت أن يكون من تقاليد هذا المعهد العالى أن يخرج كل سنة كتابًا عن شاعر أو أديب أو مفكر لم يدرسه أحد من قبل ، فألّفت كتابى هذا عن الشريف الرضى .

* * *

سيذكر أدباء بغداد أننى أحببت شاعرًا هو من ثروة العروبة وثروة العراق ، سيذكر أدباء بغداد أننى وفيت لمدينتهم السحرية حين اهتممت بشاعر كان أصدق من عرف النعيم والبؤس فوق ثرى بغداد .

وكتابى هذا تطبيق لما شرعت من قواعد النقد الأدبى ، القواعد التى أذعتها فى كتابى "الموازنة بين الشعراء" وهو من أجل هذا لون جديد في اللغة العربية ، وسيكون له تأثير شديد فى توجيه الدراسات الأدبية ، وقد يصلح ما أفسد الزمان من عقول الباحثين .

وبيان ذلك أنى لم أقف من الشاعر الذى أدرسه موقف الأستاذ من التلميذ كما يفعل المتحذلقون ، وإنما وقفت منه موقف الصديق من الصديق .

* * *

بغداد

هذا كتابى أقدمه بيمينى فى تهيب واستحياء ، فإن رضيت عنه فذلك لطف ورفق ، وإن غضبت عليه فلست أول حسناء تجحد الجميل !

اصنعى فى ودادى من التنكر والتقلب ماشاء لك الدلال ، أما أنا فأشهد أنك صنعت بقلبى وعقلى ما عجزت عنه القاهرة وباريس .

أنت مظلومة يا بغداد ، وأنا مظلوم يا بغداد ، والظلم يجمع بين القلوب .نصرك الله ونصرنى ؛ ورعاك ورعانى ، إنه سميع مجيب ، وعليك منى السلام .

كتاب : " وحى بغداد"

اليوم أخرج كتاب " وحى بغداد" تحية لمدينة الرشيد التى اتصلت بها نحو خمسة أشهر قضيتها فى يقظة عقليةً أوحت إلى قلمى ألوف الصفحات .

وأنا أرجو أن يكون كتاب "وحى بغداد" سنة حسنة لمن يعيشون فى العواصم الشرقية عساهم يحببون العرب والمسلمين فى بلادهم بما يبتكرون من شائق الوصف ورائع الخيال(١).

أيها السادة(٢) :

هل لكم أن تسمحوا لى بالترويح عن نفسى قليلاً ؟ لابد للمصدور أن ينفث ولى أمل عزيز أخشى أن لا يخيب .

لقد رحلت عن مصر وأنا مصمم على الاستبسال فى الدعوة إلى إنشاء جامعة عراقية ، فلما وردت العراق لم أجد من يشجعنى على تحقيق ذلك الأمل النبيل ، وصارحنى بعض الرجال بما يعترض إنشاء الجامعة من عراقيل.

فأنا أنتهز هذه الفرصة لتسجيل هذه الرغبة بطريقة علنية وأصافح بيمناى أنصارها الأوفياء ، وأدعوكم إلى الكتابة عن هذه الأمنية فى كل يوم ، والكلام عنها فى كل مجتمع والإلحاح بها على جميع الوزراء ، واعلموا أن من العار أن تخلو بغداد من جامعة وباسمها الخالد تتعطر الأفواه فىّ جامعات الشرق والغرب .

* * *

---

(١) بعض سطور من افتتاحية كتاب "وحى بغداد" والذى طبع سنة ٣٨

(٢) مقتطفات من خطاب للمؤلف ألقاه فى حفلة تكريمه فى بغداد .
ونجد هذه المقتطفات في صفحة ٦٦ من الكتاب.

ولكن كيف تنشئ الجامعة العراقية لتحسن إنشاء الجيل الجديد[١]؟

يخيل إلى أننا لن نواجه المصاعب التى واجهتها مصر حين أنشأت الجامعة المصرية ، فقد كان الجمهور فى مصر سنة ١٩٠٦ ينقسم إلى فريقين يقال لأحدهما أمة ولثانيهما حكومة .

وكانت حكومات تلك العهود تراعى ذوق الاحتلال ، والاحتلال لم يكن يسره أن يكون فى مصر جامعة ، وكان يخشى أن تنشأ طوائف من المزودين بالثقافة العالية ، وهذا الصنف من الشباب يكون شوكة تخز الاحتلال .

وقد فطن الفريق الذى يمثل الأمة إلى هذه الحقيقة فأعلن يأسه من الحكومة ، ودعا الجمهور إلى الاكتتاب العام لإنشاء الجامعة المصرية .

فلم تمض غير أشهر معدودات حتى صارت فكرة الجامعة المصرية حقيقة واقعية تلمسها الأيدى وترعاها العيون .

* * *

أرجو أن يكون للنواب والأعيان وكبار الملاك والتجار والموسرين يد مشكورة فى تأسيس الجامعة العراقية .

أرجو أن يمد الجمهور يده الكريمة لينفخ فى هذا المشروع روح الحياة فإنه يحتاج إلى كثير من الأموال[٢] .

وإنى لموقن بأن فى أرجاء العراق نفوسًا تتطلع إلى المجد ، وهذه فرصة نفيسة يجب اغتنامها ، فليس من القليل أن تسجل أسماء المتبرعين فى كتاب ذهبى يصبح على الزمن من أشرف وثائق التاريخ .

* * *

(١) على صفحات نفس الكتاب وتحت عنوان "الجامعة العراقية" ص١٤٤ .
(٢) نفس المقالة ص ١٧٧ .

أيها الزملاء[1] :

أدعوكم إلى المبادرة لمناصرة هذا المشروع الجليل ، وأتشرف بتقديم خمسة دنانير تكون فاتحة مباركة إن شاء الله لقوائم الاكتتاب .

* * *

لم أر من أهل العراق غير الشهامة والنبل والوفاء ، ويسرنى ويشرح صدرى أن أقول كلمة الحق فى تحية من يعيشون فى أنس بزهرات بغداد ونخلات البصرة وسمكات الفرات ، وسيأتى يوم يعذرنى فيه من اتهمونى بالإسراف فى حب البلاد التى عرفت بكاء الحمائم وظلام الليل[2].

سيعرف إخوانى فى مصر أنى بنيت لهم صرحاً من الود فى وطن نبيل هو العراق .

سيعرف إخوانى أن غيرتى على سمعة العراق تضاف إلى المحامد المصرية ، وسيقول المنصفون إن المصرى حين يغترب لا ترى عيناه غير الجميل من شمائل الرجال .

هذا كتاب أوحته بغداد ، وفيه ما فى جو بغداد من طغيان الرفق والعنف وصولة العقل والفتون ، وسيظل أسيراً إلى بغداد لأنه من وحى بغداد .

---

(١) نفس المقالة السابقة صفحة ١١٩ .

(٢) فقرات من المقدمة .

كتاب : " ليلى المريضة فى العراق"

ابتدأت فى تدوين هذه المذكرات فى الشهر التاسع من سنة ١٩٣٧ وانتهيت منها فى الشهر الثالث من سنة ١٩٣٩ ، وبذلك أكون قد شغلت نفسى بحديث ليلى سبعة عشر شهراً ، أو تزيد فما الذى جنيت من سهر الليالى فى تدوين هذه المذكرات ؟

غنمت أشياء وخسرت أشياء .

غنمت الإيمان بالشرف ، فلولا تصونى وعفافى وأمانتى فى حب ليلى لخمدت وقدة الشوق منذ أول يوم تلاقينا فيه ، ولو خمدت تلك الوقدة لا ندثرت جميع المعالم من ذلك التاريخ الجميل .

وغنمت الإيمان بالقلب فقد عرفت كيف استطا ع قلبى أن يحيلنى إلى قوة روحية قليلة الأمثال .

وغنمت الإيمان بالصدق ، فبفضل الصدق بكت ليلى فى دارى بكاء الحنان يوم كنت فى بغداد .

وغنمت الإيمان بالحب ؛ فبفضل الإيمان بالحب صرت شغل الأفئدة فى جميع الأقطار العربية .

* * *

وخسرت أشياء :

خسرت السلامة من سماحة المتقولين وسفاهة العذال .

وخسرت الراحة من كمد القلب وعذاب الروح .

وخسرت الفضيحة فى حب ليلى ، لأننى كنت مع الأسف من عقلاء المجانين .

* * *

أيها القمر الذى يملأ أرجاء مصر الجديدة فى شهر المحرم ، أيها القمر ، أيها القمر ، بلِّغ ليلاى فى بغداد أنى أعانى آلام الكتمان ، بلغ ليلاى أن سرى لا يزال مكتوماً بعد هذه المئات من الصفحات .

وآه ثم آه من عذاب الكتمان :

كان غرامى بك يا ليلى قدراً من الأقدار ، وكان مكتوباً خُطَّ بالدمع على أسارير الجبين . وكم توقرت ياليلى لأصدّ الجوى عن قلبك الخفاق .

فإن كنت ضيعت عليك فرصة الفضيحة فى غرامى فقد حفظت لك نعمة الصيانة من أراجيف السفهاء ، وذلك أجمل ما تظفر به القلوب والنفوس فى زمن يكفر أهله بشريعة الحب أبشع الكفران .

* * *

ولو كنت كتمت هواى عن الناس وحدهم لخف الأمر وهان ، ولكنى كتمت هواى عن ليلاى وضللتها أشنع تضليل ، فهى لا تعرف اليوم مواقع هواى ، ولا تفهم أنى مفتون بها أعنف الفتون .

سألتنى ليلاى ذات مساء : أنا ليلاك يا دكتور ؟

فأجبت : علم ذلك عند علام الغيوب .

وكان ذلك لأنى كنت ألزم الأدب حين أراها مع أنى أفضح نفسى فيما أنشر بالجرائد والمجلات ، فهى تتوهم أن هواى عند غيرها من الليليات ، وما أكثر أوهام الملاح ؟

ومن ليلاى فى العراق ؟ من ليلاى فى العراق .

هى ليلاى فى العراق ، هى أم العينين السوداوين ، هى الإنسانة التى كانت تشتهى أن تكون نور بيتى فى بغداد ، هى الإنسانة التى اقترحت أن نغرق معاً فى دجلة أو فى الفرات .. وليتنا غرقنا معاً فى دجلة أو فى الفرات .

* * *

كتمت هواك ياليلى فهل تكتمين هواى ؟

أنت الآن مضللة أعنف تضليل : لأنى حرفت هواى فيك أعنف تحريف .

فـأرجـوك بالله وبالحب أن تؤمنى بأنى لم أتحـدث عنك بحـرف واحـد فى هذه المذكرات الطوال .

إن عرضى فى يديك يا محبوبتى الغالية ، وعرضك فى يدى يا محبوبتى الغالية .

وسترى الأيام أينا أحفظ للعهد وأكتم للسر ، وأعرف بالوفاء .

ليلاى

كنت وعدت بأن تقيمى بين ذراعى فى مصر الجديدة أسبوعًا أو أسبوعين ، فهل أعيش حتى يتحقق ذلك الحلم الجميل ؟

نويت أن أعيش حتى أراك ، وسأراك قبل أن أموت .. وسأكفر عن الوقار الذى اقترفته يوم "العتاب" إلى اللقاء يا محبوبتى فى القاهرة أو فى بغداد .

ليلى

أحبك أكثر مما أحب نفسى ، وأحب بغداد أكثر مما أحب سنتريس .

فمن أنت يا ليلى ؟

الله وحده يعلم من تكونين ، وإليه مصاير المحبين .

خذينى إليك يا ليلى ، أو تعالى إلىّ ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلنكن صلة الوصل بين مصر والعراق .

وسلام الله على من أحب فكتم فمات وهو شهيد .

كتاب : ملامح المجتمع العراقى

وكتاب ملامح المجتمع العراقى هو كتاب يصور ملامح من المجتمع العراقى وأنا فيه صادق كل الصدق ، فما أثنيت على العراقيين إلا بما هم أهل له [(١)]

والمهم أن تكون لنا خطة قومية فى التعرف إلى الشرق ، خطة قومية تنزل من القلوب منزلة اليقين وتفرض على المصرى أن يشعر بالأخوة الصحيحة لكل من يتكلم اللغة العربية ؛ فإن تجاوزنا ذلك إلى العطف عن كل ما يصدر عن القومية العربية وعددنا الإسلام ميراثًا عربيًا يشاطرنا فيه نصارى لبنان والعراق لأن محمدا هو أول عربى رفع اسم العرب فى العالمين : إن وصلنا إلى هذه العقيدة فقد آمنا من جميع المخاوف المحلية ، واستطعنا مواجهة الوجود بعزائم أمر من النار وأمتن من الحديد .

ثم أرجع فأقول إن هناك دسائس تصد العرب والمسلمين عن الإخاء ، فما تلك الدسائس ؟

الدسائس الخارجية لا تعوق أمة من النهوض والتحليق ، وإنما الخوف من الدسائس الداخلية : وهى ارتياب العرب والمسلمين فى ما بينهم من إخاء ، فليلتفت كل منا إلى قلبه ليدفع عنه عوادى المرض وليحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وليتذكر أن شجرة العروبة أقوى من أن تعصف بها زعازع الفناء وأن العرب الذين كان لهم تاريخ سيكون لهم تواريخ .

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾

---

(١) مقتطفات من فاتحة كتاب ملامح المجتمع العراقى والذى طبع سنة ١٩٤٢

كتاب : مجنون سعاد

كتاب "مجنون سعاد"[1] لم يسبق له مثيل ولا نظير ، وهى رسائل أنشأها الدكتور "بديع الزمان" ، أنا ذلك الدكتور وأنا ذلك المجنون وأنا ذلك البديع .

كانت هذه الرسائل ترسل بطريقة سرية إلى صاحب مجلة "الصباح" لأننى كنت من أكابر المفتشين بوزارة المعارف ، ولايجوز لرجل من أكابر المفتشين أن يتحدث عن الحب وعن الجمال .

بدأت تلك الرسائل فى بغداد ... لم تكن الموحية ليلى البغدادية وإنما كانت ليلى قاهرية رمت سهمها فأصمتتى .

وأنا فى بغداد اعتصرت فؤادى وأودعته تلك الرسائل .

زكى مبارك

---

(١) قدّمت مجلة الصباح "رسائل مجنون" وقد صدر "كتاب مجنون سعاد" فى كتاب الهلال فى مارس ١٩٧٧ .

الرسالة الثانية

سعاد ... هل قرأت الجرائد اليومية ؟ ورأيت مصير مخزن الأفلام للموسيقار محمد عبد الوهاب ؟

لقد سئل عبد الوهاب عد سبب الحريق فقال إنه بفعل فاعل ، ولم يتهم أحداً ، وكان في نيتي أن أبلغ الشرطة عن سبب الحريق ... ثم سكت رغبة في السلامة من القيل والقال ، فهل أستطيع أن أبلغك أنت ؟

أنا يا محبوبتي السبب في ذلك الحريق ، فقد زرت عبد الوهاب في مكتبة وتركت هناك زفرة من زفرات قلبي ... فكان الحريق الذي تحدثت عنه الجرائد ، فهل ترين أني المسئول ؟ أم تكون المسئولية على من أشعلوا النار في فؤادي ؟

بديع الزمان

الرسـالة السـادسـة

محبوبتى الغالية ...

هذا هو لقبك عندى ، رضيت أم كرهت ، هذا هو اسمك الغالى يا سعاد .

أنت محبوبتى الغالية ، وإن شردت نومى وأطلت سقمى وتمرد فيك بلائى .

حدثينى : أيكون المحبون جميعا فى مثل حالى ؟ ..

إنهم إذن سعداء .

بديع الزمان

الرسالة الرابعة والخمسون

سعاد ... إليك أسوق هذا الخبر الظريف :

أجريت بحديقه منزلى بسنتريس مركز أشمون تجربة علمية فى العشقة وهى اللبلاب ، وقد انتهت التجربة بأن العشقة تتخير الأشجار فتترك الشجرة الضعيفة وتطوق الشجرة القوية ، أفلا يكون معنى ذلك أن العشق يسلك هذا المسلك فيتخير القلوب ؟

هو ذلك ياسعاد ، فما حل العشق بقلب ضعيف ، وإنما يصوب سهامه إلى قلوب الأقوياء ... وذلك شاهد جديد على عظمة العاشق .

بديع الزمان

كتاب المدائح النبوية [1]

باسمك اللهم أفتتح هذا الكتاب ، ومنك وحدك أنتظر حسن الجزاء .

أما بعد : فهذا كتاب لم يكن ظهوره فى الحسبان فهو فى الأصل باب من كتاب قدمته إلى الجامعة المصرية عن "أثر التصوف فى الأدب والأخلاق" وألفت لدرسه لجنة مكونة من الدكتور منصور فهمي والأستاذ مصطفى عبد الرازق والدكتور عبد الوهاب عزام ، ورأت هذه اللجنة أن الباب الخاص بالمدائح النبوية خليق بأن يظهر مستقلاً عن الأصل بعض الاستقلال ، وكان هذا الاقتراح فرصة تلقفتها فى نشوة الجذلان لأنى كنت أشعر أن المدائح النبوية فى الأدب العربى تستأهل الظهور فى كتاب خاص .

وإنى لأعترف بأنى مأخوذ بنشوة النصر وأنا أقدم هذا الكتاب إلى القراء فما كنت أحسب أن الزمان سينصفنى هذا الأنصاف ؛ فأكون أول من يرسم خصائص المدائح النبوية في الأدب العربي وهو موضوع كان يجب أن تعين رسومه وحدوده منذ أزمان .

وأى أنس أعظم من شغل النفس بتلك الأقباس الروحانية التى بثها نبى الإسلام فى أرجاء الوجود ؟

وقد كان حظ النبى محمد أو فى الحظوظ بين الرسل والأنبياء فكل نبى قامت من حوله الأساطير ، وصورت شمائله بألوان صيغ أكثرها من الخيال ، أما النبى محمد

---

(١) كتاب المدائح النبوية طبع أول مرة سنة ١٩٣٥ فى مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، وطبعة ثانية فى مكتبة الشرق الجديد بدمشق سنة ١٩٩٧ وطبعة ثالثة سنة ٢٠٠٣ فى الهيئة العامة لقصور الثقافة ، وهذه مقتطفات من فاتحة الكتاب .

فحجته الباقية هى القرآن ؛ وهو كتاب لم يضف إليه سطر واحد بعد موت ذلك الرسول ، فهو من الوثائق التاريخية التى يندر أن يكون لها مثيل .

ومن العجب في مصر بلد العجائب أن تحيا الغيرة على الأطلال وتموت الغيرة على الحقائق ، فلو انتهب حجر من أحجار الكرنك لكان انتهابه نكسة وطنية .

وكان الصراخ لضياعه عملاً يثاب عليه من يحسن البكاء والعويل .

أما زعزعة الإيمان فى هذا البلد فهى أقل خطراً من سقوط حجر أثرى تحرسه وزارة الأشغال ، لأن رعاية الآثار بدعة عصرية يعرفها الأوربيون والأمريكان ، أما رعاية العقائد فسنة قديمة سحب عليها الدهر ذيل النسيان .

وما أقول هذا تعصبا للدين – وهو تعصب شريف – وإنما أقوله تعصباً لحقيقة أدبية تغار عليها الأذواق ، فليست الثقافة أن تعرف أوهام المشرق والمغرب ، وإنما الثقافة أن تعرف ما يجب أن يعرف ، وقد آن أن يفهم الغافلون أن الأمة التى يحفظ أطفالها القرآن : هى أهدى من أمثال الأمة التى يحفظ أطفالها أقاصيص لافونتين .

وما أقول هذه الحقيقة وحدى وإنما يعرفها خلق كثير لا يصدهم عن الجهر بها إلا الخوف من الاتهام بالتعصب والرجعية وهو اتهام لا أقيم له أى وزن ، لأن حزب الشيطان أضعف من أن يحسب له حساب .

وقرائى من غير المسلمين لا يسيئهم هذا القول ، فليس القرآن ملكًا للمسلمين وإنما هو ملك للإنسانية جمعاء ، وكذلك كانت التوراة وكان الإنجيل ، وهل كانت الشرائع إلا موارد يفزع إليها الظماء فى عالم العقول والقلوب والأذواق ؟

... هذا وقد سمعنا أن وزارة الأوقاف تلقت عشرات من القصص الجديدة التى تصور الرسول بما يوافق ذوق العصر الجديد .

ولسنا ندرى على أى نمط وضعت تلك القصص ولكنا نرجو أن تكون الموالد القديمة نموذجًا للمولد الجديد من الوجهة الفنية ، فإن المولد لم يوضع فى الأصل

ليكون كتاب تاريخ ولكنه فى أصله لون من التمجيد لآثار الرسول ، وهو كذلك من صور الاستغاثة والتوسل عند الصوفية .

فمن الأنفع أن يراعى الوضع الغنائى فى تأليفه ليصلح للغناء والترتيل ، فإن العامة لا تفتنهم الحقائق المجردة وإنما يستهويهم الحق المزخرف ، وفى القرآن نفسه سور مسجوعة والقنوت المأثور هو أيضًا مسجوع ، ودعوات السلف الصالح كذلك مسجوعة ، وفى هذا كله ما يشعر بأن أهل الرأى من قدماء المسلمين يراعون النظم الغنائى فى الدعوات والصلوات .

كتاب التصوف الإسلامى

كتاب التصوف الإسلامى شغلت به نفسى نحو تسع سنين ، فأنفقت فى تأليفه من الجهد والعافية ما أنفقت ، فى أعوام عجاف لو ابتلى بمثلى الصابرون وأشجع الشجعان لألقى السيف وطوى اللواء ، فقد كنت فى حرب مع الناس ومع الزمان وياريح من ابتلته المقادير بإفك الناس وغدر الزمان [1] .

ولكن الله عزَّ شأنه لم يخلق الشر إلالحكمة فقد قويت عزيمتى بفضل ما عانيت فى حياتى من ضروب الاضطهاد واستطعت أن أقيم الدليل على أن الظلم قد يعجز عن تقويض عزائم الرجال [2] .

هل كان من هواى أن أنتهى إلى ما انتهيت إليه فلا يكون لى من نعيم الحياة إلا ما أصوره بقلمى من حين إلى حين لأوهم نفسى أنى أعايش الأحياء ؟

ينقسم هذا الكتاب إلى قسمين التصوف فى الأدب والتصوف فى الأخلاق وكان هذا الموضوع فيما يظهر غامضًا أشد الغموض فقد طالب مجلس الأساتذة بكلية الآداب أن نقدم له مذكرة نشرح بها الغموض من هذا الكتاب ، وقد أجبنا يؤمئذ بأننا نريد أن نبين كيف استطاع التصوف أن يخلق فنا فى الأدب ومذهبا فى الأخلاق ، وهو موضوع يستحق الدرس بلا جدال .

---

(١) مقتطفات من مقدمة الكتاب ، وقد صدر عن مطبعة دار الكتب .

(٢) ظفر زكى مبارك بالدكتوراه فى الفلسفة مع مرتبة الشرف فى الجامعة المصرية الجديدة ، وكانت يومها جامعة فؤاد الأول وهى حاليا جامعة القاهرة ... وهى الدكتوراه الثالثة ... وبعدها أطلق عليه الشاعر محمد الأسمر كلمة الدكاترة .

يقول زكى مبارك فى الفصل الواحد والأربعين من كتابه "ليلى المريضة فى العراق" قدمت كتاب "التصوف الإسلامى" إلى مطبعة دار الكتب وأنا أتوهم أنى سأنجز طبعه فى شهرين ، ولكن مدير دار الكتب .

وقد نوقش الكتاب بجلسة علنية فى مساء اليوم الرابع من أبريل سنة ١٩٢٧=

= وهو سعادة الدكتور منصور فهمى أعلمنى أن الإذن بطبعه يحتاج إلى أسابيع طوال لأن اللجنة المختصة بمراجعة الكتب لاتجتمع إلا في أحايين قليلة بسبب عطلة الصيف ، فقلت : هذا كتاب أقرته الجامعة المصرية ... وكنت أنت من أعضاء لجنة الامتحان فكيف يحتاج إلى من ينظر فيه من جديد ؟!

قال لابد من مراعاة الشكليات .

وقد خرجت من مكتبه محزونًا لأني اطلعت على مرض جديد من أمراض الشرق ، هو مراعاة الشكليات وحياتى ملئت بالأكدار لأني لم أكن أراعي الشكليات في بلاد الشكليات .

يعجبني طموح الدكاترة

"سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "منهومان لايشبعان : طالب : علم وطالب مال . وأنا منهوم فى طلب العلم بصورة فظيعة ، وعقلى هو معدة تأكل الحديد "

زكى مبارك

أخى الأستاذ محمود الشريف إليك وإلى الأستاذ عبد المنعم ناظر مدرسة سنتريس الابتدائية وإلى أبنائى عندك وهم تلاميذ المدرسة أقدم تحية الشوق ثم أجيب عن أسئلتك ؟[1] .

من أطلق اسم الدكاترة على الدكاترة ؟ ومتى ؟

الجواب : كنا أقمنا حفلة بدار الاتحاد النسائى ندعو فيها إلى إباحة الإنتساب إلى جامعة فؤاد الأول ، فألقيت خطبة وألقى الشاعر محمد الأسمر قصيدة جاء فيها هذا البيت :

هذا زكى لم يزل متلمذاً   وله تلامذة همو العلماءُ .

ثم قال يعجبنى طموح الدكاترة .

الشاعر محمد الأسمر [2] :

---

(١) الأسئلة كانت مطلوبة للكتاب الشهرى لمدرسة سنتريس الابتدائية.

(٢) ١٩٤٧/٥/١٣ .

هو من أكابر الشعراء وهو مولع بأكل لحوم الدجاج وهذا ليس بعيب . فالشاعر الفرنسي العظيم فيكتور هو جو كان منهومًا وكان يطهى طعامه بيديه ليتذوق بخار اللحوم وهى تتقلب فوق النيران ...

والكاتب الفرنسى العظيم شاتوبريان كانت له شهرة إلى اللحم الغريض الذى تظهر النار ما فيه من الدماء ، وباسمه يسمى طبق من اللحم اسمه شاتوبريان ... لكل شاعر شهوة فما هى شهوتى ؟

أنا أشتهى الحبر والورق وأتغزل فى الحبر والورق .

الدكتوراه الرابعة

قيدت اسمى من جديد بجامعة فاروق الأول واعداً بتقديم رسالة عن " عبقرية الشريف المرتضى" لأكون الدكتور الأول من جامعة فاروق ، والغرض أن أعيش طالب علم من المهد إلى اللحد (١) .

رجعت طالبًا من جديد ؛ طالبًا يجلس مع شبان أصغر سنًا من أبنائه ، وقد اشتعل الشيب فى رأسه . وقد أنشأت جيلاً من الأساتذة فى العراق يوم كنت أستاذ الآداب العربية بمدرسة المعلمين العالية فى بغداد ، ومقالاتى فى البلاغ عصارة مريرة من الآلام التى اكتويت بها فى حياتى ، يضاف إلى هذا أنى طالب فى جامعة فاروق الأول ، وكنت أحب أن أنشر فى البلاغ فصولاً من الرسالة الجديدة ولكن هذا ينافى الطريقة الجامعية (٢) .

ماذا أصنع ؟ (٣) .

يقال إنى أتحدث عن نفسى كثيراً ، وجوابى هو قول الشاعر ابن الرومى :

وعزير علىَّ مدحى لنفسى   غير أنى جشمته للدلالهْ

وهو عيب يكاد يسقط فيه   كل حر يريد يظهر حالهْ

---

(١) ١٩٤٩/٢/٢٨ الشريف المرتضى هو شقيق الشريف الرضى ولزكى مبارك كتاب بعنوان : عبقرية الشريف الرضى ، وقد رحل زكى مبارك عن عالمنا قبل المناقشة .

(٢) ١٩٤٩/١/١١

(٣) ١٩٤٩/٥/٧

مصر

كان اسم مصر في بالي في جميع مازرت من البلاد من أمثال مارسيليا وليون وباريس وفرساى ودمشق وبيروت وبغداد والبصرة والموصل وكركوك وأسيوط والأقصر وأسوان ، إلى آخر مارأيت من البلاد .

زكى مبارك

صديق انجليزى كان زميلى فى السربون قال : أنا فى الغد مسافر إلى طبرق وهى ميدان قتال مخيف وأنا بدرجة كولونيل ولايجوز أن أتخلف ، وإن وقع ما أتوقع وهو الموت فى ساحة القتال فهذه صورتى هدية إليك فتفضل باهدائى صورتك ، فأخرجت من جيبى "أبونيه المترو" ونزعت الصورة وقدمتها إليه ... قال وهو يودعنى : كنت أتمنى أن تحب بريطانيا من أجلى .

فقلت لو أبقى حب مصر مكانًا فى قلبى لوهبته لبريطانيا إكرامًا لك ياصديقى (١) .

إلى قراء البلاغ (٢) :

حضر السيد كانبير إلى بيتى وكان مدير الدعاية البريطانية لألقى محاضرات فى محطة الإذاعة بمدينة القدس عن الديمقراطية فى الاسلام ، وقال إننى سأنزل ضيفًا على الدعاية البريطانية وسآخذ خمسين جنيها عن كل محاضرة .

---

(١) ١٩٤٧/٨/١١

(٢) ١٩٤٧/١٢/٧

فقلت : أنا أحترمك لأنك تخدم وطنك ، والخدمة الصحيحة أن أكون رجلاً يرفض مليما من الدعاية البريطانية .

فقال المسركانبير · أنت ستتكلم عن الديمقراطية في الاسلام .

فقلت : المعنى مفهوم .

فقال : إن أهل فلسطين يحبون أن يروك .

فقلت : سأزورهم عندما أجد فلوساً فى جيبى .

فقال المسيركانبير : لقد استخدمنا كثيراً من أمثال فلان وفلان وعجزنا عن استخدامك .

فقلت : لأنى الدكاترة زكى مبارك .

مرت ظروف حمدت فيها ذلك الجهل لأنه على قبحه كان عنوانًا على الشخصية الاستقلالية ... وتفصيل ذلك أنى أقمت عدداً من السنين فى باريس وكنت ألقى فيها ناسا من النمسويين والبولونيين والهولنديين والألمان فكان يتفق أحيانًا أن يجرى ذكر اللغة الانجليزية فكنت أعلم أنى أجهلها كل الجهل ، فكانوا يقولون : وكيف يصلح ذلك ومصر فى قبضة الانجليز ؟

فكنت أجيب : إنكم واهمون ، إن مصر ليست فى قبضة الانجليز وإنما هى ملك لأبنائها الصناديد . واللغة الانجليزية فى مصر لغة أجنبية يرغب فيها من يشاء وآية ذلك أنى أحمل أكبر الألقاب العلمية بدون أن أتعلم الانجليزية (١) .

هؤلاء الإنجليز (٢) :

الأخبار لاتزال كما كانت عليه ، فهم باستمرار يسرقون ويأخذون ما فى جيوب الناس ، ما الحق الذى بيد الإنجليز ؟ وما حجتهم فى احتلال وادى النيل ؟

هنيــئــا لليـــالى مـــا تعـــانى	من الأرزاء والمحـن الثــــقـــــال
دخلنـا الحـرب كم كـانـوا طغـاة	أباحـــوا الظلم فـى ذاك القــتـــال
كـتـائب مصـر أسقـتـهم كئوسًـا	من الـنيـــران لم تـخطـر ببـــال

(١) مقتطفا من كتاب اللغة والدين والتقاليد صفحة ٢٩ من كتاب الهلال سنة ١٩٩١

(٢) ١٩٥١/١٢/١ ، وبقية أبيات القصيدة على صفحات ديوان قصائد التاريخ .

الوطن الذى يحفظ الجميل (١) .

مات المارشال جوفر فى باريس فخفقت لموته قلوب الفرنسيين جميعًا ، وأعلن الحداد العام على الرجل الذى كسب موقعة المارن ، وأخذت الجرائد والمجلات تنشر ما عرف ومالم يعرف من أخباره وصوره وأعماله منذ كان يافعًا إلى أن اختطفه الموت .

وقد أثار هذا الحادث فى نفسى أشجانًا محرقة : فقد التفت الذهن من فرنسا التى تحفظ الجميل إلى مصر التى تنكر الجميل .

وإنى لأرجو أن يحتمل القراء وقع هذه المؤاخذة فإنى لا أرضى أن أتملق عواطفهم وأهواءهم ، وأظهرهم بمظهر الأوفياء لوطنهم وقومهم ، على حين يرتطمون فى أوحال العقوق .

كل شىء يتقدم فى مصر إلا عاطفة الواجب نحو الجنود الذين خدموا الوطن فى أمانة وإخلاص .

والذى يعيش فى باريس يأخذه العجب مما انتشر فى هذه المدينة من مئات التماثيل ، ويكفى أن يتجول الرجل من حى إلى حى على قدميه ليعرف تاريخ فرنسا العلمى والأدبى والسياسى عن طريق التماثيل .

ولكن لايحسب القراء أن التماثيل تقام لمن هزوا فرنسا وأشعروها بوجودهم وفرضوا عليها الوفاء لهم ... كلا ، ففى أكثر الأحيان تقام التماثيل لرجال لم يكن يخطر ببالهم أن سيكون لهم ذكر مأثور بعد الممات ، وإنما يتنبه الشعب إلى مزايا رجاله وخصائصهم وتفوقهم فيما انقطعوا له من علم أو أدب أو طب أو سياسة أو قانون ، وليس له شيعة ولاحزب ولا أنصار ، وكل ما فى الأمر أن بعض المنصفين تنبه إليه ودعا الحكومة إلى إنقاذ ذكراه من جور الخمول .

والذين يستحقون الذكر فى فرنسا لا يمجدون فقط فى بقعة واحدة ، وإنما تنتشر أسماؤهم فى جميع المقاطعات والأقاليم ؛ فاسم فيكتور هوجو مثلاً يطلق على عدد كثير

---

(١) من على صفحات كتاب البدائع ج ٢ صفحة ١٥٨

. من الشوارع والميادين فى مختلف القرى والحواضر الفرنسية ، وكذلك اسم جان جاك روسو وفوكتور وموليير ومن إليهم من رجال العلم والأدب والفن والسياسة والتشريع .

هذا فى فرنسا ، أما فى مصر ؟

أنا لا أذكر أنه أقيمت فى مصر تماثيل شعبية ، فإن التماثيل القليلة يرجع السر فى وجودها إلى بعض الرغبات العالية ، أما الشعب نفسه فيحتاج إلى من يهذب ذوقه ويروضه على تقديس الأوفياء من زعمائه ومعلميه .

وحسب القارئ أن يذكر أنه كان من الممكن أن تتلاشى فكرة تمثال سعد زغلول ، ولولا قوة الوفد لوضع ألف غطاء على تمثال سعد وضريحه ، وكان من الجائز أن نشهد هذه المهزلة ونحن أحياء .

فإذا خلينا سعد باشا جانبًا ورجعنا إلى مصطفى كامل تبينا الحقيقة فإن تدهور الحزب الوطنى كان كافيًا لأن ينسى معه اسم مصطفى كامل ومحمد فريد ، وكان على الشعب أن يفهم أن زعماء الحزب الوطنى الأولين غير مسئولين عن "البرودة" التى يحب فيها أشياع الحزب الوطنى فى الوقت الحاضر .

وقد أذكر أن الوفد المصرى تقدم فى أواخر سنة ١٩١٩ إلى الإحتفال بتأبين محمد فريد فدل بذلك على تقديره لعظمة الرجل مع أن الخصومة بين الوفد والحزب الوطنى كانت إذ ذاك أحر ما يكون .

هذا حظ رجال السياسة والوطنية فى مصر مع ما لهم من الأثر الفعال فى طبع أسمائهم فى الرءوس .

أما رجال العلم والأدب والتشريع الذين يعملون فى تواضع وهدوء فإن نسيانهم حتم لاريب فيه ، فكم فكر الناس فى إحياء ذكرى إسماعيل صبرى باشا ثم سكتوا ، وكم صاح الصائحون بإحياء ذكرى الشيخ محمد عبده ثم هجعوا .

ومع هذا العقوق لا يزال فى مصر ناس يشقون لتسعد أمتهم ويموتون لتعيش ، وبفضل هؤلاء الضحايا : ضحايا نكران الجميل يحيا الكافرون الجاحدون .

القاهرة

إن القاهرة أصبحت تضارع أكبر الحواضر الأوربية والأمريكية ، وفيها خصائص تفردت بها بين حواضر الشرق وحواضر الغرب ، وهى الشاهد على أن اللغة العربية صالحة للسيطرة والاستعلاء [1] .

أليس من مفاخر العروبة أن يكون لها حاضرة مثل القاهرة ؟

إن من حق جميع العرب والمسلمين أن تنشرح صدورهم حين يتذكرون أن لهم عاصمة تجمع بين الملائكة والشياطين ، وتؤلف بين الهدى والضلال .

وما الذى تطلبه القلوب والعقول والعيون ثم لا تجده فى القاهرة .

لقد سمعنا أن الدنيا ستصلُح يومًا فيعيش فيها الحَمل بجانب الذئب ، والظبى بجانب الغَضَنْفَر ، والحمامة بجانب الثعبان .

وقد تمَّ ذلك أو كاد فى القاهرة : فهى اليوم ملتقَى الناس من جميع الأجناس .

إن كنت عربيًا فلك فى القاهرة إخوان ، وإن كنت عجميًا فلك فى القاهرة أمثال ، وإن كنت أوربيًا أو أمريكيًا فلك عِصاباتٌ ترعاك من سكان العالم القديم والعالم الجديد .

فى القاهرة جرائد ومجلات بأشهر اللغات ، فتقرأ فيها مطبوعات بالفارسية والتركية والأردية والصينية واليابانية والروسية والألمانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية واليونانية .

أما اللغة العربية فلها فى القاهرة سلطانٌ لم تظفر بمثله يوم استظلتْ بأفياء قُرطبة وبغداد .

---

(١) من على صفحات كتاب ليلى المريضة فى العراق صفحة ٢٩٤

والشاب العربُّى لا يستطيع أن يقرأ ما تُصْدِره مطابع القاهرة فى كل يوم من كُتب وجرائد ومجلات ، ومن هنا كان العرب فى القاهرة ينقسمون إلى جماهير مختلفات الأذواق : فلحى الأزهر قرَّاء ، ولحّى الحلمية قرّاء ، ولقهوات شارع عماد الدين وشارع فؤاد قراء ، ولسكان الجيزة قراء ، ولمصر الجديدة قراء ، وللزيتون وحدائق القبة قراء ، وللمعادى وحلوان قراء ، ولكل حزب من الأحزاب السياسية والدينية جرائد ومجلات ، ولكل جماعة ألوانٌ من الأذواق والآراء .

القاهرة تحتاج اليوم إلى رجلين لتأريخ ما فيها من جِد ومُجون .

تحتاج القاهرة إلى رجل مثل الجاحظ ليدوِّن ما فيها من المذاهب الأدبية والفلسفية والدينية والاجتماعية .

وتحتاج إلى رجل مثل بديع الزمان يدوِّن ما فيها من أخبار الهزل والمجون وحيل اللصوص .

القاهرة اليوم مدينة خطرة جداً : ففيها يشتبك الجد والهزل ويصطرع الهدى والضلال .

فى القاهرة طوائف من المغفَّلين ، وطوائف من المحنكين ، ويكفى أن يكون فيها الأزهر والجامعة المصرية .

فى القاهرة أقطاب الملحدين وأقطاب المؤمنين .

فى القاهرة خُلفاء الحسن البصرى وخُلفاء إبليس .

فى القاهرة أتباع القرآن والتوراة والإنجيل .

فى القاهرة أبناء الدنيا وأبناء الآخرة ، والموعودون بالنعيم والجحيم .

فى القاهرةأحياء باريسية ، وأحياء بغدادية ، وأحياء دمشقية ، فيها مَشابه من جميع البقاع وجميع البلاد .

فيها منازل لا يدخلها الفأر بسبب النعمة ، ومنازل لا يدخلها الفأر بسبب الجوع .

فى القاهرة ناسٌ يموتون من الظمأ ، وناس يموتون من الشراب .

فى القاهرة خدودٌ تجرحها خطرات النسيم ، وفيها وجوه تعجزُ عن لَفْحها النيران .

ومن الذى يصدِّق أن فى أدباء القاهرة رجالاً لهم مطابع لنشر مؤلفاتهم الخصوصية ؟

من الذى يصدِّق أن فى القاهرة مئات من الأدباء لهم فى منازلهم مكتبات تشتمل على الألوف من نوادر المخطوطات ؟

من الذى يصدِّق إبليس يقف مبهوتًا أمام حيل الفجور فى القاهرة ؟

من الذى يصدِّق أن رُضوان ينتظر أن لا يجد مكانًا فى الجنة بعد أن يحتلها القاهريون ؟

من الذى يصدِّق أن أن أهل القاهرة يملكون من الحرية الصحفية ما لا يملك أهل باريس ؟

من الذى يصدِّق أن القاهرة تملك أكبر مجموعة من الوجوه القباح والوجوه الصبِّاح ؟

القاهرة !

القاهرة !

رحم الله القلب الذى يتفطر لحرمانه من نعيم القاهرة !

أليس فى القاهرة محطة باب الحديد ، ومحطة الليمون ، ومحطة حُلوان ؟

أليس فى القاهرة شارع عماد الدين وشارع المدابغ وشارع فؤاد ؟

أليس فى القاهرة مكان يُحَرم أديمه من أقدام الأسود وأقدام الظباء ؟

***

تنظر فى شوارع القاهرة فترى شيخًا يُهطع لإلقاء عظة فى مسجد ، وترى فتى متأنقًا يمضى إلى موعد غرام فى مصر الجديدة أو حُلوان ، وترى رجلاً يحمل أوراقه

ليناقش الميزانية فى مجلس النواب ، وترى فتاةً تصاولك بعينين مصوغتين من السحر الحرام أو الحلال ، وترى فقيراً مسكيناً يستجدى لقمة يتبلّغ بها فى الصباح أو فى المساء .

القاهرة !

لَطَف الله بأهل القاهرة !

فى القاهرة مئات من الأندية الخصوصية والعمومية ، وفيها ألوف من الزوايا والمساجد والحانات .

ألم تسمعوا أن الحكومة المصرية غضبتْ مرة فأغلقت عدة جرائد فى يوم واحد ؟

عدة جرائد ؟

إى ، والله ، عدة جرائد ، كان لها محررون وقراء ومشتركون ، وإن ضعف بعضها وهان .

فى القاهرة جرائد لا يقرأها غير الرجال ، وجرائد لا يقرأها غير النساء .

ولكل حى من أحياء القاهرة ضروبٌ من الرموز والإشارات .

ولكل فئة من الصالحين والماجنين أساليب فى الرمز والإيماء .

فى القاهرة قهوات سيدنا الحسين وسيدنا عماد الدين !

فى القاهرة مائة زاوية للصوفية ، وفيها مائة غُرْزَة لتدخين الحشيش !

القاهرة !

من الذى يستطيع أن يتعقّب حركات العقول والأهواء فى القاهرة ؟

من الذى يستطيع أن يحاور فى الصباح والمساء رجال الصحف الصباحية والمسائية ؟

من الذى يتسع وقته لمسامرة الصحفيين القاهريين بعد نصف الليل ؟

من الذى يستطيع أن يسجِّل حركات القاهريين قبل الشروق ؟

من الذي يفهم أن أهل القاهرة يموتون قبل الأوان بسبب الإفراط فى الكدح والكفاح ؟

من الذى يصدق أن من أهل القاهرة من يملأ الدنيا بالنشاط والحركة وفى جوفه خمسون علة ؟

من الذى يصدق أن فى القاهرة ألف خطيب فى فصاحة سحبان ؟

من الذى يصدق أن الأمان ذهب من القاهرة بسبب الإفراط فى المنافسة والنضال ؟

من الذى يصدق أن زكى مبارك سيؤلف كتاباً فى مثالب زكى مبارك ؟

آه ، ثم آه !!

هذه القاهرة صارت موئل الخائفين ، وهى لأهلها مصدَر خُوف .

يستطيع أصغر متعلم فى أى بلد عربى أن يحتل أكبر المناصب ، ولا يستطيع أكبر متعلم فى القاهرة أن يصل إلى القوت إلا بشق النفس .

من الذى يصدق أننا نضيق عن ملاقاة الأهل والمعارف والأصدقاء فى الأعياد ؟

من الذى يصدق أننا لا نرى شوارع القاهرة إلا كما يراها المعَجلون من عابرى السبيل ؟

فى القاهرة موسم الشتاء حيث تُحشَر فيها غرائب الجمال من جميع الصُنوف .

وفى القاهرة موسم الصيف حيثُ تصل لياليها إلى أبعد حدود الحسن والطيِّب .

وفى القاهرة تُعرَض جميع الفنون من الشعر والتمثيل والرقص والغناء .

وفى القاهرة تُسمَع أصوات محمد رفعت وفتحية أحمد وحياة محمد وأم كلثوم وعبد الوهاب .

ولكن أين الوقت الذى نتابع به ما فى القاهرة من غرائب وأعاجيب ؟

فى القاهرة كل شىء ، وليس لنا منها شىء ، نحن المجاهدين المكدودين الذين كتب الله عليهم الفناء فى سبيل المجد أو فى سبيل المعاش .

هنيئًا لمن يزور القاهرة وعنده ذخيرة من الوقت والمال والعافية .

وبؤسًا لمن يعيش فى القاهرة بالسَّماع لا بالعِيان .

ما أنت يا قاهرة ؟

وصدق من سمّاك "قاهرة" فالقاهرة فى عُرف أهل مصر هى المرأة اللَّعُوب !

***

كيف أعيش فى القاهرة وأنا أشتغل سَبْعَ عشرةَ ساعة فى كل يوم ؟

كيف أعيش فى القاهرة ولى فى البيت شاغل ، وفى عملى شواغل ؟

كيف أعيش فى القاهرة ولى فيها ألوف من الأعداء والمنافسين ؟

كيف أعيش فى القاهرة وأنا معرض فى كل يوم لفتنة المباسم والعيون ؟

كيف أعيش فى القاهرة وهى قاهرة ؟

قال اللائمون : كيف تؤلف كتابًا عن "ذكريات باريس" وكتابًا عن "وحى بغداد" ولا تؤلف كتابًا عن "فتن القاهرة" وما يعلم اللائمون أنى أسأل الله السلامة من الفتن ، وما ظهر منها وما بَطَن ، ولا يعلمون أن رِماح الداء لا تطعن فى الجُسوم كما تطعن رماح القاهرة فى القلوب .

وهل نستطيع معاقرة الحُب فى القاهرة وإلى من يمشى فى شوارعها وُجِّه هذا الخطاب :

وإنك لو أرسلت طَرفك رائدًا ... لقلبك يومًا أتعبتك المناظرُ

رأيت الذى لا كلَّهُ أنت قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

وأين المدينة التى تزاحم القاهرة فى مُساورَة القلوب والعقول ؟

وأين المدينة التى تُضِلُّ وتَهدى كما تُضل القاهرة وتهدى ؟

إن الشيطـان يجـد فـى القاهـرة مراتع لا يجدها فى لَنْدن ولا باريس ولا رومـا ولا برلين . هى صلِة الوصل بين الشرق والغـرب . والجمـالُ المُخَضْرَم هـو أفتن ضروب الجمال .

***

لقد هربتُ من القاهرة وسكنتُ بمصر الجديدة فى منزل يواجِه الصحراء ، فهل أرانى مع ذلك نجوتُ من فتِن القاهرة ؟

وكيف أنجو وهى تلاحقنى عن طريق الإذاعة اللاسلكية وطريق التليفون ؟

وكيف أنجو من القاهرة وكان سِحرها يتعقبنى فى باريس وفى بغداد ؟

وكيف أنجو من القاهرة وهى قاهرة ؟

أردت أن أخصص يومًا من كل أسبوع لمشاهدة ما يجدُّ فى مكتبات القاهرة فضاق الوقت .

وأردت أن أخصص يومًا لمشاهدة ما يجدّ فى ملاهى القاهرة فضاق الوقت .

وأردت أن أخصص يومًا لمحاورة الصحفيين بالقاهرة فضاق الوقت .

وأردت أن أخصص يومًا لمواجهة ضيوف القاهرة فضاق الوقت .

وأردت أن أخصص يومًا لمسامرة أطفالى فضاق الوقت .

وأردت أن أخصص يومًا لمحاربة أعدائى فضاق الوقت .

وأردت أن أخصص يومًا لمجاهدة نفسى فضاق الوقت .

وأردت أن أخصص يومًا لقتل ما فى صدر زوجتى من عقارب الغيْرة فضاق الوقت .

فمن أنا فى القاهرة ومن أنا فى دنياى ؟

الأدب الشعبي في مصر الحديثة

نشر مدير جامعة فاروق الأول إعلانا بجريدة البلاغ في مساء ١٩٤٨/٥/٨ باسم عميد كلية الآداب في جامعة فاروق وهو تلميذي العزيز الأستاذ عبد الحميد العبادي عن مسابقة ؛ والمسابقة جائزة أعدها المسيوابرامينوبرشيلون قدرها ٦١ جنيها ، ويقدم البحث قبل آخر ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، وموضوع المسابقة الأدب الشعبي في مصر الحديثة [١] .

انتهزت الفرصة وقدمت طلبًا إلى العبادي بك ، ومضيت إلى الإسكندرية وقيدت اسمي ... إنها فرصة طيبة لخلق شواغل جديدة وتأليف كتاب جديد والذهن يركد إذا تركناه بلا أشغال .

إذا تركت البئر على حالها ولم تأخذ منها ماء أسن ماؤها ، ولكنك إذا أخذت منها ماء في كل يوم تنبهت عيونها وجادت بالماء الصافي السليم ، والذهن كذلك إذا تركته بلا شغل صدئ ، فإذا واليته بالتفكير انصقل [٢] .

---

(١) أخذت هذه السطور من على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٩٤٨/٥/١٧ و ١٩٤٨/١٢/١٢ و ١٩٤٩/١١/٢٩

توفي الدكتور زكي مبارك قبل أن تنظر اللجنة في موضوع البحث ، وقد أبلغني أخي الأكبر بأن أخي عبد السلام قد سحب البحث قبل انعقاد اللجنة ... وعندما عاد أخي عبد السلام من باريس سألته فأجاب بأنه لم يسحب البحث ... إذن البحث سرق ... فمن الذي سرقه ؟

أنا على يقين بأن البحث لو لم يسرق لنال الدكاتره زكي مبارك الجائزة الأولى عن بحثه عن الأدب الشعبي في مصر الحديثة وبهذا كنا رأينا زكي مبارك في مجال الريادة في فنٍ آخر من فنون الأدب .

من صفحة ٥١ من كتاب "زكي مبارك" والذي صدر عن سلسلة "أعلام ومشاهير" بإشراف الدكتور رؤوف سلامة موسى والذي صدر بدار مطابع المستقبل نقرأ : "عندما انتقل طه حسين للإسكندرية لتأسيس جامعة ، انتهز فرصة عدم توافر الأساتذة من حاملي شهادات الدكتوراه لدفع محاسيبه من يحملونها أولا يحملونها" .

كان الأستاذ عبد الحميد العبادي من تلاميذ الدكتور زكي مبارك ... ولا أحب أن أزيد !!

(٢) ١٩٤٨/٥/١٧

وأنا أحب أن أشغل نفسى بما يفيد وبما لا يفيد لأنسى همومى بزمانى [1] ...

ولكن حادثًا يقع وهو ظهور كتاب الأمثال العامية للمغفور له أحمد باشا تيمور [2]

اشتريت كتاب أحمد تيمور باشا وقضيت فيه سهرة كاملة فظفر منى بالإعجاب ، والغريب فى أمر هذا الرجل أنه كان متمكنًا فى اللغة العربية بصورة جعلت منه جاسوسًا على القاموس ... ولكنه مات قبل أن ينشر تلك التحقيقات .

ابنه محمد تيمور مات فى صباه وكان يؤلف روايات تمثيلية ويشترك فى التمثيل .

الباقى من العائلة هو الأستاذ محمود تيمور بك وهو مبدع الأقاصيص فى هذا الجيل ، وهى روايات تمثيلية يكثر فيها الضحك بصورة ملحوظة فما السبب ؟

يرجع السبب إلى أن الأستاذ مات ابنه الوحيد وكان تلميذا فى المدارس الثانوية فحزن عليه

فهو لذلك يؤلف روايات مضحكة لعله يضحك مع الضاحكين .

أنا لم أر تيمور باشا وأتذكر أنى حضرت حفل التأبين وفيها ألقى الشاعر على الجارم قصيدة أذكر منها هذا البيت :

نـأكـل الأرض ثم تـأكـلنـا   دواليك أفـرعـا وأصـولا

وأتذكر قصيدة الأستاذ حسين شفيق المصرى فقد ابتدأها بهذا البيت الحزين :

لم تدع لى الأيام دمعًا يراق   فـبكاى الذهول والإطراق

إلى الأستاذ محمود تيمور بك [3] :

أنت يا صديقى أرسلت خطاب شكر على ما كتبته عن أبيك أحمد تيمور باشا فى جريدة البلاغ ، وما كتبته عن أبيك لوجه الله ولوجه الأدب ولوجه الحق .

---

(١) ١٩٤٨/٥/٢٨

(٢) ١٩٤٩/٢/٢٨

(٣) ١٩٤٩/٣/١٤

وما كنت أنتظر منك خطاب شكر ، فعملي في الصفحة الأدبية هو إرشاد قراء البلاغ إلى ما يجب أن يقرأوه من الأدب الصحيح والفكر السليم .

ومن الأدب الشعبى هذا البيت [1] :

بحر المحبة بنار الشوق عديته

وأنا قدمت بحثا عن الأدب الشعبى لكلية الآداب بجامعة فاروق ولكن الكلية لم تنظر فى البحث وقد مضى عليه ثلاث سنين .

وأخيراً شكوت العبادى بك على صفحات البلاغ فأرسل يقول إنه شكَّل لجنة للنظر فى الأبحاث التى قدمت فى الموضوع .

---

(١) ١٥١/١/٩ .

أدباء مصر الجنوبية

مصر الجنوبية هى السودان ، وهو تعبير جميل ويزيده جمالاً أنه لم يصدر أول مرة إلا عن أدباء تلك البلاد .

والحق أننا فرطنا فى حق السودان كل التفريط من الوجهة الأدبية وإن لم نغفل عنه من الوجهة السياسية ، ولو أننا بذلنا فى خدمة السودان أدبيًا معشار ما بذلنا فى خدمته سياسيًا لوصلنا إلى نتائج باهرة في توحيد القلوب بين من يقيمون هنا ومن يقيمون هناك ، ولكننا تركنا أمر السودان للساسة ؛ والساسة عندنا لا يفكرون كثيراً فى الوسائل التى تجعل تعاطف سكان وادى النيل أمراً طبيعيًا لا يحتاج إلى تعب أو نضال .

ومن العجيب أن يفكر السودان فينا قبل أن نفكر فيه فهو يهتم بأخبارنا ويساير حياتنا الأدبية والاجتماعية والسياسية ويرى من الواجب أن يتعرف إلينا فى كل وقت ، فأين نحن من هذه الشمائل الروائع .

أين الباحث الذى فكر فى قضاء شهر أو شهرين فى السودان لدرس ما هنالك من تطور فى الآداب والفنون والأذواق ؟

أين الشاعر الذى رأى من واجبه نحو وطنه أن يستلهم الوحى من منابع النيل ؟

أين المؤلف الذى خاطر بجزء من وقته وماله ليخرج كتابًا عن السودان ، وهو اليوم فى يقظة أدبية تستحق التسجيل ؟ (مع عرفان الفضل للباحثين داود بركات وعبد الله حسين) .

ولنفرض جدلًا أن السودان لا يرتبط من الوجهة القومية أو السياسية فكيف يغيب عنه أن السودان قطر أصيل فى العروبة وأن أهله من النماذج الجميلة لأدب النفس وشرف الوجدان ومن كانوا كذلك فهم جديرون بعناية الباحثين والمفكرين من كتاب وشعراء ؟

الفطرة السليمة لاتزال من حظ أهل السودان ، ولو أن معالى الدكتور هيكل باشا كان أقام بينهم مدة أطول من المدة التى أثمرت كتابه الطريف "عشرة أيام فى السودان" لظفر بمحصول نفيس من تقييد الأوابد من مكارم الأخلاق .

أقول هذا صادقًا فما أذكر أبدًا أننى رأيت ما أكره فيمن عرفت من السودانيين ، فالسودانى مفطور على طيبة القلب ، وهو يرى نكران الجميل من أفظع العيوب وله بوارق من الذكاء تؤهله لاحتلال الصف الأول بين رجال الفكر إذا ظفر بالتوجيه الرشيد .

فمتى نعرف واجبنا نحو أدباء مصر الجنوبية ؟

ومتى نفهم أن الأخوة لها حقوق ؟

أما بعد ... فأنا أتأهب لكتابة سلسلة من المقالات عن الأدب الحديث فى السودان ، ولكن المصادر بعيدة عنى إلا شذرات قليلة قدمها إلىَّ أحد أعضاء النادى السودانى بالقاهرة وهى شذرات لا تحقق ما أريد فماذا أصنع ؟

كنت أتمنى أن تتاح فرصة لزيارة السودان والوقوف على أخبار الحياة الأدبية هناك لأحدِّث قراء "الرسالة" فى جميع الأقطار العربية عن إخوان مجهولين حفظوا عهد العروبة والإسلام فى بلد جميل يغفل عن جماله أكثر العرب والمسلمين .

كنت أتمنى أن أرى السودان ولو فى وقدة الصيف لأقول لإخوانى هناك : إن مصر لا تنساكم ولن تنساكم ولو ضرب بينها وبينكم ألف حجاب .

فمتى أرى السودان ؟ متى ؟ متى ؟ متى ؟

سأسارع فأراه فى وجوه شعرائه وكتابه وخطبائه فى حدود ما أصل إليه من آثارهم الأدبية إلى أن يمن الله بزيارة أشرب فيها ماء النيل كما شربت ماء الفرات .

متى أشرب أول كوب من النيل وأنا بنادى المعلمين فى الخرطوم ، كما شربت أول كوب من دجلة وأنا بنادى المعلمين فى بغداد ؟

اللقاء قريب يا إخواني في السودان فسأتحدث عن أدبكم بعد أسابيع على شرط أن تذكروا أن الخطأ يغلب في الحكم على المجهول ، وقد قضت الأقدار بأن تكون أحكامي على أدبكم منقولة عن السماع وهو يخطيء أكثر مما يصيب .

أما وفاؤكم لمصر فلن يجزيكم عنه قلمي وإنما يجزيكم عنه من شاءت إرادته العالية أن تكونوا مضرب الأمثال في الصدق والمروءة والإخلاص .

مصر الجنوبية[1]

بعد أن نقلت جرائد السودان ماكتبته فى جريدة البلاغ عن مصر الجنوبية أرسل الشاعر الأستاذ محمد سعيد العباسى قصيدة تحية فلم أنشرها ، ولكنه نشرها فى الديوان وسماها : "ساعة الصفا لحضرة الدكتور زكى مبارك" وهذا فى نظرى تشريف عظيم لكاتب الصفحة الأدبية [2] .

القصيدة تقع فى ست صفحات ، المهم أذكر شوقه إلى مصر وقد خرج وهو حزين

فلو كـان لى علم مـا فى غـد	لما بعت مـصـر بسـودانيـهْ
وودعــتـهـا أمس لا عن قلى	ولم تكن النفس بالساليـهْ
رعى الله مـصـر فكم للأديب	بهـا ثم من عـيشـة راضيـهْ
بنى مصر حياكمو ذو الجلال	بعـرف تحـيـاته الذاكـيـهْ
وأسدى بإحسـانه منعـمًا	لكم كل صـالحـة باقـيـهْ
بكم نحدث اليوم أم اللغات	كحسناء فى حلل ضـافـيـهْ
حـملتم بمصـر وبالمشـرقين	رسـالة آدابهـا العـاليـه
أجل وشأوتم بسحر البيان	عـباقـرة الأعـصـر الخـاليـه
بيـان هو البـدر فى تمه	يشق حشا الليلة الداجيـه

(١) على صفحات مجلة الرسالة فى ٢٧ يناير سنة ١٩٤١

(٢) البلاغ فى ١٩٤٩/١٠/١١ ... والشاعر محمد سعيد العباسى هو من كبار شعراء السودان .

وكـــالورد يعـــبق مطلوله أو المسك أو جـوفـه الغـاليـه

أزيلوا فـد يتكمـو وحـشـتى بمحكمـة للنهى شـافـيـه

يراح ويغـدى بنا مـثلمـا يسـاق القطيع من الماشـيـه

وسـادتنا قـد أجـادوا نعم وما أنكروا غيـر (لا) النافيه

تاجوج :

نقرأ أولا قول الشاعر محمد سعيد العباسى :

فـيـا ابن المبـارك عش سـالمًا وبـورك فـى زنـدك الـواريـهْ

تغنيت حـينًا بليلى العـراق فـأحللتـهـا الرتبـة السـامـيـة

فـمـد لنا فـضل ذاك العنان عنان يراعـتك الطاغـيـه

وألمم بتـاجـوج واحـفل بهـا فـتـاجـوج جـوهرة البـاديه

وعلق على جـيـد تاريخـهـا لألىء أبحـرك الطامـيـهْ

أما ليلى المريضة فى العراق فهى شخصية خلقتها بخيالى يوم كنت أستاذ الآداب العربية فى بغداد وفيها أنشأت كتابا فى ثلاث مجلدات .

أما تاجوج فيقول الشاعر إنها كانت فتاة رائعه الحسن والجمال من قبيلة الحمراء بالسودان .

والشاعر السيد محمد سعيد العباسى هو من أعظم شعراء السودان وقد نظم هذه القصيدة وهو حزين لفراق مصر فرأيت أن أرد عليه بهذه القصيدة :

أخا الشعر لا روعتك الخطوب ولا اشـتعلت نارها الحـامـيـهْ

ولا زلت فى زهرات النعـيـم تعـيش من الدهر في عـافـيـه

وتشـرب من رشـفـات النعم بأيد بكأس الهـوى سـاقـيـه

وتمرح لا شـاعـراً بالزمـان ومـا فـيـه من كـرب باغـيـه

وترفل في حلل من نعيم ... على القلب سابغة خافيهْ
وتمضي إلى الحسن في خدره ... وقد سكرت عينه الغافيه
وعنك يغيب الرقيب الأثيم ... فلا عين واش ولا واشيه
نجدد بالحسن أحلامنا ... بروح بأسر الهوى راضيه
ونجني عليه كما قد جني ... ونسلبه النعمة الباقيه
ذكرت شباباً مضى وانقضى ... فما هذه الأدمع الجاريه
أراها بخدي إذا ما بكيت ... حرائق من أدمع كاويه
وتلهو بذكرى الهوى مهجتي ... فيا لك من مهجة لاهيه
رماني الزمان بأحداثه ... وليست حظوظي بالراميهْ
إلى الغرب غربت حتى اشتويت ... وفي الغربة اللوعة الناريه
إلى الشرق شرقت حتى شرقت ... بدمع هو المزنة الهاميه
وعدت إلى الدار أشكو بها ... ضلالا هو الظلمة الهاويه
إذا طال هذا الزمان البغيض ... فإني سألقيه في الهاويه
تذكرت أيامي الماضيات ... على أنها أسيف ماضيه
خزنت دموعي لأسقي بها ... فؤاداً له الخمر في الخابيه
وجردت سيفي لأسقي به ... عواذل في تلكم الطابيه
وما كان عذل المحب الصدوق ... سوى نفثة مرة عاديه
وما عذل مكتئب في هواه ... أضرت به الهمم العاليه
وعاش بعصر كثيف الظلام ... هو الكرب في الليلة الداجيه
إذا قلت ولى زمان الكروب ... أتت بعده أزمن قاسيه
وما في حياتي سوى لوعة ... تؤججها دمعتي الحاميهْ

كتاب راية الحرية الأدبية [1]

لقد وضع الورق فى التسعيرة الجبرية قبل أن يوضع الفول ، ومع هذا لا يفهم ناس أن قوت العقول يسبق قوت البطون .

تستطيع الشعوب أن تجلس علي عرش الملك من تشاء ولكنها تعجز عن خلق الأديب ؛ لأن الأديب من إبداع المبدع الوهاب .

إن رجال القلم هم أصلح الناس لسياسة الدولة .

نحن نبخل بالحكم لقطعة شعرية أو نثرية حين نراها بعيدة عن الجهد المستطاب ، مع أن الحكم لقطعة شعرية أو نثرية لا يقدم ولا يؤخر فى سياسة البلاد .

فى الطريق إلى الوحدة العربية :

كثر التحدث فى هذه الأيام عن "الوحدة العربية" وذلك يشهد بأنها كادت تصبح من الغايات القومية فى الشرق العربى ... وهل يمكن أن تدور "فكرة" على ألسنة الملايين من العرب بدون أن يكون لها فى قلوب تلك الملايين مكان ؟

نترك السياسة جانبا ، السياسة الدولية ، وننظر إلى هذه الفكرة من الوجهة القومية فمصايرنا بأيدينا ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا سلمت ضمائرنا من الزيغ والانحراف فلن تستطيع أية قوة فى الأرض أن تصدنا عما نريد لأنفسنا من السداد والتوفيق .

(١) عنوان هذا الكتاب هو عنوان إحدى مقالات أديب الأمة العربية الدكتور زكى مبارك ؛ والسطور التى مرت بنا هى من الكتاب .

إن العقبة الأولى فى طريق الوحدة العربية هى عقبة الجنس فكثير من المسلمين يتوهمون أن الرجل لايكون عربياً إلا إذا كان من أصل عربى صحيح ، وهذا خطأ فى خطأ وضلال فى ضلال ؛ فالعربى الحق هو من انطبع على لغة العرب ولو كانت أصوله من المكسيك ، ولايجوز عندى أن ينتسب إنسان إلى العرب وهو لا يعرف من أسرار لغتهم غير أوهام وظنون .

العروبة لغة لاجنس ، العروبة لغة لاجنس ، العروبة لغة لا جنس ... ولو شئت لكررت هذه العبارة ألف مرة بدون أن أشعر بأنها حديث معاد لأن روحى يحس كل حرف من حروفها إحساساً قوياً ولو كررتها ألوف المرات .

وإذن فمن واجبى أن أثور على من يقسم بلادنا إلى أجناس ؛

وبلادنا هى جميع البلاد التى تتكلم العربية فى الأقطار الافريقية والأسيوية .

فجميع أهل مصر والسودان عرب ، وسكان أفريقيا الشمالية عرب ، والفلسطينيون والسوريون واللبنانيون كلهم عرب ، والعراقيون جميعاً عرب ، والهنود الذين يتكلمون لغتنا عرب ، وأهل فارس فى أصولهم عرب ، لأنهم نهضوا بلغتنا المحبوبة من أجيال طوال ، والأستاذ سلامة موسى عربى وإن كان يخاصمنى من وقت إلى وقت حول مكانة العرب فى التاريخ ، بل هو سليم العروبة إلى أبعد الحدود ، لأنه يتجنى على العرب بلغة العرب ... العروبة لغة لا جنس فليفهم هذا دعاة الوحدة العربية إن كانوا صادقين .

العروبة لغة لا جنس ، وهل كان أحمد شوقى عربى الأصل وهو من طلائع النهضة الشعرية فى الأدب العربى الحديث ؟

العروبة لغة لا جنس : وهل كان وهيب دوس عربى الأصل ، وهو أصدق من عرفت فى التغنى بأشعار العرب من قدماء ومحدثين ؟

وهل كان مكرم عبيد عربى الأصل وله خطب طوال تذكر بخطب سحبان ؟ ليتق الله بعض الناس فى ميراث العروبة ، وليحذروا من أن يخربوا بيوتهم بأيديهم عن علم لا عن جهل ، وزلة العالم أبشع الزلات .

وهل استطاع العرب أن يسيطروا على العالم حيناً من الزمان إلا بسبب التخلص من العنجهية الجنسية ؟

إن التحرر من ربقة الجنس هو البند الأول من وصية الزعيم العربي الأول وهو محمد بن عبد الله الذى مكن العربى من سيطرة عالمية لم تخطر لأسلافهم الأقدمين في بال . وهى سيطرة روحية لن يظفروا بمثلها إلا إن تخلقوا بأخلاق ذلك الزعيم الحصيف .

إن نبيكم صاهر أمنا لا تمت إلى العروبة بجنس ولادين ، فهل تتوهمون أنكم أهدى منه إلى سواء السبيل .

اتقوا الله فى أنفسكم وفى ماضيكم وتمسكوا بشمائل ذلك الرسول لتفوزوا كما فاز أسلافكم الماجدون ، واتقوا حاضركم فتناً لا يتعرض لشرها إلا الجهلاء والأغبياء .

العروبة لغة لا جنس فافهموا هذه الحقيقة يابنى آدم من أهل هذا الجيل .

أما العقبة الثانية فى طريق الوحدة العربية فهى عقبة الدين ؛ فقد توهم قوم أن العروبة والاسلام شىء واحد ، وبذلك كثر ارتيابهم فى صحة الأخوة العربية حين يتصل بها ناس من غير المسلمين .

والحق كل الحق أن العروبة والإسلام شىء واحد على شرط أن نفهم المراد الصحيح لهذا التعبير[١] .

الاسلام هو أصدق أثر صدر عن العرب ، ولولا الاسلام لبادت لغة العرب منذ أزمان طوال .

وإذن فمن واجب العرب من غير المسلمين أن ينظروا إلى الإسلام بعين الرفق والعطف لأنه صوتهم وصوت آبائهم وأجدادهم فيما غبر من الأجيال .

---

(١) نقلنا بعضاً من العقبة الثانية الذى ذكرها زكى مبارك فى طريق الوحدة العربية .

ذلك واجب العربى من غير المسلمين ، فما واجب العرب من المسلمين ؟

واجبهم أن يفهموا أن النصرانية واليهودية ديانتان عربيتان ... وهل نكون أعقل وأحكم من النبى محمد (ص) وقد نظر إليها بعين الإعزاز والتبجيل ، ولم يحارب غير من شوهوا النصرانية واليهودية بالتزوير والتحريف ؟

للإسلام والنصرانية واليهودية مسرح واحد هو بلاد العرب ؛ وهذه الديانات هى سلطاننا الأدبى فى الشرق والغرب ، وهى حجتنا يوم نطلب الحجج على تفوق بعض الشعوب على بعض . ولعل هذا هو السبب فى أن أكابر المسلمين فى العصور الخوالى لم يفتهم أن يدونوا ما فى التوارة والإنجيل من حكم وأمثال .

إن من المعجزات أن تكون أعظم الديانات المسيطرة على العالم ديانات عربية الأصل . فمن طاب له أن يغمز إحدى هذه الديانات فهو عربى مدخول لأنه لا يعرف أثرها فى التنويه بمجد العرب فى العالمين .

الرأى عندى أن الروحانية العربية تطورت من حال إلى أحوال فانتقلت من الموسوية إلى العيسوية ثم إلى المحمدية ؛ فهى قد تغيرت فى الفروع مع الاحتفاظ بالأصول ؛ والأصل الأصيل عندنا وعندهم هو التوحيد[1] .

---

(١) مجلة الرسالة فى ١٩٣٠/١/٢٣ .

جريدة الأفكار

لن يعرف الجمهور غير أعمالي فى التأليف وهى لم تكن إلا ثمرات انتزعت من أوقات الفراغ .[1]

أول مقال نشرته كان فى جريدة الأفكار سنة ١٩١٤ بعنوان «البدائع» ؛ وهو كتاب ظهرت منه ثلاث طبعات بعد ذلك .[2]

ففى سنة ١٩٢١ ، ١٩٢٢ كنت رئيس تحرير جريدة الأفكار وكانت لسان الحزب الوطنى ، وكان يشرف عليها بماله وجاهه عبد اللطيف الصوفانى .[3]

وكان صاحب الفضيلة الشيخ محمد شاكر يجعل سهرته فى منزل الصوفاني بك، وكانت مقالتى تقرأ فى السهرة مرة ومرتين ومرات وكانت هذه الالتفاتة تغرينى بالزهو والخيلاء .

وفى سنة ١٩٢١ كنت رئيس تحرير جريدة الأفكار وكان الأستاذ محمد الههياوى يعاوننى ، وفى أحد الأيام وجدنا الجريدة مغلقة وعليها الشمع الأحمر ، فجلسنا فى قهوة بجانب الجريدة نتحدث فأنشدنى الأستاذ قول السيد توفيق البكرى :

---

(١) مجلة الرسالة فى ١٩٣٠/١/٢٣

(٢) ١٩٥٠/١/٣١

(٣) ١٩٤٦/٦/١٤

لاتعجبوا للظلم يغشى أمة		فتنوء منه بأفدح الأثقال
ظلم الرعية كالعقاب لجهلها		ألم المريض عقوبة الإهمال

إن لله حكمة غالية فيما أراده لحياتى .[1]

وقد رجوت صديقى الأستاذ سيد إبراهيم أن ينقش لوحة فنية فيها قول الله : «وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون» .

وأنا عانيت الغربة فى حياتى بصورة مزعجة .

يجب أن ننتصر على أنفسنا قبل أن ننتصر على الحكومة ، فأنا أستطيع بعشر مقالات أحارب بها خصومى أن أكون من كبار الأغنياء ، ولكن أستاذنا الشيخ يوسف الدجوى علمنى أن المجد ، كالرزق فيه حرام وحلال .[2]

ولو أننى أتجرت بالتراب وأضعت عمرى فى طلب المال حيث توجد منابعه لصرت كما صار إليه فلان ... ولكن الفرصة ضاعت من يدى ، وأنا راض بقضاء الله .[3]

رضينا قسمة الجبار فينا		لنا علم وللجهال مال

سنة ١٩١٤ بدأت أنشر بعض الرسائل الأدبية فى جريدة الأفكار ، ولا أزال مع تقادم العهد أتذكر كيف تخيلت عنوان تلك الرسائل وكيف طاب لى أن أسميها : «البدائع» وكم تمنيت لو اتسع الوقت فأرجع إلى مجموعة الأفكار فى دار الكتب المصرية لأرى بواكير «البدائع» وأشهد كيف واجهت الجمهور أول مرة وكيف كان

---

(١) ١٩٤٧/١/٢٨

(٢) ١٩٤٥/١٠/٦

(٣) ١٩٥٠/٥/٣٠

أسلوبى فى ذلك الحين ، فإن لم يكن من بيان المنهج الذى سلكته منذ ابتدأت أكتب إلى اليوم فإنى أحدث قرائى بأن السر فى نجاحى يرجع إلى أصلين :

الصدق والوضوح ، يضاف إلى هاتين الميزتين ميزة ثالثة هى الحيوية العنيفة فى نقد الآراء ؛ فأنا فى كل ما أكتب وما أقول محارب لايرى الحياة إلا فى حومة قتال ، وليس الأدب عندى مزاحًا أتلهى به فى الأسمار والأحاديث ، وإنما هو عراك فى ميادين الفكر والعقل والخيال .

وفى هذا الكتاب فصول كان كتبها «الفتى الأزهرى» بين سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٢؛ والفتى الأزهرى صديق حميم ألف لجنة لإصلاح الأزهر والمعاهد الدينية . وكانت رسائله يوم صدورها ثورة فكرية ضج لها المسئولون فى تلك المعاهد وتركت فى أنفسهم أثرًا بليغًا ، وإنما أثبت رسائل «الفتى الأزهرى» لتكون صورة تاريخية للحياة الأزهرية ، ويسرنى أن أسجل أن الأزهر تطور فى حدود ما رسم الفتى الأزهرى من ضروب الإصلاح والتجديد لذلك البيت العتيق . (١)

وقد خلا الكتاب من الذكريات السياسية فلم تقع من ذلك غير رسالتين ؛ أولهما كتبها المؤلف وهو فى المعتقل سنة ١٩٢٠ ، والثانية كتبها أخيرا عن ذكرى شهر مارس سنة ١٩١٩. ، ولم يرد إثبات هاتين الرسالتين إلا لتسجيل حالة نفسية عاناها وأكتوى بنارها يوم كان من خطباء الثورة المصرية .

---

(١) الفتى الأزهرى هو زكى مبارك ؛ فقد كان يكتب تحت هذا الاسم ...

وهذه السطور من على صفحات كتاب : «البدائع» .

وعلى صفحات كتاب : « زكى مبارك سيرته الأدبية والنقدية» تأليف الأستاذ . نعمة رحيم العزاوى / جامعة بغداد كلية التربية والصادر عن وزارة الأعلام العراقية دار الشئون الثقافية العامة سنة ١٩٩٠ قال صفحة ١٢٢ . إن ثورة زكى مبارك على نظام التعليم فى الأزهر ونقده مناهجة وطبعة حياة الدراس فيه كانت ثورة مشروعة أضافت أديبنا إلى بحضرت المصلحين .

ويقول الأستاذ أنور الجندى فى كتاب : «زكى مبارك» . أتصل زكى مبارك بالصحافة فى وقت مبكر وكان يكتب تحت عنوان الفتى الأزهرى .

وأقول عندما أخرج زكى مبارك من التفتيش انضم بصفة رسمية إلى نقابة الصحفيين ، سنة ١٩٨٤ نال الدأرس محمد عبد الحكيم عبد الجليل الماجستير عن : «زكى مبارك صحفيًا» ، والتى قدمت بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر إشراف الدكتور إبراهيم إمام .

الشباب المصرى بين التردد والإقدام

كتب إلىَّ شاب لم يشأ ذكر اسمه رسالة جاءت فيها الكلمة الآتية :

"كتبت إليك رسالتى هذه راجيًا منك أن تطرق موضوعًا ما أحوجنا نحن شباب مصر إليه ، ألا وهو مرض التردد وخور العزيمة ، فكثيرا ما يحاول الإنسان تنفيذ خطة يرسمها فإذا به بعد أن كان متحمسا نحو هذه الخطة وما يعود عليه من نتائجها خامل يؤثر الكسل والاسترسال فى الأمانى والأحلام ، وأصارحك ياسيدى بأنى من هؤلاء وأن مثلى كثيرون ، فإنى اقتطعت دراستى والتحقت بوظيفة وأصبحت أندب حظى لعدم استكمال تعليمى ، وكل همى أن أواصل الاستذكار والتهام العلوم حتى أحصل على شهادة أقنع بها نفسى . ولكنى رغم هذه الرغبة أجد عزيمتى الخائرة تخوننى فى تنفيذ ذلك رغم محاولتى مقاومتها ... وتنقضى الأيام والشهور بل والسنون فأراجع نفسى أنى لم أتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ، وهذا ما أفزعنى من نفسى وجعلنى أقصدك كى تعالج هذا المرض ، وقد اخترتك من بين الأدباء المصلحين لعلمى أنك الرجل العصامى الذى طلب العلم وما زال يطلبه دون أن يقف فى وجهه ما يعوقه - وما أكثر تلك العوائق - فأرجو أن تقبل رجاء شاب كل ما فى استطاعته أن يدعو لك الله من قلبه ليحفظك والله ولى جزائكم بما تخدمون به الوطن والإنسانية" (١) .

ويستخلص من هذه الرسالة ما يأتى :

أولاً : عندنا شباب لا يرضون بالدون من ضغوط الحياة وتسمو بهم أنفسهم إلى احتلال الصفوف الأولى فى ميادين العلوم والآداب .

---

(١) هذه الكلمة نشرت على صفحات جريدة الأفكار وبعد ذلك ضمها كتاب البدائع الجزء الأول صفحة ٢١ .

ثانياً : يقاسى أولئك الشباب مرارة الخيبة والإخفاق أحيانًا ويودون أن لا تقف بهم جهودهم عند الأمانى والأحلام .

ثالثًا : بين أولئك الشباب من يدرس نفسه ويحاسبها حساباً عسيراً يصل به إلى الخوف والفزع والإشفاق .

رابعاً : من أولئك الشبان من يطلب الغوث ويستعين بمن تكون لديهم كلمة طيبة تنتشلهم من وهاد التردد والخور والخمود

أما أنا فلست أخشى خطراً على صاحب هذه الرسالة ، فإنها تدل على أنه يستوحش من الكسل ويتطلع إلى حياة الجد والاقدام ، والشعور بالنقص هو الخطوة الأولى نحو الكمال ؛ وسأحتفظ برسالته ليظل اسمه عندى أعرفه به يوم يقدمه جده وسعيه ، وترفعه نفسه إلى بعض ما يريد لأنه لا يصل إلى "كل" ما يريد إلا القانعون بالقليل ، والانسان اسمى من أن تقف نفسه عند مطمع مهما ابتسمت له الحظوظ .

وقديماً حدثنا ابن المقفع أن الرجل الكامل المروءة لا يرى إلا فى مكانين ولا يليق به غيرهما : إما مع الملوك مكرماً أو مع الناس متبتلاً ، كالفيل إنما جماله وبهاؤه فى مكانين : إما فى البرية وحشياً أو مركباً للملوك[1].

على أنه من الخير أن نبحث الأسباب التى تقتل رجولة الشباب فى العصر الحاضر وتحبب إليهم الكسل والخمول ، وأهم تلك الأسباب :

أولا : شعور جمهور الشباب بأن المناصب الرفيعة لا يصل إليها الرجل بالعلم الواسع والخلق المتين ، وإنما يصل إليها عن طريق السفالة والنذالة والانحطاط ، وبرهانهم على ذلك أن هناك ناساً ارتفعوا بلا مؤهلات وأنهم يتطلعون فيرون المرونة والليونة والوصولية هى المؤهلات النافعة فى هذا العصر ، وأن الاستعداد لبيع الضمير والخلق كاف لأن يصل بالمرء إلى ما يريد من المنازل العالية ، وأنهم يرون فى المعاهد

---

(١) مقتطفات من على صفحات كتاب البدائع .

العلمية وفي الدواوين شواهد كثيرة لهذه الحال ، فكم من رجل تبوأ منصبًا وهو لايدرك خطره ولا يعرف قيمته ، وإنما وصل إليه عن طريق التزلف والتسفل والإسفاف .

ومن البلية أن يكون فيمن يشغلون مناصب التعليم نفسه أشخاص لم يصلوا إلى مراكزهم إلا لأن رؤساءهم رأوا فيهم صلاحية للتجسس ونقل الأخبار ؛ وهذه ظاهرة شنيعة ملموسة الأثر في كل مكان .

وتلك الفئات الوضيعة تنشر الشر ذات اليمين وذات الشمال ، وأهون ما ترمي به الشبان من المآثم هو ما يقررونه في أذهان من يلاقون من زملائهم وأصدقائهم من أن الفضيلة خيال في خيال وأن الحزم في اقتناص الفرص قبل أن تشرد وأن الشخصية الكريمة وبال على صاحبها لأنها تحول بينه وبين طيبات الأرزاق .

ولعل الدنيا لم تفسد يومًا كما فسدت في هذه الأيام ؛ فقد استطال الأوغاد وأصبح الأحرار يعيشون في أوطانهم غرباء وكثيرًا ما تجد الوصولي السافل يقول عن رفيق له نأت به كرامته عن مواطن الضيم والهوان : حضرته عامل راجل :

والمسئول عن هذا التدهور هو الفريق الجبان من الرؤساء الذين لا يأنسون بغير الضعفاء ، ولا يسلمون الأعمال إلا لكل شاب رخو لا ينتظر منه إلا كلمة : بيك ، أفندم

وأين أين الرئيس الذي يحب في مرؤسيه إباء النفس وقوة الشكيمة وصلابة العود ؟

أين أين الرئيس الذي يعد مرؤسيه ليكونوا ذخر الوطن ورجاء البلاد فيوصيهم بالترفع عن الصغار والذل ، ويغريهم بحب البأس والاستطالة والكبرياء ؛ لأنه لا يسقط المصري إلا حيث تخذله نفسه ولايجد من مضاء العزيمة وعزة النفس ما يدفع به عادية الطامعين .

ونتيجة هذا أن أصبح الشبان يرون أن سلاح العلم والفضل والنبل والشهامة سلاح مغلول ، وأن الزاد الأنفع هو التملق والمداهنة والرياء .

وقد أذكر أني لقيت مرة شاباً أعرفه فسألته عن عمله وقد أنهى عهد الدراسة العالية فأجاب : أتمرغ فى تراب الميرى .

فابتسمت وقلت : لابأس .

ثم علمت بعد حين أنه يتولى عملاً يلحقه بمن يتمرغون في وحل الميرى لا فى ترابه !

هذا مع أن الشبان أولى الناس بالكرامة وأجدرهم بالحرص عليها ، لأن الشباب في ذاته قوة يجب أن تعصم صاحبها عن التسفل ، وهو وحده حصن يجب أن يمنع صاحبه من الابتذال ، والمرء إن لم يقف على قدميه في شبابه فمتى يرجى أن يستقيم له رأى أوتصلح له حال ؟

وإذا كان أصحاب السواعد الفتية لا يستطيعون النهوض بأنفسهم فكيف يلام الكهول على تخاذلهم وهم مهيضو الجناح ، ورحم الله من قال :

إذا المرء أعيته المروءة يافعاً
فمطلبها كهلاً عليه شديد

ثانياً : غفلة الشبان عن تقدير الحرية ، فإن الزاهدين فى الرقى ليسوا إلا قوماً ألفوا الاستعباد ، ولو عشق الشبان الحرية وعرفوا فضلها لما سكتوا عن تكميل أنفسهم وتزويدها بالعلوم والآداب .

والفتيان الذين نراهم يدأبون على الدرس بعد التوظف ويطمعون فى حال أحسن من حالهم يمثلون الرغبة فى الحرية أشرف تمثيل فأكثرهم يعز عليه أن يظل طول حياته تابعا ذليلاً يزجر فيزدجر ويؤمر فيطيع .

والعلم هو الذى يصيرنا سادة أنفسنا ويمكننا من نواصى المراتب الرفيعة ، ولا يطمع فى السيادة إلا من يعد نفسه لها إعداداً صحيحًا ، أما الخامل الراضى عن حاله فلا حظ له من الرفعة ولا نصيب له من الاستقلال . وفى خلق الله ناس فطروا

على العبودية وهؤلاء خلقوا لحكمة يعلمها الله ، فليكن فى ضمير الرجل الحر أنه خلق خلقًا آخر ، وأن له أن يبحث عن مكانة عالية تليق بمن خلق ليسود .

ثالثًا : اعتماد الشبان على الحكومة هو من أخطر الأسباب فى قتل عزائمهم ؟ فهم ينتظرون أن يكونوا دائمًا "مسنودين" بقوة الدولة لايتقدمون ولا يتأخرون إلا فى ظلال من يملكون الأمور ، ولكل شاب عذر من حكومته فهو يعلل تأخره بتأخر الحكم فى زمانه ويأسى على أن لم يولد فى عهد من كانوا يمنحون الحظوظ بغير حساب ، وقديمًا قال المتنبى :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته

فسرهم وأتيناه على الهرم

فتلك إذن علاقة قديمة يستريح إلى ترديدها المتخلفون ، ونحن لانريد لشبابنا أن يعتمدوا على الدولة فى أنها هضم من كبواتهم فإنه لاخير فيمن يعتمد على سواه ، وإنما نريد لهم أن يكونوا أقوياء بأنفسهم ، وأن يكون الفتى قوة كاملة فى ذاتها دولة ذات حول وطول وسلطان .

خطر يهدد الثقافة المصرية

(سيتوجه في الغد القريب جدا سفراء الدول الأجنبية ليطلبوا لمدارسهم نفس الحقوق التى أعطيت لكلية "فيكتوريا" ، ويومئذ تقف الحكومة المصرية بين نارين : نار الرفض ونار القبول . فإن رفضت كان معنى ذلك أنها حكومة منجلترة تختص الإنجليز بالطيبات صدقًا أو رياء ، وإن قبلت كان معنى ذلك أنها تصوب السهم طائعة إلى الثقافة المصرية .

(فعلى الحكومة أن تشترط احترام اللغة العربية فى تلك المدارس ، فيكون لها برنامج مماثل للبرامج المصرية ، وعليها أن تفرض أن يدرس التاريخ والجغرافيا وما يماثلها من أنواع الثقافة باللغة العربية ، فإن لم تفعل الحكومة – وأخشى أن تجبن – فستكون النتيجة قبر الثقافة المصرية وأن يكون شباب المستقبل موزعين فى أهوائهم ومشاربهم وطبائعهم بين "متجلنز" و "متفرنس" إلى آخر ما سترمينا به الأقدار من نكبات الاحتلال .

مهمة المجمع اللغوى

مهمته أن يستفيد من آراء العارفين بسرائر اللغة العربية ، ولكنه تجاهل آراء الدكاترة زكى مبارك لأن هؤلاء الدكاترة لا يعترفون بقيمة الأنظمة الإدارية التى يجيدها الأستاذ الفلانى والأستاذ الفلانى[1] .

وفى خطاب الأستاذ حنا بقطر إميل هذا السؤال[2] :

ما هى الأسباب التى جعلتك بعيداً عن المجمع اللغوي وأنت من يزين هذا المجمع ؟ أهى مسألة حزبية أم علمية ؟ أريد الإفادة ولكم الشكر من المعجب بكم .

الجواب : من الوجهة العلمية لا يوجد ما يوجب إبعادى عن المجمع لأنى متمكن جدا فى علوم اللغة العربية ، والحزبية قد يكون لها دخل فى إبعادى عن المجمع .

ولكن هناك سبباً ثالثاً وهو أصح الأسباب ، وبيانه أن أعضاء المجمع هم الذين يختارون الأعضاء الجدد ، ولى مع جميع أعضاء المجمع خصومات أدبية بدون استثناء رئيس المجمع كما تشهد مقالاتى فى الرسالة والبلاغ .

ليس يهمنى أن أكون عضواً فى المجمع وإنما يهمنى أن أنشئ أدباً يشتغل بدرسه أعضاء المجمع .

أنا لست عضواً فى المجمع اللغوى فماذا أصنع مع بنى وطنى ؟ ماذا أصنع؟ [3]

---

(١) ١٩٤٧/٣/١٢
(٢) ١٩٤٩/١١/٢٥
(٣) ١٩٥٠/١١/٧

يصور ما بينى وبينهم قول الشاعر :

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيعت أيامى

إعراب الأعلام[1] :

الأستاذ سليم عبد الأحد خاطبنى فقال : "أخى زكيا" ولم يقل " أخى زكى"[2] .

وهنا أذكر فكاهة تستحق التسجيل : كنت رئيس تحرير جريدة الأفكار سنة ١٩٢١ وكان المصحح هو الأستاذ محمد الحكيم رحمه الله ، وكان له حق الأستاذية وبفضل ذلك الحق كان يصحح من كلامى ما يستوجب التصحيح ولكنى رجوته أن يعفى الأعلام من الإعراب فلا يجعل : قابلت سعد زغلول باشا ، قابلت سعداً باشا زغلول .

فغضب وقال : أنهمل النحو من أجلك ؟

فقلت : وكيف تكتب : قابلت عدلى باشا يكن ؟

فأجاب : تكتب : قابلت عدليا باشا يكن ؟

فقلت : الكلمتان أعجميتان ، فما قال العرب عدلى ولا فهمى ولا رشدى ، وإنما هى أسماء على الطريقة التركية ، ويكن نطقها الأصلى يجن، فيجب الإبقاء على وضعها الأول .

فقال الشيخ : وزكى ؟

قلت : هو أيضاً اسم ثابت ولا يتغير بتغير العوامل ، وسيظل كذلك إلى آخر الزمان .

---

(١) ١٩٤٦/٥/٢٠ .

(٢) وبعد سنوات أخذ المجمع اللغوى برأى زكى مبارك ولم يشر إلى زكى مبارك .... وغير هذا كثير .

وحيد كالصحراء [1] :

فى الأعوام الأخيرة بدأت أشعر بزلزلة فى أعصابى ، فعرفت الأرق وما كنت أعرفه من قبل ، ويرجع ذلك إلى أنى أنظم فى كل يوم وأكتب فى كل يوم ، وقراءاتى فى الكتب الفرنسية أكثرها فى الفلسفة : والفلسفة تخلق مجالات للتفكير وهو ينبه الأعصاب ، يضاف إلى ذلك سكناى بمصر الجديدة وجوها حار جداً ، وحرارة الجو تورث سرعة الانفعال .

تعبت اليوم فخرجت إلى الصحراء لآنس بالوحدة فنظمت القصيدة التالية :

هذه الصحراء فى وحدتها أذكرتنى وحدتى فى وطنى [2]

والظلم الصارخ بعض ما أفكر فيه فلى مكان فى المجمع اللغوى ولكنى لا أصل إليه ، لأن لى ذنبا لا يقبل الغفران : وهو أنى ألفت اثنين وأربعين كتاباً ونظمت مئات من القصائد وكتبت ألوفاً من المقالات .

الفضل فى مصر ذنب من لا ذنب له .... فصبراً يا فؤادى .

المجمع اللغوى [3] :

كتب أحد أعضاء المجمع اللغوى مقاله فى إحدى الجرائد يدعو فيها إلى جعل اللهجة العامية لغة الكتابة والتأليف بالبلاد المصرية .... وهذا العضو بالمجمع اللغوى يعانى عقدة نفسية ترجع إلى أنه لم يكتب فى حياته مقالة فصيحة ، وما اعترف أحد بأنه كاتب له أسلوب ، ولو كان هذا العضو يحسن الكتابة باللغة الفصيحة لغار عليها وتقدم لحمايتها من طغيان اللهجة العامية ، ولكن لحرمانه من فهم أسرار اللغة الفصيحة يتحذلق فيزعم أن اللهجة العامية أقدر من اللهجة الفصيحة على التعبير عن الأغراض الأدبية والاجتماعية .

ماذا تصنع للمجمع اللغوي وهو بيت بلا باب وبدون حراس ؟

---

(١) ١٩٥٠/٩/٢٦

(٢) القصيدة طويلة وهى على صفحات ديوانه .

(٣) ١٩٤٨/٣/١

حادث أدبي[1]

في خريف سنة ١٩١٥ ظهر في مصر حادث أدبي كان له شأن في توجيه العقول والأذواق ، وهو إنشاء جريدة السفور ، وهي جريدة أسبوعية كانت تباع بمليمين أو ثلاثة مليمات ، وكانت لرخص ثمنها وصدورها في مواعيد قريبة أقرب إلى الشباب من المجلات الشهرية التي لم تنقطع عن الصدور بسبب الحرب من أمثال الهلال والمقتطف .

كانت جريدة السفور شركة ساهم في تكوينها جماعة من الكتاب هم الأستاذة : عبد الحميد حمدي ومحمد حسين هيكل ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمي وطه حسين .

وكانوا ينشرون فيها آراءهم بحرية وصراحة فمال إليهم الشبان كل الميل وأقبلوا على الجريدة إقبال الشوق والإعجاب .

وقد ابتدأت الحياة الأدبية في تلك الجريدة بنضال أدبي بين الدكتور طه حسين والدكتور هيكل ، وكان موضوع النضال هو فكرة الحرب ، فكان الدكتور طه يرى أن الحرب تنفع الإنسانية وكان الدكتور هيكل يرى أن الحرب تضر الإنسانية .

وكان من كتاب جريدة السفور كاتب اسمه (م) وهو كاتب خفيف الظل عذب الروح ، كانت له جولات رشيقة في ميدان الوجدانيات .

من هو الكاتب (م) الذي شغل قراء جريدة السفور أيام الحرب ؟

---

(١) هذا العنوان كان في مقال للدكاترة زكي مبارك بعنوان :
أثر الحرب في الحياة الأدبية والعلمية في مصر نشر على صفحات مجلة الهلال بتاريخ ١/١١/١٩٣٩
وقد ضم المقال غير عنوان حادث أدبي عدة عناوين أخرى هي
الصحف الأدبية الأسبوعية . الثالوث ، أشهر الكتاب والمؤلفين ... وهذه مقتطفات من المقال .

هو الأستاذ مصطفى بك عبد الرازق .

وكان في جريدة السفور مقالات جيدة بإمضاء "الصاحبان" لها صلة بالمشكلات القومية والاجتماعية .

فمن هما "الصاحبان" ؟ هما منصور فهمى ومصطفى عبد الرازق .

وكان فى السفور رسائل تصل من باريس بعنوان "هو وهى وكان لتلك الرسائل سحر وجاذبية ، وكانت بإمضاء (ض) .

فمن هو (ضاد) ؟ هو الدكتور أحمد ضيف عضو بعثة الجامعة المصرية فى ذلك العهد ، وهو اليوم وكيل دار العلوم .

الصحافة الأدبية الأسبوعية :

وفى أيام الحرب ظهرت جريدة "الثمرات" للأستاذ حسن السندوبى : وهى جريدة أسبوعية غلب عليها الاهتمام بالنقد الأدبى .

وكانت جريدة "الصاعقة" مسموعة الصوت فى أيام الحرب ، وكان فيها صور كثيرة للمجتمعات الأدبية ، وكان لصاحبها المرحوم أحمد فؤاد قلم لذاع يصوبه إلى صدور من يغضب عليهم من الأدباء والأعيان .

ومن الجرائد الأدبية التى ذاعت فى ذلك الوقت جريدة عكاظ ، وكانت تهتم بنشر أشعار شوقى فى منفاه ، وتحرض على مقارعة خصومه من أمثال المازنى والعقاد .

وكان صاحب عكاظ هو المرحوم الشيخ فهيم قنديل .

وأعتقد أن جريدة عكاظ كان لها يد فى تنشيط الحركة الأدبية أيام الحرب ، وبفضلها عرف الشبان قيمة شوقى وهو فى منفاه .

الثالوث :

وفى أيام الحرب نشط الشعراء المجددون نشاطًا عظيمًا وهم :

"الثالوث" على حد تعبير الجرائد الهزلية فى ذلك الحين .

فمن هم الثالوث ؟

هم عبد الرحمن شكرى وإبراهيم المازنى وعباس العقاد .

وكان لهذا الثالوث ضجيج عنيف ؛ فالأستاذ عبد القادر المازنى شغل الناس فى تلك الأيام بكتاب نشره فى نقد أشعار حافظ إبراهيم ، والأستاذ العقاد كان يتهيأ لنقد أشعار أحمد شوقى .

ثم دب الخلاف إلى هذا الثالوث فقرأنا فى جريدة عكاظ نقداً لأشعار عبد الرحمن شكرى بإمضاء (ص) وقرأنا ردوداً دسمه جداً على ذلك النقد بإمضاء (ش) وكان فى تلك الردود تزييف لآراء العقاد ، فقد كان (ش) يرى أن (ص) لا ينشر إلا ما يمليه عليه العقاد .

أما (ص) فهو الأستاذ عبد الرحمن صدقى وأما (ش) فهو الأستاذ عبد الرحمن شكرى[1] .

أشهر الكتاب والمؤلفين :

إلى هنا وضحت صورة الحياة الأدبية فى أيام الحرب الماضية .

فمن هم أشهر الكتاب والشعراء والمؤلفين فى تلك العهود ؟

الكاتب الأشهر فى أيام الحرب هو مصطفى لطفى المنفلوطى .

وكان من مشاهير الكتاب فى ذلك العهد محمد السباعى وقد أكثر من الترجمة عن اللغة الإنجليزية .

وكان للكاتب الشاعر مصطفى صادق الرافعى صوت فى ذلك الحين .

---

(١) لمعرفة أسباب الخلاف بجذر العودة لمقال زكى مبارك .
[illegible] الدارس عبد الصبور ضيف محمد الماجستير عن رسالته · زكى مبارك حياته وأدبه سنة ١٩٧٧ والتى قدمت لكلية اللغة العربية جامعة الأزهر فرع أسيوط بإشراف الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود .

وكان الناس يتحدثون كثيراً عن محمد المويلحي ، ولكنه كان قد سكت بعد ظهور "حديث عيسى بن هشام" .

وكانت أشعار شوقي وحافظ ومطران ومحرم والكاظمي والكاشف تقرع الاسماع .

وعن جريدة السفور عرف الناس أناشيد أحمد رامي وأقاصيص محمد تيمور .

وفي أيام الحرب عرف الجمهور أبحاث الشيخ محمد الخضرى فى التاريخ الإسلامى ، وعرفوا كتاب "مجمع الأحياء" للعقاد ، وكتاب "الأدب العصرى" للشيخ محمد سليمان .

أما أشهر المغنين فى أيام الحرب الماضية فهم صالح عبد الحى وعبد اللطيف البنا ومنيرة المهدية وكانت لهم شهرة فائقة ، وكانوا أنس المسامع والقلوب فى الأفراح والليالى الملاح .

وفى أخريات أعوام الحرب نشأت فى القاهرة : "جامعة الشعب" وهى محاضرات مسائية اشترك فيها جمهور من الأدباء المصريين والأجانب ، وسمعت فيها أصوات : مصطفى عبد الرازق ومحمد جاد المولى ومحمود عزمى وعلى عبد الرازق وتوحيد السلحدار ومنصور فهمى ومحجوب ثابت ومحمد حسين هيكل .

وأذكر أنى حاولت أن ألقى محاضرة فى تلك الجامعة عن أشعار ابن خفاجة فرفض طلبى بحجة أنى ما أزال طالباً ، وكانت محاضراتها مقصورة على الأساتذة الذين توطدت مراكزهم الأدبية .

وأشهر خطيب اجتماعي في أيام الحرب الماضية هو الأستاذ محمد توفيق دياب ، وأعظم حنجرة سمعت رنينها هى حنجرة توفيق السلحدار ، فأين هو اليوم ؟

وأعظم تلميذ وعت ذاكرته أحوال الأدب فى تلك الأيام هو الصديق العزيز زكى مبارك .

حول قوافي الشعر العربي[1]

نشرت السياسة الأسبوعية نظرات فى الأدب الحديث منسوبة إلى المسيو إيزاك شموس مدرس الأدب العربي بالجامعة العبرية وفى تلك النظرات اتجاه مزعج غابت مراميه عن محور السياسة الأسبوعية فرأينا من الواجب أن ننص عليه حتى لا ينخدع به فريق من القراء .

وهذا المدرس يرى أن تباد قوافى الشعر العربى ، ويقول فى ذلك :

يؤكد بعض أعلام الأدب أنه ليس بعيداً اليوم الذى يروى فيه الأساتذة لطلابهم أمثلة من الشعر المقفى للدلالة على نوع من الشعر القديم البائد"

وهذا كلام مدسوس يراد به التزيد فيما أثر عن العرب من القوافى والأوزان ولن يستطيع هذا المدرس أن يذكر صراحة اسم ذلك الشخص الذى سماه "بعض أعلام الأدب" ولعله زميل من زملائه "المحترمين الذين يسرهم أن تعدو العوادى على اللغة العربية .

وفى كلام هذا المدرس تشجيع على السخرية من مأثور التقاليد ، ومن أجل هذا يهتم اهتماماً شديداً بالثناء على الدكتور طه حسين ويراه من شهداء الحرية الفكرية ، ويحظر جميع من نقدوا كتاب الشعر الجاهلى : ويروى حكاية لم يعرف كيف وقعت فهو يذكر أن عدداً كبيراً من طلبة الجامعة السورية أحرقوا نسخا كثيرة من كتاب الشعر الجاهلى وأحرقوا رسم مؤلف الشعر الجاهلى فى حماس رهيب".

---

(١) قدمت مجلة الصباح هذه المقالة بتاريخ أول يوليه سنة ١٩٢٨ على صفحاتها تحت عنوان : بقلم أمير البيان الدكتور زكى مبارك · ما هذه الحسرات يا مسيو شموس ؟

ورواية هذا المدرس خطأ فى خطأ ، فثورة الطلبة السوريين على الدكتور طه حسين لم تكن بسبب الشعر الجاهلى وإنما وقعت بسبب كلمة جاءت فى مقال نشره الدكتور طه حسين بجريدة "كوكب الشرق" ولا موجب لإثارتها من جديد .

ثم يتوجع ذلك المدرس فيقول :

وبينما كان طه حسين يعالج هذه الناحية من نواحى التفكير كان إسماعيل مظهر يعالج ناحية أخرى هى ناحية العقائد الدينية بجرأة نادرة وبشجاعة لم يشهدها العالم العربى من غيره فى العصور الأخيرة . حتى إنه تجرأ على أن ينشر فى مجلة "العصور" التى كان يصدرها فى القاهرة أبحاثًا معنونة "لماذا صرت ملحداً" ، وقد أقفلت الحكومة المصرية مجلته ولاحقته النيابة أمام المحاكم ، ولكن بعد أن تركت وليداً يحمل اسماً كاسمها معنى ووزنا وقافية – وهو "الدهور" وقد صدرت الدهور فى بيروت حينا من الزمن لم تلبث بعده أن أقفلت للأسباب التى أقفلت من أجلها "العصور" ، ثم عادت الدهور فى الآونة الأخيرة إلى الصدور ولكن بخطة جديدة ومحررين نأسف ألا يكون بينهم إسماعيل مظهر" .

فهذا المدرس يدعو شبان العرب إلى الإلحاد ، ويرى إسماعيل مظهر بطلاً عظيماً لأنه استطاع أن يعلن أسباب إلحاده ثم يتأسف بصراحة على أن لم يكن إسماعيل مظهر محرراً فى مجلة الدهور .

ثم تكلم حضرة المدرس عن أنصار اللهجة العامية فأثنى عليهم وشجعهم ، ونوه بأسمائهم تنويهاً مغرياً وسرد حججهم ولو كان حسن النية لساق جميع الداعين إلى إيثار اللغة الفصيحة وهم جمهور المثقفين .

وخلاصة القول إن المسيو إيزاك شموس رجل فاضل جدا ، وهو يحب الخير للعرب والمسلمين فيدعوهم إلى هجر القوافى المأثورة عن العرب القدماء لأنها أصبحت عتيقة ، ويدعوهم إلى هجر العقائد الدينية لأنها أمست بالية ، ويدعوهم إلى هجر اللغة الفصيحة لأنها لغة الأعراب !

وأرى من واجبي أن أنصح شبان العرب والمسلمين باتباع نصائح هذا الرجل المفضال ، ولا خوف عليهم من غضب الله وغضب الجمهور فسيتكلم عنهم هذا الرجل في الجامعة العبرية ثم ينشر ثناءه عليهم في السياسة الأسبوعية .

أما بعد فإننا أعرف أن في مصر وفي غير مصر ناسا يسرهم أن يكونوا من الشهداء ، ولكن أرجو أن يفهموا الفرق بين الحظين :

وحظ الشهيد الذي يندبه المسيو إيزاك شموس ، وحظ الشهيد الذي تبكيه لغة القرآن .

جناية أحمد أمين على الأدب العربى [1]

إن لى مبادئ وعقائد أدفع عنها السوء ولو وقع من أعز الأصدقاء .

ولكن ما هى المبادئ والعقائد التى أجاهد من أجلها فى هذه الأيام ؟

أنا أؤمن بأن الأدب العربى أدب أصيل ، وأعتقد أنه من الواجب أن ندعو جميع أبناء العروبة إلى الاعتزاز بذلك الأدب الأصيل لأنه يستحق ذلك لقيمته الذاتية ، ولأن الإيمان بأصالته يزيد فى قوتنا المعنوية ، ويرفع أنفسنا حين ننظر فنرى أن أسلافنا كانوا المبتكرين فى عالم الفكر والبيان .

---

(١) ناقش زكى مبارك آراء أحمد أمين على صفحات مجلة الرسالة ، وكانت المقالة الأولى فى ١٩٢٩/٦/١٢ وآخر مقالة فى ١٩٢٩/١١/١٢ ، وصدرت جميع المقالات تحت عنوان جناية أحمد أمين على الأدب العربى وذلك ردًا على مقالات أحمد أمين جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى ، وقد جمعت هذه المقالات وصدرت فى كتاب يحمل نفس العنوان مرتين فى بيروت ، المرة الأولى جمعها عبد السلام زكى مباك وصدرت بمقدمة للأديب الشاعر حسين خريس ، والمرة الثانية بمقدمة بقلم كريمة زكى مبارك وصدرت عن دار الجيل سنة ١٩٩١ وهى نسخة مزيدة .

وعلى صفحات كتاب فى بيت أحمد أمين للكاتب حسين أحمد أمين ، والكتاب صدر عن دار الهلال فى العدد ٤١٥ فى يولية سنة ١٩٨٥، نقرأ فى الكتاب صفحة ١٥٩ حيث يقول حسين أحمد أمين عن والده :

كنت أعجب لقلة نظره نسبيًا فى الشعر العربى وضعف تعلقه به واحترامه له ، فهو يستنكر منه غلبة المدح وبذاءة الهجاء .

وأعتقد ان زكى مبارك كان محقًا حين اتهم والدى بالعجز عن استساغة الشعر العربى ، وبأن تفضيله المعلن لابن الرومى وأبى العلاء على سائر الشعراء ليس تفضيلاً مخلصًا حقيقيًا ، وإنما جاء اتباعًا لرأى العقاد فى الأول وطه حسين فى الثانى وتسليمه بحكمهما على الشاعرين .

السطور التى بقلم زكى مبارك هى مقتطفات من المقالة الثانية بتاريخ ١٩٢٩/٦/١٩ على صفحات مجلة الرسالة . وهى من صفحة ٣٩ ، ٤٠ و٤١ من كتاب دار الجيل وهو الذى بين ايدينا .

وقد درج الأستاذ أحمد أمين في الأيام الأخيرة على الغض من قيمة الأدب العربى ، وكان من السهل أن نتركه يقول ما يشاء لو كان من عامة الأدباء ولكنه اليوم رجل مسئول : لأنه من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية ولأغلاطه ستار من تلك الأستاذية فهو يقدر على زعزعة الثقة الأدبية فى أنفس طلبة الجامعة حين يريد ، وذلك خطر لا نسكت عليه رعاية لما بيننا وبينه من أواصر الوداد .

في الجامعة المصرية تُدرس الآداب الإنجليزية والفرنسية والفارسية والعبرانية واللاتينية واليونانية ، ولتلك الآداب أساتذة يهمهم قبل كل شيء أن يوحوا إلى الشبان أنها آداب جديرة بالخلود . ولو رأت الجامعة المصرية أن تُدرس اللغة الزنجية لوجدت أستاذاً يقول إن لغة الزنوج أحسن اللغات . فكيف تفردت اللغة العربية بالضيم والهوان فى أنفس أساتذة الجامعة المصرية ؟

وبأى حق يرضى أحد الأساتذة أن يقضى العمر فى تدريس الأدب وهو يراه "ينحدر مع التاريخ شيئًا فشيئًا ليكون أدب معدة" ؟! [1]

إن الجامعة العبرية بالقدس تدرس جميع العلوم باللغة العبرية مع أن لغة بنى إسرائيل ليست لها ماضٍ فى خدمة العلوم ، ومع أن النوابغ من اليهود كانوا يعبرون عن أغراضهم بلغات أجنبية ، ولم يفكروا يومًا فى خلق عصبية للغة العبرية قبل فكرة الصهيونية[2] .

اللغة العبرية تصلح لتدريس جميع العلوم وهى فى فقر مدقع ؟

أما اللغة العربية فتعجز عن تدريس العلوم مع أنها كانت لغة دولية فى مدة دامت نحو خمسة قرون . ومع أنها استطاعت أن تحفظ الذخائر مما خلف الفرس واليونان !

---

(١) الأستاذ الذى يقصده زكى مبارك هو أحمد أمين .

(٢) من على صفحات كتاب دار الجيل سنة ١٩٩١ ، ومن المقالة التاسعة ص ١١٨ من الكتاب وهى على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٢٩/٨/٧ ، وهذه بعض السطور من المقالة .

صلحت اللغة العبرية لتدريس جميع العلوم لأن اليهود أرادوا أن يخلقوا لانفسهم ذاتية قومية ، وقد نجحوا فى ذلك إلى حد بعيد .

أما اللغة التى يتكلمها أقوام يشارفون مائة مليون والتى أمدت بحيويتها كثيراً من اللغات الشرقية ، والتى تنزل فى أنفس الملايين منزلة التقديس والتى تحتل أقطاراً حملتْ أعباء المدنية فى مختلف عهود التاريخ والتى خدمت خدمة لم تظفر بمثلها لغة من لغات الشرق أو لغات الغرب ، والتى عجز الدهر عن تبديد ما تملك من ذخائر ونفائس ، والتى سخر الله لخدمتها مئات من الأجانب فى الجامعات الأوروبية والأمريكية ؟ هذه اللغة الغنية – لغة العرب – هى اللغة التى يقال إنها تعجز عن تأدية الأغراض العلمية ، بفضل حذلقة السادة الأفاضل الذين يرون فى تجريحها باباً من الشهرة والنباهة وبعد الصيت !

ماذا أريد أن أقول ؟

إن الترفق بالأستاذ أحمد أمين لم يصرفنى عن كلمة الحق ولو رزقنى الله الشجاعة لقلت إن هذا الرجل يتجنى على الأدب العربى لأنه لم يعرفه معرفة صحيحة ولو قد عرفه حق معرفته لأدرك أنه خليق بأن تبذل فى سبيله نفائس الأعمار من أحرار الرجال .

لو أن أحمد أمين كان تذوق الأدب العربى لأيقن أنه خليق بأن يتعصب له الباحثون : ففى هذا الأدب نفائس تغفر له جميع الذنوب .

ما رأى أحمد أمين فى كتاب "لسان العرب" ؟ وما رأيه فى كتاب "الاغانى" ؟ وما رأيه فى كتاب "نفح الطيب" ؟ وما رأيه فى كتاب "عيون الأخبار" ؟ وما رأيه فى كتاب "إحياء علوم الدين" ؟

إن كتاباً واحداً من هذه الكتب كاف لأن ينتهب حياة طيبة مثل حياة أحمد أمين ، وهو خليق بأن يرفع رأس العرب بين سائر الممالك والشعوب .

وما رأى أحمد أمين فى "ألفية ابن مالك" وهى من المنظومات النحوية والصرفية ؟

هل خطر بباله أن هذه المنظومة شغلت مئات من العلماء ؟

وهل عرفي خاطره أنها ترجمت إلى التركية منذ أمد بعيد ؟

وهل يعرف كيف تترجم مثل هذه المنظومة إلى اللغة التركية ؟

وهل يعرف من الذى قرظ ترجمتها من علماء الأزهر الشريف ؟

إن هذا الصديق كان يتوهم أن مصر خلت من المتبحرين فى الدراسات الأدبية واللغوية ، وكان ينتظر أن يشطح وينطح بلا رقيب ولا حسيب .

وما كان يهمنى أن أصحح ما وقع فيه من أغلاط لو لم يكن أستاذاً بكلية الآداب . فتلك الكلية هى أول معهد فرضته الأمة على الحكومة ورفعت قواعده بما تملك من أموال وقلوب .

وما أنكر أن أحمد أمين رنّ صوته في كلية الآداب وقد زاعلتّه فيها نحو أربع سنين ، ولكن يعزّ عليَّ أن أراه يحبط أعماله بمقالات لم تكن ثمرة لسهر الليل وإقذاء العيون تحت أضواء المصابيح وإنما كانت لنزوة وقتية أراد بها أن يخلق حركة فى بعض المجلات . والمجد كالرزق بعضه حرام وبعضه حلال .

كتاب الحديث ذو شجون [1]

"الحديث ذو شجون" هو عنوان اخترته لمقالاتى من سنة ١٩١٩ ، وأنا أضع فى مقالاتى رءوس مواضيع لأنبه قرائى [2] .

والشجون التى ترد فى كلام العاشقين مفردها شجن بفتح الجيم وشجونى مفردها شَجْن بسكون الجيم ومعناها : فن .

قال الأستاذ محمود سليمان غنام : إذن يكون المعنى : الحديث ذو فنون [3] .

بين الحب والإعجاب .

الصلة بين الكاتب والقارئ منوعة الألوان ، فهناك كاتب يحبه القارئ ، وكاتب يعجب به القارئ ، وكاتب يظفر بالحب والإعجاب .

ومرد الأمر إلى ذاتية الكاتب ، فإن كان أدبه أدب وجدان فهو جدير بالحب ، وإن كان أدبه أدب ذكاء فهو خليق بالإعجاب ، وإن جمع بين الوجدان والذكاء فهو الكاتب المنشود ، وهو الذاتية الكاملة فيما يرى أصحاب الأذواق أرباب العقول .

والظاهر أن الأدب الحق يأخذ زاده من الذكاء والوجدان ، فإن خلا من أحد هذين الزادين فهو عرضة للضعف ، وإن خلا منهما معًا فهو إلى الفناء .

---

(١) الحديث ذو شجون كتاب للدكاترة زكى مبارك صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ ، ويضم المقالات التى نشرت على صفحات مجلة الرسالة تحت عنوان "الحديث ذو شجون" من سنة ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٤٤ وطبع الكتاب سنة ١٩٩٣ عن دار الجيل – بيروت .

(٢) من على صفحات جريدة البلاغ فى ١٩٤٨/٦/٧ و ١٩٤٦/١٠/٢٩ .

(٣) من على صفحات جريدة البلاغ فى ١٩٤٨/١٠/١٥ .

ماضينا في صحبة الكتاب [1] :

لنا ماض مجيد حفظه التاريخ فقد سبقنا أوروبا إلى تمدين الشرق والغرب وخلف أجدادنا آثاراً عجز عن محوها الزمان فكيف ظفروا بذلك الحظ من الخلود ؟

الكتاب هو السر في عظمة أجدادنا ، فقد كان فيهم من يحج بيت الله ... وكان يقف في عرفات للسؤال عن كتاب .

وعدوان المغول على بغداد لم تسجل فظائعه في غير ظاهرة واحدة هي تزويد أسماك دجلة بما كان في بغداد من نفائس المؤلفات .

وكان المسلمون حين يستنفرون إخوانهم للدفاع عن بلد من بلاد الأندلس يقولون إنه وطن النوابغ من المؤلفين والشعراء .

إن أساس المدنية يرتكز على العلم في جميع العصور .

إن المدافع والطيارات والأساطيل ليست إلا تعابير عن جانب من طغيان القوة الفكرية ، كما أن الآداب والفنون تعابير عن جانب من ذلك الطغيان .

لا تسمعوا لمن يثبطونكم عن الحياة الفكرية بحجة أن هذا الزمن ليس زمن الفكر وإنما هو زمن القوة ، فالفكر هو المصدر لكل قوة ولو تمثلت في أبشع الألوان .

أين الأمة العربية ؟ [2] :

عند الأمم الأوروبية تقاليد أدبية تستأهل التسجيل فهنالك يؤمن الكاتب بأمته فيؤلف كتاباً في مئات أو ألوف من الصفحات لينشر بعد موته بأعوام طوال .

فما معنى ذلك ؟

معناه بأن الكاتب يثق بأن الضمير الأدبي في بلاده سيعيش ويعيش إلى أن ينصفه من زمانه ولو بعد حين .

---

(١) صفحة ٥١١ من هذا الكتاب وهي على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤٢/١٠/١٨ .

(٢) صفحة ٢٧٤ من هذا الكتاب وهي على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤٢/٧/٦ .

ومعناه أن الكاتب يؤمن بالخلود .

ومعناه أن الكاتب يشعر بنائرة الحقد بعد أن يموت .

ومعناه أيضًا أن الكاتب يعرف كيف ينتقم وهو فى غيابة الفناء أو حصانة البقاء .

فأين الأمة العربية لنودعها دفائن صدورنا من أبناء هذا الزمان ؟

وأين من يفتش فى دفاترنا بعد الموت ليرى ما سطرناه فى أخلاق هذا الجيل ؟

جهادنا فى خدمة القلم أضيع من الضياع ، ولولا الإيمان بأننا نؤدى خدمة قومية لقصفنا القلم بلا رحمة ولا إشفاق .... وعند الله عند الله وحده الجزاء .

وطنى [1] :

إن لم أحمل السيف فى حمايتك فقد حملت قلمى فى الدفاع عنك ، والقلم أبقى من السيف وفضلك فى الدنيا هو فضل القلم قبل فضل السيف ، وقد أقسم الله بالقلم لا بالسيف ، فعش إلى الأبد حجة العالم وبرهان الزمان .

وطني : أنت تذكر أنه ما استطاع أمير ولا وزير أن يأجرنى فى العصبية لك لأنك وطنى وحدى ، ولأنى لا أسمح لأحد بأن يسبقنى فى الوصول إلى مواقع هواك .

وطني : وطنى : إن عشت لك فسأحمل رايتك فى المشرقين والمغربين وسأكون سفيرك فى كل أرض يصل إلى أسماع أهل قلمى ، فإن مت قبل أن أدرك فى خدمتك ما أريد فسأكون برغم الحوادث بطل الوطنية والإخلاص .

وسلام الله على أبرار الشهداء .

---

(١) صفحة ١١٩ من هذا الكتاب وهى على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤٠/٩/٣٠ ، والكتاب أعيد طبعه سنة ١٩٩٢ عن دار الجيل - بيروت .

وقد عاون زكى مبارك مجلة الرسالة وكان يقول : إن معاونة الرسالة فريضة على كل مصرى لأنها صوت مصر في الشرق .

وللأسف ضاعت كتب زكى مبارك بعد رحيله فلم يستفد منها أحد .

فى مكتبته كان بها نحو ٢٠ ألف كتاب منها الكثير من أمهات الكتب ، كان كل زائر يأخذ ما يريده ليرده بعد أن يقرأه ولم يكن يرده أبدًا ... إن الحكومة عمومًا مسئولة عن مكتبات الكبار ، لأنه يجب أن تضع يدها عليها وتفرد لها مكانًا فى دار الكتب على أن تحمل المكتبة اسم صاحبها تخليدًا لذكراه لأنه خدم بلده أعظم خدمة .

كتاب : الأسمار والأحاديث

إن ودادك أيها القارئ هو الذى أرهف قلمى وصقل بيانى وهو العزاء عما أعانى فى دهرى وزمانى من ظلم وعقوق ، وما تذكرت حبك أيها القارئ إلا غفرت ذنوب الدهر وصفحت عن مكايد الزمان[١] .

المخلصون فى زمانك قليل أيها القارئ ، وهم مع ذلك لا يخدمونك إلا فى ميدان أو ميدانين ، أما أنا فقد خدمتك فى كثير من الميادين[٢] .

أترك ما شغلت به نفسى من الدراسات الأدبية فى الأعوام الماضية فالقرّاء يعرفون من ذلك أكثر مما أعرف ، وإن كان يخفى عليهم أن لى مؤلفات جيدة تصدقت بها على بعض الأدعياء .

وأنتقل إلى الحديث عن كتاب اليوم وهو كتاب الأسمار والأحاديث فأقول :

هذا كتاب جديد من جميع نواحيه ولن يحتاج إلى تزكية أحد من الأصدقاء فهو حركة فكرية متوثبة تواجه القارئ فى كل صفحة بل فى كل سطر ، بل فى كل جملة وهو مجال للتأمل والتفكر والتندر والاعتراض والاحتجاج .

---

(١) كتاب الأسمار والأحاديث صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٤٠ ، وطبعته الثانية سنة ١٩٩٢ عن دار الجيل - بيروت ، كما صدرت طبعة ثالثة عن لونجمان سنة ١٩٧٨

(٢) مقتطفات من مقدمة الكتاب والتى تزيد عن ست صفحات.

والكتاب محاورات ومناظرات تصور ما يصطرع فى الجو الأدبى والاجتماعى من آراء وأهواء ، وفيها نقد وتشريح لطائفة من العلماء والأدباء نذكر منهم على سبيل المثال : أحمد لطفى السيد ، محمد الماحى ، محمد الأسمر ، محمد خالد ، طلعت حرب ، حافظ عفيفى ، نورى السعيد ، المسيودى كرمين ، منصور فهمى ، أحمد ضيف ، طه حسين ، مصطفى عبد الرازق ، عبد الباقى إبراهيم ، أحمد أمين ، عبد الوهاب عزام ، سلامة موسى ، توفيق الحكيم ، الزيات ، شوقى وحافظ ، أبو شادى والبشرى وخليل مطران .

فى هذا الكتاب صور غريبة لعقول المصريين وعقول من عرفت من الفرنسيين ، وسيشقى به ناس ، ويسعد ناس : لأنه سجل لطوائف من أوهام العصر الحاضر أدق تفصيل .

بقيت كلمة عن أسلوب الكتاب :

أنا أعتقد بلا زهو ولا كبرياء أنى وصلت باللغة العربية إلى ما كانت تطمح إليه من البيان .

وأنا أعتقد بلا استطالة ولا تزيد أنى خلقت عذوبة الأسلوب فى اللغة العربية ، وقد صار البيان عندى طبيعة أصيلة لا يعتريها تكلف ولا افتعال وما أذكر أنى عرفت التسويد والتبيض فيما ألفت من الكتب أو نشرت من المقالات بعد زمن التمرين الذى سبق سنة ١٩١٦

وما أعرف بالضبط ماهى خصائص أسلوبى : لأنى أصدر فيه عن السجية والطبع ، ولكنى أعرف بالتأكيد أن الذى يقرأ مؤلفاتى ومقالاتى يشعر بأنه يرى الحياة وجها لوجه .

أيها القارئ

لم يبق لى بعد الله غير ودادك وعطفك ، ودنيا الأدب بدون حبك سراب فى سراب .

ولولا الثقة بك أيها القارئ لكسرت قلمى ورجعت إلى صحبة الفأس والمحراث فى سنتريس ، إن كان سهر الليالى من أجلك أبقى لى من القوة ما أستطيع به الرجوع إلى صحبة الفأس والمحراث .

ويرحم الله الشباب الذى بددته فى صحبة الكتاب والدواة والقلم والقرطاس .

درس ينفع [١] :

وهذا الدرس أقدمه لنفسى ولتلاميذى :

وأنا أوصى نفسى وأوصى تلاميذى بالقناعة بما تجود به الفطرة ، فليست البلاغة فى الاحتفال بما نكتب ونقول ، وإنما البلاغة فى الاستجابة لصوت الفطرة والطبع والوجدان .

---

(١) صفحة ١٢٦ من الكتاب نفسه .

وإذا لم يكن بدٌّ من الاهتمام بما نلقى به الجماهير من خطب ورسائل فليكن ذلك الاهتمام يقظة وجدانية وروحية وعقلية ، أما الحرص على الزخرف والتنميق فهو آفة البيان .

والأصل فى البلاغة أن تقدر على أن تشغل المستمعين والقراء بأنفسهم ولا نصل إلى ذلك إلا حين نسيطر عليهم بقوة المعنى وقوة الروح ، أما الزخرف فهو يشغل القراء والمستمعين بالتفكير فى شخصية الكاتب والخطيب ، وتلك غاية صغيرة لا تستهوى كبار الرجال .

والكاتب الحق هو الذى ينسيك نفسه ليشغلك بنفسك .

الكاتب الحق هو الذى يجعل وجدانك وعقلك وقلبك ميدانا للمصاولات الأدبية والعقلية فينقلك من حال إلى أحوال .

أما الكاتب الذى يشغلك بنفسه وهو ينمق ويزخرف ويعتسف فقد يحولك إلى خصم للفكرة التى حاول أن ينقلها إليك .

ولا يصلح أهل البيان للسيطرة على من يقرأون ومن يستمعون إلا إذا كانت الفكرة غلبت على عقولهم وألبابهم غلبة قوية بحيث يكون كل حرف من كلامهم محملا بصور المعانى والأرواح . وهل كان الغرض من البيان إلا جعل المعنى رسالة الروح ؟

ملاحظات أدبية ولغوية [١] :

بس !

بَسْ : كلمة مستعملة فى لغة التخاطب ، ولكنها متروكة فى اللغة الأدبية وهى مع ذلك من الكلمات التى عرفتها المعاجم ، وقد عثرت فى بعض كتب الأدب على شاهد طريف لهذه الكلمة إذ حدَّث بعض العلماء وقد تزوج :

(١) صفحة ٢١٤ من الكتاب ، وهى كلمة تفيد عند المعجم المنتظر والذى سيصور تطور اللغة العربية .

لما حُملت المرأة إلىَّ جلست فى بعض الأيام على العادة أكتب شيئا والمحبرة بين يدى ، فجاءت أمها فأخذت المحبرة فلم أشعر بها حتى ضربت بها الأرض وكسرتها .

فقلت لها فِيَّ ذلك ؟

فقالت : بَسْ ... هذه شر على ابنتى من ثلاثمائة ضرة .

الأدب بين الفطرة والذكاء [1] :

كثير من الناس يعجبون بآثار الكتاب والشعراء من غير أن يبحثوا عن مصدر ذلك الإعجاب ، وفى رأيى أن المطالعة لا تثمر إلا إن تبيّن القارئ جيداً ما هو السر فى جمال ما يقرأ من النثر الجيد والشعر البليغ .

وقد يكون السبب فى اختلاف النقاد على الأثر الأدبى الواحد أنهم لا يتنبهون إلى تحديد الأصل الذى يبنون عليه حكمهم بقوة الأثر الذى يختلفون فيه أو ضعفه ، ولو قد فعلوا لذهب كثير من أسباب الخلاف .

وقد نظرت فى أصول الأدب فوجدتها تنتهى إلى أصلين :

الفطرة والذكاء . فكل أثر أدبى يرجع إلى سلامة الفطرة التى أودعت به ، أو قوة الذكاء الذى ابتدعته .

فعلى القارئ أن يتأمل أصول ما يقرأ ليعرف أهو معجب بآثار الفطرة أم بآثار الذكاء ، وعلى من يختلفون فى تقدير الآثار الأدبية أن يرجعوا إلى الأصل لعلهم يتفقون .

---

(١) مقتطفات من كلمة لزكى مبارك على صفحات نفس الكتاب صفحة ١٨٩ بتاريخ ٥ مارس سنة ١٩٢١ ، وقد قدم زكى مبارك العديد من الأمثلة لتوضيح رأيه فمن يريد المزيد أن يعود للكتاب .

كتاب "بين آدم وحواء"[1]

ابتسم آدم حين رأى حواء تهدأ بعد ثورة وتلين بعد شماس وأخذ فى الاستغفار من الذنب الذى اقترف ، فقد حدثه الضمير بأنه أذنب بالفعل . وإن لم يذق الثمر الممنوع لأن نية السوء لا تقل بشاعة عن السوء فى نظر الأخلاق وكان آدم يعرف أنه يعامل الله : والله يحاسب على الأقوال والأفعال لأنه يحب لعباده أدب الملوك لا أدب العبيد [2] .

ثم نظر فلم ير حواء ، أين ذهبت ؟

فتش عنها فى غياض كثيرة وسأل عنها أسراباً من الطير والظباء فلم يظفر بجواب ، أين ذهبت ؟

أتكون غضبت من طاعة آدم وكانت تحب أن يتمرد ؟

---

(١) مقالات نشرت على صفحات مجلة الرسالة من بداية العدد ٤٥١ فى فبراير سنة ١٩٤٢ ، وقد جمعها عبد السلام زكى مبارك فى كتاب يحمل اسم "بين آدم وحواء" وطبع فى بيروت من سنوات فى دار الآداب البيروتية ، ونفد الكتاب .

بعد ذلك قمت بجمع الكتاب مع مقالة تحمل عنوان "بين الورق والدوح" وأثبتها فى بداية الكتاب ، لأن النقاد اختلفوا حول هذه المقالة ، وهل هى المدخل فى بداية الكتاب ، لحديث زكى مبارك عن آدم وحواء أم لا ؟

وصدرت الطبعة الثانية عن دار الجيل – بيروت .

(٢) مقتطفات من مقال زكى مبارك على صفحات مجلة الرسالة فى العدد ٤٥٤ .

فى هذا الكتاب أراد زكى مبارك أن يتناول مسائل مثيرة وشائكة ، وأن يسجل أفكاره وآراءه الجريئة فى مختلف شئون الحياة والفكر والمجتمع وخاصة الصلة بين الرجل والمرأة فاختلق قصة قال فيها إنها لمؤرخ مجهول اسمه شيث بن عربانوس وأن الكتاب كان بالخط الكوفى وأعطاه له الدكتور أحمد زكى باشا ، شيخ العروبة وأن زكى مبارك ترجمه كما هو ، وهو ما صدر بعد ذلك فى كتاب : بين آدم وحواء .

لقد خطر لآدم هذا الخاطر فقد علمته التجارب أن حواء لا تتمتع بالصحوة الجسدية والروحية إلا فى أوقات الخلاف ، وهل ذاق آدم حلاوة حواء إلا فى لحظات الثورة على الأوامر الربانية ؟

أمر هذه المخلوقة أعجب من العجب فهى لا تحلو ولا تطيب إلا عند النضال ، وهى تفقد كل قيمتها حين تتناول شئون الحب فى طاعة مجردة الإحساس كالطاقة التى تصدر عن فتاة لم تبلغ سن الكيد ، وكيد المرأة إثم جميل .

فكر آدم طويلا فى غيبة حواء وانزعج حين خطر له أن تكون حرمت الثورة على ما ترى وما تسمع ، وأنها لذلك سكنت للعزلة فى جنينة مهجورة يسقيها نهر مجهول من رواضع الكوثر ، وهى رواضع تعد بالألوف . وعاد آدم إلى نفسه ليعرف حاله فى غيبة حواء فصح عنده بعد التأمل أن العبادة الصحيحة لا تكون إلا فى الجهاد ، ولا جهاد بدون أهواء .

يجب أن يكون في الوجود حرام وحلال لنشعر بالذاتية فى قرب هذا واجتناب ذاك ، وإلا صرنا خلائق تواجه الوجود بلا اكتراث وإذا انعدم الاكتراث فقد انعدمت الأخلاق .

الدوح :

إلى أين يمضى هذاالورق الساقط ؟

وكيف جحد جميلى عليه ؟

حملته وهو ضعيف لا يقدر على التماسك ، وأمكنته من شرب الندى وارتشاف أكواب الضياء ، وحرمت نفسى عذوبة التمتع بصحوة الشمس فى الربيع ، ونشوة القيظ فى الصيف ليجد الفرصة لتذوق النعيم ، فهل حفظ هذا الصنيع ؟

لقد أبحته أن يمتص دمى كيف شاء ليواجه نور الوجود بحرية الطفل الغافل عن جهاد أبيه ، ولكل أب جهاد يجهله الأبناء ولو كانوا من الملهمين ، فهل عرف الورق الساقط أنى حرمت نفسى نعيم الندى والضياء ليتخايل ويستطيل ؟

والآن يعرف الورق أن الشتاء قادم وأنني بسأحتاج إليه لدفع عوادى البرد والجليد فهو ينخلع عنى ليتركنى بلا غطاء فى قر الشتاء .

الورق : ما عتبك علىّ أيها الدوح ؟

ما عضبك علىً وقد بذلت فى البر بك غاية ما أملك ؟

ألا تذكر أني صبرت على مصاحبتك فى السيطرة والاستعلاء شهوراً طوالاً .

ألا تعرف أنني عققت من أجلك أمنا الأرض ؟

فما ذنبى إذا اشتهيت العودة إلى الأم الرءوم وهى أيضًا تحتاج إلى من يدفع عنها البرد والجليد .

فالله وحده يعلم قصة الورق والدوح ، وهو الذى يعلم ما أعانى من البلبلة بين القاهرة وباريس وبغداد ، وهو الذى يعلم كيف أفر من التصريح إلى التلميح لينجو الورق من الافتضاح .

مدرسة سنتريس الابتدائية [1]

مدرسة لها فى حياتى تاريخ جميل يرجع جماله إلى المصاعب التى عانيتها فى إنشائها ، ومن المعارف التى قاسيتها بعد ذلك ، المصاعب الأولى مصاعب رسمية دامت نحو سنتين ، فإن رجال وزارة المعارف لم يكونوا مقتنعين بوجوب إنشاء مدرسة ابتدائية فى سنتريس ، وحجتهم أن المدرسة إن أنشئت فلن تجد غير عشرين أو ثلاثين من التلاميذ كما قال المفتشون الذين أرسلتهم منطقة طنطا لمعاينة تلك الناحية[2] .

مضيت إلى الهلالى باشا فى الإسكندرية وأطلعته على ما كتبه أولئك المفتشون .

وقلت : أنا أيضًا مفتش فى الوزارة ولو كلفتنى معاليك بكتابة تقرير لوصلت إلى إقناعك لأننى أعرف البلاد التى تجاور سنتريس بلدة بلدة ، فلى فيها أقارب وأصدقاء .

فقال الهلالى باشا : أنا موافق على شرط أن يصحبك أحد المراقبين لئلا يقال إنك تحابى بلدك .

كان المراقب العام وقتئذ محمد قاسم بك ، فكتب له الهلالى باشا خطابا يقول فيه :

عرض الدكتور زكى مبارك اقتراحًا وافقت عليه فأرسل معه أحد المراقبين المساعدين لزيارة تلك الدائرة .

(١) أنشئت المدرسة وافتتحت سنة ١٩٤٢ .

(٢) ١٩٤٨/٤/١٢ .

المراقب الذى رافقنى هو الأستاذ حسن خليفة بك ، وكان مع تقدم سنه غاية فى النشاط ، قضينا يوما فى معرفة البلاد التى تجاور سنتريس فوجدناها عشرين بلدا . فقال حسن بك : لم يبق عندى شك فى أن هذه البلاد تمون مدرسة ابتدائية بسهولة :

ولكن وزارة المعارف تشترط وجود مكان .

طفنا بالبلد ورأينا المنازل التى تصلح مقراً لمدرسة ابتدائية ، وبعد المطاف قال حسن خليفة بك :

المكان الذى يصلح مدرسة هو منزلك يا دكتور ، فاكتب إقراراً بأنك مستعد لتأجيره للوزارة ، وأنا أعرف أنك أقمت هذا البيت وأنشأت أمامه حديقة ليكون استراحة لك فى بلدك ، ولكن المدرسة أهم وتستطيع أن تبنى بيتاً غيره .

قال الهلالى باشا : سنحتل هذا البيت لنقيم بناء المدرسة وأنت مفتش بوزارة المعارف ويجب أن تضحى بكل ما تملك ... خرجت من البيت والدموع فى عيونى[1] .

فى أول يوم كان بالمدرسة ٢٠٧ من التلاميذ وكملت بها جميع الفصول ، لقد بكيت من الفرح حين سمعت الجرس يصلصل مؤذنا بافتتاح الدرس الأول وألقيت الدرس بنفسى على تلاميذ السنة الرابعة وكان فى اللغة العربية .

مهرجان :

زرت سنتريس فى يوم الاثنين الماضى لبعض الشئون فراعنى أن أجد فى المدرسة حركة غير عادية ، ما هذا الذى أراه ؟

---

(١) ١٩٤٧/١٢/٦

وقد حاول الدكتور زكى مبارك افتتاح قسم ثانوى بالمدرسة فلم يستطع ، بل كانت النتيجة أن يُبعد عن عمله كمفتش بوزارة المعارف العمومية ، وهذا مفصل فى الحديث عن إخراج زكى مبارك من خدمة الحكومة .

سعادة المراقب سيحضر من شبين الكوم ليقدم بنفسه جائزة التفوق للتلميذ إسماعيل محمد مصباح الذى كان ترتيبه الثانى فى المنطقة .

حضر المراقب ومضينا مع الناظر إلى ساحة الاحتفال ثم ألقى الناظر خطبة حيا فيها المراقب وحيانى ، خطب الأساتذة وخطب التلاميذ وفى كل خطبة كلام طيب وبالإطناب عن الدكتور زكى مبارك مؤسس المدرسة ، فسمعت جميع الخطب والدموع تفيض من عيونى ، ثم ألقى المراقب خطبة ختامية قال فيها ما نصه بالحرف الواحد :

أرجو يا أبنائى أن تجعلوا الدكتور زكى مبارك قدوة لكم ، فقد رفع سنتريس ورفع عشرين بلدا تجاور سنتريس ، ولو خدم كل رجل بلده كما خدم الدكتور زكى مبارك بلده لارتفعت جميع البلاد .

وحاولت أن ألقى خطبة فلم أستطع فقد شرقت بدموعى .

كتاب : العشاق الثلاثة [1]

"هوى جميل عند بثينة ، وهوى كثير عند عزة ، وهوى العباس عند فوز ، فأين هواى؟

زكى مبارك

هذا كتاب فصلت فيه الخصائص الأصلية لثلاثة من الشعراء جمع بينهم التوحيد فى الحب وهم :

جميل بن معمر ، وكثير بن عبد الرحمن ، والعباس بن الأحنف ، وكانوا من أقطاب الغزل فى شباب العصر الإسلامى [2] .

---

(١) العشاق الثلاثة هو آخر كتاب أصدره زكى مبارك فى حياته ، والكتاب الذى بين يدىّ صدر فى سلسلة اقرأ عدد عن دار المعارف بمصر فى حزيران سنة ١٩٤٤ ، وقد صدرت طبعة ثانية عن منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ثم صدرت طبعة ثالثة عن دار المعارف بمصر ....

ولم يصدر لزكى مبارك من الكتب فى حياته بعد ذلك إلا ديوان " ألحان الخلود" وهو الديوان الثانى للشاعر زكى مبارك .

(٢) وهذه السطور مقتطفات من صفحات الكتاب .

وهذا الكتاب للأديب الناقد والشاعر الدكاترة زكى مبارك يدعونا إلى وقفة معه :

يقول زكى مبارك : إنه كان يبكر فى الصباح ويذهب مع أبيه للصلاة ثم يباشر أعماله التى تنتظره وهى سحب الجاموسة أو البقرة إلى الغيط وذلك فى وقت مبكر ليرى منظر الصبايا وهن يملأن جرار الماء من النيل ، وأنه كان يتبعهن بعينيه وفى قلبه لوعة المفتون ، وكان أبوه يصفه بالتقوى والنشاط .

أما زكى مبارك فكان يقول : ما كان أبى يعلم - طيب الله ثراه - أنى لا أبكر إلا لأشهد الركب الأول من أسراب الملاح .

وبعد ذلك كان زكى مبارك يذهب إلى الكُتّاب فى القرية .

وذات صباح وهو فى طريقة إلى الكُتّاب صادفته صبية حلوة هى فتحية" فناوشها وناوشته وحين عاتبها قالت له . "انت يا واد عيونك خضر زى عيونى".

وتاه زكى مبارك فى عينيها فى رحلة لم يفق منها أبداً .. وكانت قصة الحب : =

ويمتاز هؤلاء الشعراء بالجد في العشق وبالحرص على كرامة الحب وبالإشادة بالعفاف ، فالهوى عندهم شريعة وجدانية وليس لهو أطفال ولا عبث شبان .

أولئك رجال آمنوا بالحب فعظموه ومجدوه واستهانوا من أجله بما يقاسي عباد الجمال من مصاعب وأحوال .

وقد أدى العشاق إلى اللغة العربية جميلاً يفوق كل جميل ، فهي مدينة بوجودها إلى أقباس أرواحهم ، وهم الذين رفعوا رايتها في المشرق والمغرب .

فما تسموا لغة على لغة إلا بقوة الإفصاح عن السرائر والوجدان ، ولا هَتف شاعر في أي لغة بغير الصوت الأول ، وهو صوت القلب ، ومن هنا كان الغزل أول شعر أجاده الناس في فجر الزمان .

هوى جميل عند بثينة ، وهوى كثير عند عزة ، وهوى العباسي عند فوز ، فأين هواي ؟

وما هو اسم الجميل الذي أحجبه بحجاب من الكتمان ؟

= قصة حب طاغ من النظرة الأولى أنطقته بالشعر ... وشاءت الظروف أن تفجعه في ليلاه وتصهره بالعذاب في هذه السن المبكرة فلقيت فتحية منيتها في أجمل أيام جمالها ... ويقال إن فتحية كانت جميلة جدا وذات عيون زرق ، كما كانت عينا زكي مبارك زرقاوين ، فلماذا كان زكي مبارك يصر على أن لون عينيه كانت خضراوين ؟

السبب كرهه للاستعمار ، فمن المعروف أن العرب أصلاً كانت تكره العيون الزرق ... وأن أزرق العين كان يذكرهم بالأعداء .

قال زكي مبارك إن فتحية توفيت في سن مبكرة وقبل أن تتزوج ، ولكن الذي لم يذكره زكي مبارك أنها تزوجت من غيره رغم حبها هي أيضاً له ، وبعد سنوات قصار توفيت . ولعلها سئمت حياتها بعد الزواج بدون حب فمرضت وماتت .

إن زكي مبارك لم يكن يستطيع أبداً الزواج من فتحية فقد كان بين عائلته وعائلة فتحية شجار مستمر .

وبعد أن رحلت فتحية وحتى آخر يوم في حياة زكي مبارك لم يستطع أن يرى أي أنثى إلا من خلال وجهها الصبوح · عاشت فتحية في قلب زكي مبارك وضميره ووجدانه فلم ينسها في يوم من الأيام .

وأقول إن زكي مبارك قد ملأ الدنيا بأحاديث الحب ، ولكن لماذا ؟

لأن زكي مبارك لم يعش الحب ، وإنما فقط كتبه .

هؤلاء الموحدون فى الحب لن يكونوا أصدق منى ، ولن ترى الدنيا ولو تحولت إلى فردوس عاشقًا أصدق منى ، ولن أرى أكرم من تلك الروح الغالية ، ولا أعذب ولا ألطف وإن توهمت أن الصدود من جنود الجمال ، هؤلاء الموحدون فى الحب يتكلمون باسمى على بعد الزمان والمكان ، فأنا وأنتِ أول صوت يناغى ضمير الوجود .

وتلك صورة واقعية لها نظائر فى حياة الرجال ، فمن السهل أن يقع الرجل فى هوى امرأة ليس له إلى الأنس بها من سبيل بسبب الخوف أو بسبب العفاف ، ويظل قلبه مشغولاً بها إلى أن يموت ، فإن وقع ذلك الحادث لشاعر مثل جميل فهو من صنع الواقع لا نسيج الخيال .

وهل ينكر العقل أن يهيم الرجل بامرأة متزوجة ، وليس له من أمل غير اعتراف صاحبة هواه بأنه رجل شريف ؟

إننا بهذه القصة قد غنمنا صورة جميلة من صور الحب العذرى : الحب الذى ينزه الغرام عن الأهواء والشبهات ، الحب الذى يجعل الغرام العفيف من شرائع الوجود .

إن جميل الفتى العارم الصوال لم يعرف الخضوع إلا فى الحب ، وقد رفعته همته عن التودد والولاء للخلفاء ، فلم يمدح أحداً قط ، ولم يره الناس فى موطن ذلَّة إلا فى تلمس الوصول إلى موقع هواه ، وهى ذلة أشرف من العزة فى نفس الشاعر الذى رآه أهل زمانه إمام المحبين(١) .

---

(١) ونستطيع أن نفهم الكثير من دفاع زكى مبارك عن جميل بن معمر ، وذلك عند حديثه عن قصة حب جميل ابن معمر والذى ظل يحب بثينة حتى بعد زواجها من رجل غيره .

ثم ماذا ؟ ثم أقول إن حبيبة زكى مبارك وهى فتحية قد تزوجت برجل غيره ، وأيضًا حبيبة جميل بن معمر وهى بثينة قد تزوجت برجل غيره ، ثم إن زكى مبارك قد فجع فى هواه كما فجع من قبل جميل بن معمر فى محبوبته بثينة حين تزوجت رجلاً آخر هو : حجنة الهلالى .

على أن قصة الحب الدامية التى عاشها زكى مبارك كما عاشها من قبل جميل بن معمر هى السبب فى أن النسيب هو الفن الغالب على أغاريد هذين الشاعرين .

وربما استطاع أحد الدارسين فى يوم من الأيام أن يقدم لنا دراسة مقارنة بين حياة وحب وشعر زكى مبارك وجميل بن معمر .

كما أتمنى أن تصدر دراسة عن العشاق الأربعة : جميل بن معمر ، وكثير بن عبد الرحمن ، والعباس بن الأحنف ، وزكى بن مبارك .

وأنا أوصى القارئ بالوقوف عند تلك الموازنات ليشهد صدق الفطرة عند جميل وليرى الإغراب اللغوى عند "كثير" ، وعذوبة الرقة عند "العباس" .

ثم أوصيه بأن ينظر كيف جاز أن نقضى بأن لكثير أستاذاً هو لبيد ، وكيف أمكن القول بأن غرام كثير بالغريب قد يكون مما تأثر به كاتب مثل الحريرى ، أو شاعر مثل أبى العلاء ، ولهذا تفصيل ستراه فى مكانه فى هذا الكتاب .

أنا مفتش المدارس الأجنبية بالمملكة المصرية [١]

حين كنت أفتش مدرسة الليسيه بمصر الجديدة كان النظام أن يحضر مدير المدرسة ، فرأيت أن يكون الدرس فى الترجمة ليسمع شيئًا يستريح إليه ، أخطأ التلميذ فى الترجمة فصححت الخطأ فوقف المسيودى كومنين مدير المدرسة وقال : التلميذ على حق .

فقلت : إنك يا مسيودى كومنين لا تعرف اللغة الفرنسية ، تجادلنا نحو ثلاثين دقيقة وحين انهزم قال :

لا يؤذينى أن يهزمنى الدكتور مبارك فى لغتى فهو متخرج فى جامعة باريس ، وهزيمتى تشريف لجامعة باريس .

فقلت : أرجوك يا مسيو دى كومنين أن تسمع : إن اللوحة الفنية إذا رأيتها من قرب لا تروقك ولكنك حين تراها من بعد تروقك ، وأنت رأيت لغتك من قرب وأنا رأيتها من بعد ولهذا صرت أفصح منك .

والمجهول فى حياتى أننى أحد المؤسسين لمدرسة الليسيه بمصر الجديدة ، والمجهول فى حياتى أيضًا أننى أول منشئ لمستشفى الأميرة فريال ، كنا عشرة رجال أنا أولهم وثانيهم المسيو دى كومنين وثالثهم شفيق باشا ، كنت من الأغنياء فى ذلك الزمان ، رحمة الله على ذلك الزمان .

---

(١) ١٩٤٧/١٢/٢

إلى مفتشى اللغة العربية [1] :

كنت درجت فى الأعوام الأخيرة على نقد أسئلة اللغة العربية فى امتحان الثقافة والتوجيهية فتصدى للرد فى المرة الأولى مفتش سابق هو الأستاذ محمود محمد حمزة وعاونه أحد المدرسين الأوائل بالمدرسة الثانوية ، ولكن الحق كان معى فانتصرت .

ثم رأيت جماعة من المدرسين أخرجوا كتاباً فى شرح النصوص المقررة لطلبة التوجيهية فأخرجت لهم عشرين غلطة ونشرتها فى البلاغ فرد أحد المؤلفين بمقالة زعم فيها أنى مخطئ فى جميع ملاحظاتى ، وجاء فى سياق كلامه ما يشير إلى أن اللغة العربية لا يعرفها غير أبناء دار العلوم .

أنا أعترف بأنى مفتش من الجامعة المصرية ، وهو منصب أخذته من الدرعميين أخذته بالحق ، فقد شرحت كتاب الزمخشرى فى كلية الآداب قبل أعوام ، ونقدت كتاب سيبويه فى وطن سيبويه ، ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه يعرف أسرار اللغة العربية مثل الذى أعرفه .

واليوم فنحن أمام مشكلة جديدة ... أنا مفتش فى التعليم الثانوى ولكنى أزور القسم الابتدائى إن كان بالمدرسة قسم ابتدائى ، وقد زرت السنة الأولى بروضة الأطفال فرأيت فى أيدى العصافير الجزء الأول من كتاب "الجديد فى اللغة العربية" وهو كتاب اشترك فى تأليفه ستة من المفتشين : رأيت ما نصه بالحرف :

السودان قطعة من المملكة المصرية يعيش فى السودان عصفور اسمه عصفور العسل .

كذلك رأيت واستغربت فهل هذا التركيب سليم يا حضرات المفتشين ؟

لكم أن تجادلوا بالتى هى أحسن أو بالتى هى أقبح ، ولكنكم ستفاجئون حين أقول لكم إن الصواب أن يقال :

السودان قطعة من المملكة المصرية وفيه يعيش عصفور اسمه العسل . ومع هذا التصحيح فأنا مفتش من الجامعة المصرية لا يعترف به الدرعميون .

---

(1) ١٩٥٠/٥/٢١

إن الذى أرجوه أن يعرف قرائى أن النحو هو هندسة اللغة العربية ، وأن التعمق فيه يزيد فى جمال البيان ، فمن واجبهم نحو أنفسهم أن يلتفتوا إليه ليعرفوا أسرار الجمال [١] .

وحكايات التفتيش ليس لها حدود ، دخلت مدرسة الليسيه فرانسيه بالاسكندرية فجأة ، فضحك التلاميذ حين رأونى ، فقلت للمدرس إن للمفتش هيبة فما الموجب لضحك التلاميذ ؟ [٢]

فوقف أحد التلاميذ وقال : المدرس كان يتكلم فى السياسة وحين رآك غير الموضوع .

لايجوز للمدرس أن يتكلم فى السياسة فى الدرس لأن هذا يخلق له خصومًا من التلاميذ ، فآباؤهم من أحزاب مختلفة ولهم ألوان من الأهواء .

وأنا مفتش بالمدارس الأجنبية بالملكة المصرية ومعنى ذلك أن أزرع فضاء الله من الاسكندرية إلى أسوان وبورسعيد ، وليس لى أن أعترض لأننى موظف بعقد والوظيفة قد تطير إذا قلت كلمة الحق ، ولن أقولها أبدا لوكيل وزارة المعارف واسمه فلان وله كتاب فى التاريخ قال فيه : إن سكان بغداد فى عهد الرشيد كانوا يزيدون عن مليونين ... وهذا مستحيل ياسعادة الوكيل ! [٣]

إن سكان العراق لهذا العهد أربعة ملايين فكيف كان سكان بغداد فى عهد الرشيد مليونين ؟!

ولا يجوز أن نعترض على وزير المعارف كأن نقول إنه أقام حفلة تكريم للمعلمين فى ديوان المحافظة وألقى خطبة أجمل من الورد فى الخد وأحلى من إغفاءة الفجر!) .

ماذا أصنع ؟ [٤]

رجل فقير يريد أن يعيش ، وقد ارتميت فى أحضان الوظيفة لأعيش ، ولكنى أتعزى حين أذكر أنه لولا هذه الوظيفة لكان من المستحيل أن أرى خزان أسوان .

---

(١) ١٩٤٦/٥/٢ .
(٢) ١٩٥٠/١٠/٣١ .
(٣) ١٩٥٠/١٠/٣١ .
(٤) ١٩٥١/٢/١٦ .

في عملي في التفتيش في الأعوام الأخيرة يخطر في بالي قول البحتري[١] :

وإذا عددت سني كم هي لم أجد للشيب عذرا في النزول برأسي

ويظهر أن طلائع الشيب ظهرت في شعر البحتري وهو في سن العشرين .

وأنا أيضا شبت مبكراً ولكني لم ألتفت لأني أعرف أن عافية البدن هي أساس الحيوية الشخصية ، وشيب الرأس ليس بشيء مادام الفؤاد من الشيب في أمان .

أنا ما شبت إنما شاب شعر لفحته شرارة من غرامي[٢]

فتشت مدرسة القديس لويس في طنطا فوجدت تلميذا أعمى ورأيت أنه غير مقبول كتلميذ نظامي ، دخلت على الوزير وقلت :

ألا يتعلم الأعمى كما يتعلم المبصر ؟

قال الوزير : إكراما لخاطرك يادكتور مبارك نقبل هذا التلميذ ، ويظهر أنك على جانب عظيم من الإنسانية ، قلت :

أنا أزكي عن بصري ، وللبصر زكاة . [٣]

حين كنت أستاذا بالليسيه فرانسيه كان راتبي في الشهر ثلاثين جنيها ، فكنت ألقي الدرس وأنا واقف ثم أسهر في بيتي في تصحيح الكراريس ثم أتطوع بإلقاء دروس إضافية لتصير الثلاثين جنيها حلالاً في حلال [٤] .

وعملي في التفتيش كذلك فقد كنت أمضي إلى أسيوط في الشتاء ، وليل أسيوط في الشتاء لايعرفه إلا من عاناه فهو أبرد من ليل سيبيريا وأعنف ، ومهما تدثرت في ليل أسيوط فلن تنجو من البرد .

وراتبي في البلاغ أنفق نصفه في اقتناء الكتب الفرنسية والعربية لأستلهم المؤلفين أفكارا وآراء .

---

(١) ١٩٥١/٢/١٣ ، وكان زكي مبارك قد عين مفتشاً بعد إخراجه من الجامعة .

(٢) هذا البيت من إحدى قصائد الشاعر زكي مبارك .

(٣) ١٩٣٧/١٢/١٨

(٤) ١٩٥٠/١١/٧

الخروج من خدمة الحكومة المصرية

" لقد خرجت من خدمة الحكومة المصرية ثلاث مرات بلا مكافأة ولا معاش ... وقد عرفت أن المكافأة والمعاش هما الظفر بإعجاب قرائي"

زكي مبارك

إلى معالي وزير المعارف : ١٩٤٥/٩/٢٤

من الدكتور زكي مبارك :

صديق العزيز :

إليك تحيتي وعليك سلامي .

ثم اذكر أني قرأت في إحدى الجرائد أنك فصلتني من عملي بوزارة المعارف .

إن تصحيح غلطة جغرافية لوزير المعارف وهو السنهوري باشا كانت سبب في مشادة عنيفة قضت بأن أخرج من عملي بوزارة المعارف وكنت من أكابر المفتشين [١] .

أرادت وزارة المعارف أن تنشيء قسمًا ثانويًا بمدرسة الباجور الابتدائية فكتبت في البلاغ أقول :

---

(١) هذه السطور من كلمة للدكتور زكي مبارك على صفحات ديوانه الثاني : "ألحان الخلود" ص ١٨٧ : الطبعة الثانية والتي صدرت عن مكتبة مصر ومطبعتها بالفجالة .

إن الباجور قريبة من شبين ومنوف ، ولكن "القباني" أصر على أن سنتريس هى القريبة من شبين ومنوف ، فرجوت السنهورى باشا أن ينظر فى الخريطة ليرى أن مدرسة سنتريس أحق بالقسم الثانوى ، فعزّ عليه أن أوجهه إلى جغرافية المنوفية ، ومشى دعاة السوء بينى وبينه فأفهموه أن ما ينشر فى جريدة البلاغ عن وزارة المعارف هو من إملائى لأنى أزور البلاغ ثلاث مرات فى الأسبوع وهذا غير صحيح ، فقد كنت أزور مطبعة البلاغ لأصحح مقالاتى وقصائدى فى جريدة الحوادث .

وأنا لا أستبيح نشر كلمة عن وزارة المعارف بدون إمضاء صريح ، وقد ناقشت وزراء المعارف باسمى مرات كثيرة ، فما عرفتْ وزارة المعارف مفتشًا أغير منى بأصول التعليم والتثقيف .

وكانت النتيجة أن يصدر السنهورى باشا قرارًا بانتدابى من التفتيش إلى دار الكتب المصرية ، ودار الكتب ففى للمغضوب عليهم من رجال المعارف .

عند ذلك وجهت إلى السنهورى باشا خطابًا أقول فيه :

لن أطيع أمرك إلا يوم تقيم الدليل على أنك وزير فقد أسلمت أمور الوزارة إلى "قبانى" بلا ميزان .

وأراد الوزير أن يقيم الدليل على أنه وزير بالفعل فأصدر قرارًا بالاستغناء عن خدماتى ، وبهذا أظهر أنه وزير خطير !

وأشار أصدقائى برفع قضية على وزارة المعارف ولكننى رفضت لأن معنى ذلك أنى لا أصلح للعمل بغير وزارة المعارف ؛ وهذا لا يليق برجل طويل الباع .

مدرسة إنجليزية : ١٩٤٥/١٠/٣

كان الأستاذ ... مراقبًا بوزارة المعارف العمومية فبلغه عن المدرسة الإنجليزية بالروضة شىء ، وهى مدرسة تعد تلاميذها للامتحانات العمومية ، ومن واجب وزارة المعارف أن تعرف ما يدور حولها من أشياء .

مضى المراقب إلى المدرسة فدخل حجرة السكرتير وقال أُبلغ جناب المدير أن المراقب : ... يريد مقابلته لشئون متصلة بالتعليم فى المدرسة .

خرج إليه السكرتير وقال : إن جناب المدير يرحب بمقابلتك لو كانت زيارتك زيارة شخصية ولكنه بكل احترام يعتذر عن مقابلتك بصفتك الرسمية لأن المدرسة غير خاضعة لتفتيش وزارة المعارف المصرية .

رجع المراقب كاسف البال وسأل عنى بمكتب تفتيش اللغة العربية ليقول كيف تفتيش هذه المدارس يادكتور ؟ وقص علىَّ ما وقع فقلت له : لا عليك .

فقال ما معنى لا عليك ؟

فقلت : هى عبارة عربية معناها أنى شأشفى صدرك فى صباح الغد .

وكيف ؟

سيعتذر المدير إليك .

مضيت إلى حجرة السكرتير وقلت له : بلغ جناب المدير أن الدكتور زكى مبارك يريد مقابلته ... وما هى إلا لمحة حتى قال السكرتير : تفضل ، تفضل .

المدير إنجليزى يتكلم الفرنسية بسهولة ويتكلم العربية بصعوبة ، فكان الحديث بالفرنسية .

ابتسم و قال أنت الدكتور زكى مبارك .

نعم .

لقد قرأت مقتطفات من مقالاتك ، مقتطفات مترجمة من العربية إلى الفرنسية والإنجليزية .

إن لغتى يا جناب المدير أفصح مما تنقله المترجمات ، ولو أن المترجمين ، استشارونى لكانت الترجمة جديرة بالتعبير عما أريد من دقائق المعانى .

– تسمح بسؤال ؟

– أسمح بسؤالين :

– ما هو عملك ؟

– مفتش بوزارة المعارف .

– إذن جئت للتفتيش ؟

– جئت لأقنعك بضرورة التفتيش على مدرستك .

– فأبتسم المدير وقال : أقنعني .

– فقلت إننا وثقنا بك ، فرضينا أن يكون أبناؤنا تحت رعايتك ولولا الثقة بإخلاصك لنفرناهم منك وحرضناهم عليك .

– فقال المدير وقد بدا الحزن على وجهه . أنا هنا لخدمة التلاميذ المصريين ، وأنا أخدم بريطانيا بالصدق ، وبريطانيا تأمرني بأن أكون دائماً من الشرفاء .

نترك بريطانيا ومصر يا جناب المدير ونتخاطب بلغة التعليم ، وأنا أسألك ما هو الموجب لوظيفة المفتش ؟

فقال : إن التفتيش رقابة ضرورية وبها نعرف أحوال المدرسين .

فقلت هل تعرف اللغة العربية ؟

فقال : لا .

فقلت : هل عندك مفتش للغة العربية ؟

فقال : لا .

فقلت : أسمح لي ياجناب المدير آن أقول بكل احترام إن وزارة المعارف المصرية منحتكم حقاً هو من الخطورة بمكان .

وماهو ذلك الحق ؟

هو أن تكون امتحانات النقل فى داركم لا فى ديار المدارس الأميرية وهو حق لم تظفر به المدارس الأهلية .

هذه مسألة تحتاج إلى توضيح فاشرحها بإطناب .

سأشرحها بإيجاز فأقول : إننا فنحناكم الحق فى امتحان تلاميذكم فى داركم على شرط .

وما هو ذلك الشرط ؟

هو أن يشرف مفتش وزارة المعارف على امتحانات النقل .

ونحن نسمح للمفتش المنتدب من الوزارة للإشراف على امتحانات النقل بدخول المدرسة ونرحب به كل الترحيب وهذا يكفى .

إنه لا يكفى .

كيف ؟

تفضل يا جناب المدير بسماع حجتى .

قلبى إليك قبل أذنى .

إن المفتش المشرف على امتحانات النقل تطلب منه الوزارة شيئين :

الأول أن تكون الأسئلة مطابقة للمنهج ، والثانى أن تكون إجابات التلاميذ قريبة من إجابات رفاقهم فى المدارس الأميرية .

لقد فتحت أمامى بابًا للتفكير يا حضرة المفتش ، ونحن الإنجليز نتكبر فى الميادين العسكرية ونتواضع فى الميادين العلمية .

وهذا سر قوتكم يا جناب المدير ، وقد قرأت بالفرنسية أكثر من عشرين كتابًا فى التعريف بعظمة الإنجليز من الوجهة الأخلاقية .

وقد تنبهة إلى هذه الناحية رجل من عظمائنا هو المغفور له فتحى زغلول فترجم إلى اللغة العربية كتاباً فرنسياً عن سر تقدم الإنجليز السكسونيين .

أيكون من أقارب سعد زغلول ؟

هو أخوه .

شيء جميل .

والشيء الأجمل هو أن تتفضل بسماع كلامى .

قلبى إليك قبل أذنى .

إذا اكتفى مدرس عندك بتدريس خمس مسائل من المقررات ليضع فيها أربعة اسئلة فى الامتحانات فماذا تضع ؟

أنت رجل مزعج .

إن الذى يهمنى هو أن تعرف أن قوة مصر فى حياتها العلمية ، وليس الغرض من التفتيش أن نختبر المدرسين فى جميع أدوار التفتيش وإنما هنالك غرض آخر هو اختبار التلاميذ فيما حصلون لنطمئن إلى أنهم درسوا المقررات دراسة وافية .

والنتيجة ؟

النتيجة أنك بين أمرين : الأمر الأول أن تقبل التفتيش ، والأمر الثانى أن نسحب منك الامتياز الذى منحناه لك ، وهو إجراء امتحانات النقل فى دارك ، ولا خطر من سحب الامتياز فعواقبه هينة وهى أن تلاميذك فى امتحان الثقافة العامة يسألون عن مقررات أربع سنين ، لا مقرر سنة واحدة وهو ما يطالب به التلاميذ النظاميون .

أنا لا أتعب تلاميذى من أجل مسألة شكلية .

ما تلك المسألة الشكلية ؟

هى الحرص على أن نكون مستقلين عن وزارة المعارف المصرية ، مع أن أهدافنا متحدة وهو تعليم الشبان المصريين ... تفضل يا حضرة المفتش بزيارة المدرسة مع الرجاء بأن تعود إلينا من وقت إلى وقت ولا تبخل بتقديم مذكرة وجيزة أعرف بشيء سير التدريس .

والمراقب الذى منعته عن مقابلتك بالأمس ؟

سأزوره بمكتبه وأعتذر إليه ، فنحن الإنجليز نعيش على الذوق .

ومع هذا يقول معالى الدكتور السنهورى باشا إن نظار المدارس الأجنبية شكونى إليه .

عند الله جزائى ، فالله وحده هو الذى يجزى الجميل بالجميل .

زكى مبارك

مفتش المدارس الأجنبية

بالمملكة المصرية

تلميذى مصطفى أمين : ١٩٤٨/٩/١٣

كتب فى أخبار اليوم يقول :

سألنا معالى وزير المعارف عن السبب فى انتداب الدكتور زكى مبارك إلى دار الكتب المصرية فقال : تلقيت شكايات من المدارس الأجنبية عن طرق الدكتور زكى مبارك فى التفتيش فنقلته إلى دار الكتب .

الشكايات صحيحة فهذه المدارس لم يكن لها لجام ولا زمام ولم تكن تعترف بسيطرة وزارة المعارف ، وكان يجب أن أضع أقدام وزارة المعارف بتلك المدارس .

ولأول مرة فى التاريخ تعرف مدرسة الخرنفش أن مفتشًا مصريًا يأمرها أن تخص أساتذة اللغة العربية بعد الساعة العاشرة يوم الجمعة ليصلى المدرس إن كان يصلى أو يتغدى مع أبنائه إن كان لا يصلى ، وأمرتهم بأن لا يرجع المدرس بعد الظهر فى شهر رمضان .

ثم بالغت فى التحرز فألغيت الامتحان ، ولكن كيف ؟

كانت طريقتى أن أراجع جميع الإجابات بنفس فى غيبة المدرس ، أرجو وحدى فى يومين أو ثلاثة ، ولكن مشكلة تعترضنى ، وهى أن الإجابات كلها بصورة واحدة فكيف يقع هذا ؟

إن الذى عرفته أن المفتش عين الوزارة وسمعها ، ويجب أن أطلع وزير المعارف ... رجانى المدرسون أن أسكت ، فقلت هذا مستحيل .

أخذت سيارة ومضيت إلى وزارة المعارف فقال الهلالى باشا لابد من التحقيق ولابد من تحقق يصحبك .

قال وكيل المدرسة ما كنت أنتظر أن تصنع هذا معنا يادكتور ... فقلت : ضميرى لم يسمح بغير ما صنعت .

قضينا أياماً فى المراجعة ، وقد ظهر أن مدير القسم الأدبى يعطى التلاميذ أربعة موضوعات للإنشاء يحفظونها عن ظهر قلب ... فأمرت بإلغاء الامتحان .

خرجت من الوزارة بلا مكافأة ولا معاش ، وقد أعطى الهلالى باشا تصريحى لمحرر آخر ساعة بأنه لم يكن يعرف أننى لم أكن موظفاً مثبتاً ، فالموظف المثبت لا يمكن إخراجه من وظيفته بدون تحقيق .

الخروج من المعهد العالى لفن التمثيل [١]

القيامة ستقوم بالرعد والبرق ، ولها أن تقوم أو تقعد كما تزيد فما عدت أصغى إلى شيء بعد أن رأيت الحياة من كافة الأشياء .

أظنها ليست كما أصف ففيها أصدقاء غادرون يوحون المعانى ، وفيها أصدقاء أوفياء يوحون المعالى .

حين أخرجنى السنهورى من وزارة المعارف لم أجد كاتبًا يقول كلمة عتاب فى جريدة أو مجلة ، ولكني وجدت الوفاء فى جريدة البلاغ فكتبت فيه ما أردت ، وقلت فى السنهورى ما كان يجب أن يقال .

والتفت السنهورى فوجد أن إخراجي من وزارة المعارف لا يكفى لأنى أستاذ فى المعهد العالى لفن التمثيل ، وهو معهد أنشأه الأستاذ فؤاد سراج الدين باشا يوم كان وزير الشئون الاجتماعية .

القصة أننى كنت أخذ من محاضراتى بالمعهد نحو عشرين جنيها ولكن خطابًا يصل من السنهورى وفيه أن التدريس بالمعهد مقصور على المدرسين بوزارة المعارف .

سلمت على تلاميذى وخرجت والدمع يتفجر من قلبى .

إن أدرت المذياع فسأسمع أصوات تلاميذى بالمعهد وهم الذين علمتهم مخارج الحروف [٢] .

---

(١) ١٩٤٩/١٢/٦ .

(٢) ١٩٥٠/١/١٧ .

المعهد العالي لفن التمثيل [1] :

كنت رأيت أن أروض تلاميذى بالمعهد العالى لفن التمثيل على الشعر ، وقد حضر سعادة عبد المجيد بدر باشا حفلة أنشدت فيها قصيدة قصفق واستعار بعض الأبيات ، والقصيدة موجودة في ديوان ألحان الخلود .

ويسرنى ويشرح صدرى أن أكـون أول أسـتاذ للآداب العربيـة بالمعـهد العالى لفن التمثيل ، وقد أحبنى الطلبة وأحببتهم ، وكنت أدعوهـم ليتـناولو معـى العشـاء بدون تكليف .

وأنا خرجت من المعهد بدون حجة صحيحة فقد قيل إن وزارة المعارف قررت أن يكون التدريس بالمعهد مقصوراً على المدرسين بوزارة المعارف .

أيعجب خاطرى كيف التقينا   بدار أصبحت مهـــد الفنـــون [2]

وحال المعهد العالـــى جميـل   به ما شئـت من تحــف الفنون

تحملت ما قضت به إرادة الوزير السابق وأفضل منه إرادة الله التى قضت بأن أخرج إلى حياة النضال من جديد وفى يدى قلم يفل الحديد [3] .

وهى فرصة ردتنى إلى مكتبتى وجهًا لوجه ، والمكتبة فى مكتب الرجل الباحث هى التليفون فى مكتب رجل الأعمال .

لقد خرجت من خدمة الحكومة ثلاث مرات [4] .

خـرجت بلا مكافـأة ولا مـعـاش ، وقـد عـرفت أن المكافـأة والمعـاش هـمـا الظـفـر بإعجاب قرائى .

لو بقيت مدرساً بالجامعة المصرية كما كنت ، أو مفتشاً بوزارة المعارف كما كنت لضاعت هذه الثروة الأدبية .

---

(١) ١٩٩٩/٢/١٤ .

(٢) بقية أبيات القصيدة على صفحات ديوان "أطياف الخيال" .

(٣) ١٩٤٩/٦/٢١ .

(٤) أخرج زكى مبارك أول مرة حين كان مدرسًا بالجامعة المصرية ، وأخرج بعد ذلك من تفتيش وزارة المعارف ، ثم أخرج مرة ثالثة من المعهد العالى لفن التمثيل ، وسبحان من له الدوام .

وجودك بلا عمل فضيحة يا دكتور [1]

مضيت إلى عملي وهو تحرير الصفحة الأدبية فى البلاغ .

ومن الواضح أن مكافأتى فى البلاغ لا تكفى لتموين جيش يقيم فى البيت ، فرهنت أملاكى فى سنتريس وشرعت فى بيع أملاكى فى سملاى ، وأنشدت قول الشاعر :

سأصبر حتى يعلم الصبر أننى صبرت على شيء أمر من الصبر

ومن الأغانى الشعبية :

الصبر من كتر صبرى اشتكى منى

ويقرأ الوزير على بك أيوب مقالاتى فى البلاغ فيكلف أحد المفتشين بالسؤال عنى فأمضى إليه ليقول ·

وجودك بلا عمل يا دكتور مبارك فضيحة للحكومة المصرية ، وقد أصدرت قراراً وزارياً بتعيينك فى القسم الأدبى بدار الكتب المصرية ، فنحن فى شهر مايو ولا توجد فرصة للتفتيش ، مضيت إلى الدار فى ١٨ مايو من السنة الماضية .

---

(١) ١٩٥٠/٤/٩ .

العودة لوزارة المعارف [1]

كانت هناك مشكلات حول المدارس الأجنبية ، وكنت أحلها بنفسى ، وكانت هناك مشكلة تتصل بمدرسة الفرنسسكان معقدة إلى أبعد حدود التعقيد ، ولهذا وصلت البرقية الآتية :

الدكتور زكى مبارك : مصر الجديدة

إن عودة عزتكم لوزارة المعارف نصر للحق ، وفتح مبين للوطن العزيز ، فهنيئًا للمعارف بالرجال العاملين ، وشكرًا لله جلت قدرته .

الفونس حنا

ناظر مدرسة الفرنسسكان

الثانوية بأسيوط

أنا متشكر يا أستاذ فهذه البرقية شرحت صدرى .

---

(١) ١٩٥٠/١/٣١ .

حالى فى البلاغ

حالى فى البلاغ حال الشاهد الذى يقول له القاضى قل والله العظيم أقول الحق [١]

أمين مكتبة العدل [٢] :

يلقانى فى "المترو" ويسأل عن السبب فى أن تكون الصفحة الأدبية تشتمل أحيانًا على مسائل تاريخية وجغرافية وفلسفية ؟

والجواب أن الأدب لا موضوع له ، فمن حقى أن أقول فى الصفحة الأدبية ما أريد .

قال دسوقى أباظة باشا : أنا اقرأ صفحة البلاغ فى أسفارى فأشعر بارتياح . وكنت أتمنى أن أنقله إلى جريدة السياسة بضعف مرتبه فى البلاغ [٣] .

---

(١) ١٩٥٠/١/٣١ .

(٢) ١٩٤٩/٥/٢٣ .

(٣) على صفحات مجلة الهلال وفى فبراير سنة ٢٠٠٣ كتب الفنان حسن سليمان تحت عنوان "الدكاترة زكى مبارك" كلمة ضافية قال فيها الفنان حسن سليمان إنه كان يتردد على بار "سيسيل" فى ميدان التوفيقية حيث يجتمع عدد من أقطاب حزب السعديين ومنهم :

عبد المجيد باشا وعبد الحميد عبد الحق ومحمد بك عبدالسلام وعلى أيوب وتوفيق بك عمر وأنهم قالوا له : كنا نحترم زكى مبارك لاعتزازه بكرامته ورفضه لاستلام أى مبالغ من أى جهة .

بعدها قال الفنان حسن سليمان : وقد أكد لى السعديون نزاهة زكى مبارك واعتزازه بكرامته ورفضه أخذ نقود من السعديين أو غيرهم من الأحزاب .

فقلت : أنا يا معالى الباشا رجل فقير ولكنى لا أريد أن أختم حياتى بالغدر والعقوق ، فعن الأستاذ عبد القادر حمزة عرفت كيف أكتب الصفحة الأدبية [١] .

تعلمت من هذا الرجل شيئين : الأول الابتسام ولو ساء ت الظروف ، والثانى الوقوف على صخرة فى البحر فما يليق بالرجل أن يقف على الرمل [٢] .

طريقتى فى الإنشاء :

سألنى جماعة من أصدقائى عن طريقتى فى الانشاء .

فقلت :

لفائدة قرائى أنا متأثر بأساليب كثيرة ؛ أولها أسلوب القرآن المجيد ، والله يقول : ﴿ كل أمرىء بما كسب رهين ﴾ .

وهذا تعبير دقيق وهو فى معناه أساس المسئولية الأخلاقية .

وفى الأدب الفرنسى متأثر بالكاتب فنلون مبتدع رواته تلماك ، ثم يجىء طفل يؤثر فى أسلوبى وهو أناطول فرانسى[٣] .

وأنا أبغض من يبصرنى بأمور دنياى لأنى رسمت لحياتى كلها خطة لا أحيد عنها فى أى وقت ، وهى الظفر بأى نصيب من أنصبة الفكر والرأى ... وهذا هو السبب فى أن تكون أوقاتى كلها مشغولة برياضيات ذهنية وعقلية وروحية ،

---

(١) ١٩٤٩/١/١٠ .
(٢) ١٩٥١/٩/١٠ .
(٣) ١٩٤٨/١٠/١٠ .

وهو أيضًا السبب فى طول الخلوة إلى القلم بحيث لا يمضى يوم يجوز نعته بالـفراغ ولو كان من أيام الأعياد [١] .

أنا لا أزهد فى المال ولا أدعو إلى الزهد فيه ولكنى أفهم أن الغنى بالنسبة إلى أهل العلم والأدب غنى محدود وينبغى أن يظل كذلك لتبقى لأهل العلم والأدب أشواق إلى المعانى وليتحرروا من أسر الغنى الفضف حسن فله شواغل تحد من وثبات العقول وسبحات للأرواح وخطرات القلوب .

وأعيادى الحقيقية هى اللحظات التى أخلو فيها إلى قلمى وإلى كتابى ، وما عدا ذلك فهو عمر ضائع فى الهواء [٢] .

والحديث ذو شجون هو عنوان اخترته لمقالاتى سنة ١٩١٩[٣] .

والشجون التى ترد فى كلام العاشقين مفردها شَجَن بفَتح الجيم ، وشجونى أنا مفردها شَجْن بسكون الجيم ومعناها فن ، إذن يكون المعنى الحديث ذو فنون [٤] .

ولى خطة وهى أن يكون فى كل حديث ما يوحى إلى القارئ فكرة ولو صغير، فالفكر كالنار قليلها ليس بالقليل ، وأنا أكتب فى كل يوم عملاً يقول ابن المقفع إذا كر تقليب اللسان لانت حواشيه ورقت عذوبته "والرجل" إذا تعودت المشى مشت [٥] .

وكنت أهدى مؤلفاتى إلى محررى الجرائد فكانوا يقولون فى لطف : [٦]

اصنع معروفًا واكتب لنا كلمة فى تقريظ كتابك لننشرها فى أقرب فرصة ، فكنت أبتسم ثم أنصرف ولا أعود ، ومنذ ذلك اليوم أنظر إلى تقريظ الكتب نظر السخرية : إذ عرفت أن أكثر التقاريظ من صنع المؤلفين .

---

(١) مجلة الرسالة فى أول مارس سنة ١٩٤٢ .
(٢) ١٩٤٨/٨/٩ .
(٣) ١٩٤٨/٦/٧ .
(٤) ١٩٤٨/١٠/١٥ .
(٥) ١٩٥١/٣/٦ .
(٦) من كتاب الهلال "ذكريات باريس" الطبعة الثانية للدكتور زكى مبارك والذى صدر فى أغسطس سنة ٢٠٠٢ ، وهذه السطور صفحة ٢٥٣

أنا قليل الرغبة فى سماع الثناء وقليل الاهتمام بما يوجه إلىّ من نقد ، وإنى لأعرف أن هناك ناسًا ينبحوننى كلما ذُكرت عندهم أو جريت فى خواطرهم كما تنبح الكلاب القمر حين ترى خياله على صفحات الماء .

وفي يقيني أن الرجل كل الرجل هو الذى يهتدى بوحى ضميره غير مأخوذ بلوم أو ثناء .

فما عسى أن تكون تلك الوحشة القاتلة التى لا تفتأ تغزو قلبى وتفتك بأحشائى ؟ وما يصدر تلك الأشجان التى لا أتذكرها إلا فزعت يوم كان "المترو" يشارف محطة الحمامات ثم يغادرها إلى كوبرى الليمون ، وأروع ما كنت أقاسى فى تلك المنطقة كان يقع فى اللحظات الدامية ؛ لحظات الغروب حين تواجهنى الشمس بتسليمة التوديع والشفق من حولها يشبه الخدود الداميات ، إنها لحظات مفزعة مخيفة كان قلبى يجتازها في وجيب وخفوق ، وكنت فيها أشعر الناس إن كانت حقيقة الشعر أنه وجد وإحساس لا قواف وأوزان .

يسرق الناس آرائى :

جدى مبارك كان مستريحًا فى حياته ، ولم يكن جدى مبارك مسئولاً عن ميعاد ، فما في عهده نشأت جريدة البلاغ التى تأكل مطبعتها النار ، ولا كان موظفًا يحضر إلي الديوان بميعاد ولا كان شاعراً ولا كاتبًا يسرق الناس آراءه كما يسرقون آرائى [١] .

---

(١) ١٩٤٨/٨/٢ .

إلى الأستاذ إبراهيم المازنى [1] :

لا موجب للمداورة فى محاورتك فأنت لا تنكر علىَّ الحديث عن النفس بمدلوله المعروف عند رجال الأدب ، ولا كان هذا ما أنكره الدكتور طه حسين والأستاذ العقاد ، وإنما تنكرون الثناء لى النفس وهذا يقع من حين إلى حين ، والثناء على النفس لا يضايق الناس حين يكون ثناء بالحق ، فمن الذى استطاع أن يكذبنى حين أثنيت على نفسى ؟

ولكن هل جال فى خاطرك أن تبحث عن السر فى هذه النزعة النفسية ؟

هل حاولت إدراك الأسباب للتكبر الذى أقع فيه كارها غير طائع ؟

لو أنك فعلت لعرفت أنى لا أتكبر إلا متحديًا ، والتحدى نزعة طبيعية تطوف بالنفس حين تفكر فى دفع الجحود والعقوق ، وإليك شاهداً من مقالك بجريدة البلاغ فى مساء ١٩٤٣/٧/١٨ :

فى كلامك عن "قصة الأدب فى العالم" أثنيت على المؤلفين الفاضلين أحمد أمين وزكى نجيب حين قررا أن عمرا بن أبى ربيعة لم يقتصر على معشوقة واحدة وإنما تبع الحسين أنى كان ، بخلاف ما كان عليه أمثال قيس وكثير وجميل ، ثم تحمست للأمانة الأدبية والتاريخية فقلت :

وهذا تفريق سبق إليه العقاد فى كتابه : "شاعر الغزل" وقد بسطه بسطًا وافيًا وتوسع فى بيانه ... ولست أقول : إن المؤلفين الفاضلين أخذا هذا التفريق عنه ، فليس ما يمنع أن يتنبها إليه ، ولكنى أقول : إن الأستاذ العقاد سبقها إليه، فمن الإنصاف أن يذكر له فضل السبق ويسجل ؟

---

(١) مجلة الرسالة فى ١٩٤٣/٧/٢٦ .

وهذه حماته مشكورة وهى من بعض صفاتك الطيبات ، ومن الواجب أن نتلقاها بالترحيب ، ولكن هذه الحماسة نفسها تقابل بالإنكار حين تصدر عنى : كأن أقول فى الرد عليك :

إن أول من سجل هذا الرأى فى كتاب طبع ثلاث طبعات هو المبارك لا العقاد .

إن كتاب : "حب ابن أبى ربيعة وشعره" طبع أول مرة سنة ١٩١٩ وهذا الرأى مدون فى أول طبعة فهل تنكر أن أثنى على نفسى فأقول : إنى سبقت العقاد إليه بأكثر من ثلاث وعشرين سنة ؟؟

وأنا فى الواقع أتعجب من استهانة الباحثين بالأمانة العلمية فى هذا العهد فما يمر أسبوع بدون مفاجآت غريبة تتمثل فى سرقات جريئة من مؤلفاتى ومقالاتى وأنا مع هذا أسكت لئلا يقال إنى أكثر من الحديث عن نفسى .

وإصرارك وإصرار صديقك على أن هذا من عيوبى لن يصدنى أبداً عن النص الصريح بأن خلائق كثيرة تنتهب آرائى علانية وتعيش بها عيش السعداء .

الندم :

أنا لا أوحى به قرائى لأنه يشل العزيمة ولأن النظر إلى الماضى لا يفيد [(١)] .

لأجل أن نأخذ قرشاً من البلاغ يجب أن تعرف سهر الليالى فى مطالعات بالعربية والفرنسية إلى أن يصبح المؤذن : "الله أكبر الله أكبر" [(٢)] .

لم أكن من هؤلاء :[(٣)]

---

(١) ١٩٥٠/١٢/١٦ .
(٢) ١٩٥١/١/١٦ .
(٣) ١٩٤٩/١/١ .

حين تولى السنهورى باشا وزارة العدل ذهب جمهور من الناس مهنئين فقال الناس هم الناس [1] .

فكتبت : لم أكن من هؤلاء ، وفيها أثنيت على الهلالى باشا . طلبت الأستاذ فى مكتبه فعرفت الميعاد .

قال الهلالى باشا : أنا عرفت رجلاً هو أنت يا دكتور مبارك وما سأل عن صحتى أحد غيرك ، وشأحامى عنك فى جميع قضاياك بالمجان .

خرجت من البيت وأنا أحمل همومًا تهد الجبال ، ولكنى أنظر فى بريد البلاغ فأجد قصيدة بإمضاء "منصف" وهى تحية لمحرر الصفحة الأدبية فغمرنى سرور بدل همومى وأحزانى ، وفى القصيدة هذا البيت : [2]

مشيت للحق يحدك الضمير له   وعشت للأى لا للجاه والمال

أنا متشكر يا أستاذ ومسرور بأن تكون لى هذه الصورة فى قلبك وهى صورة صحيحية ، وكنت أرجو أن تذكر اسمك .

الكاتب الأدبى والكاتب السياسى :

إن زملائى بجريدة البلاغ حالهم أحسن من حالى بمراحل طوال ، وذلك لأنهم يكتبون فى شئون تأخذ وقودها من المشكلات اليومية ، أما الأدب فوصوله إلى القارئين أصعب من الصعب فى جريدة يومية هى فى الأصل جريدة سياسية ، ولكن هذا الصعب ليس بالمستحيل ، فقد استطعت أن أكون المحرر الأدبى لجريدة البلاغ أحد عشر عامًا فى عهد عبد القادر حمزة منشئ البلاغ وكان من أعاظم الناقدين .

---

(١) ١٩٤٩/١١/٢٩ .

(٢) ١٩٤٦/٨/٢٠ .

زكي مبارك في برجه العاجي

تحت هذا العنوان نشر مجلة الاثنين مقالاً طريفًا شرح صدري ، شرح الله صدر صاحبه وأثابه عني ، والبرج العاجي هو المكتبة ، وفي هذا البرج أعتكف حين أريد أن أتنفس وحين أريد أن أرى أرواحًا مضت على ذهابها من الأرض أجيال وأجيال ، وأنا أحب أن أخلق ذوق المكتبة في أنفس قرائي ، وقد وصلت إلى بعض ما أريد ففي القراء من يسأل عما يجب أن يقرأ .

وجوابي أنه يجب أن تقرأ كل ما تصل إليه يدك ، ففي كل كتاب فكرة تنفعك لو تنبهت .

والكتاب كالصديق لا تعرفه من أول مرة وإنما تعرفه وتصل إلى أسراره بعد تجارب طوال .

ومكتبتي هي عمادي في تحرير الصفحة الأدبية ... والمكتبة هي زينة جميلة إلى أبعد حدود الجمال [١] .

ذوق المكتبة : [٢]

أنا أتحدث كثيراً عن مكتبتي في مقالاتي بجريدة البلاغ ، وليس الغرض هو الزهور بمكتبة فيها نحو عشرين ألفًا من المجلدات ، وإنما الغرض هو أن أخلق عند قرائي ذوق المكتبة وهو أشرف الأغراض .

---

(١) ١٩٤٩/١٠/١٩ .

(٢) ١٩٤٨/٥/٢٤ .

فى سنة ١٩٣٤ بنيت منزلى بمصر الجديدة [١] ... وأنا ومكتبتى نقيم بالدور الثانى ، وأبنائى وأمهم يقيمون فى الدور الأول من البيت [٢] .

حين وقع الخلاف بينى وبين الأستاذ أحمد حسن الزيات رأى أن يزورنى فى بيتى لنصطلح وأعود إلى تحرير الصفحة الأدبية فى مجلة الرسالة ، كنا فى أعوام الحرب والليل ظلام فى ظلام .

أرسلت ابنى عبد المجيد لمقابلته على محطة "المترو" ، وحضر الأستاذ ونظر فى المكتبة وهى أعجوبة الأعاجيب ، وقال ألا تخاف على عينيك ؟

قلت : أنا متوكل على الله ، والله لن يبخل ببقاء النور فى عيونى إن الله أكرم وأجود من الجود .

أول مقال كتبته بعد رجوعى من باريس فى سنة ١٩٢١ استهللته بقول أكثم بن صيفى حكيم العرب : [٣]

إن قول الحق لم يدع لى صديقًا ، وكنت أعرف ما أنا صائر إليه فبقول الحق سأفقد أصدقائى جميعًا .

ولكنى غير نادم على مصاحبة الصدق الذى كدر حياتى ، فالنفع الذى يصل عن طريق الكذب نفع سخيف [٤] .

إن الصدق هو شعارى فى حياتى وأنا أوصى به قرائى ، ولم أكذب إلا مرة أو مرتين أو مرات حين ابتدعت تاريخ الليليات الجميلات .

---

(١) ١٩٥٠/١٠/١٠ .
(٢) ١٩٤٦/١٠/١ .
(٣) ١٩٤٩/٥/١٤ .
(٤) ١٩٤٩/١١/٢٩ .

إن لى غرضًا شريفًا وهو تحميل اللغة العربية بهذه الأفانين . وحين ألفت كتاب "مدامع العشاق" كانت لى غاية هى تحبيب الشبان فى الشعر العربى .

ونثر الكاتب وشعر الشاعر صورة صحيحة لألوان الحياة فى العصر الذى يعيش فيه الكاتب والشاعر (١) .

إن الحزن يعتصر قلبى حين أتذكر أننى لا أجد أموالاً أطبع بها ما أنشره فى البلاغ ، وكل مقالاتى جيدة لأنى أخذ وقودها من قلبى ؛ ومن كهرباء قلبى تدور مطبعة البلاغ (٢) .

فالحروف السوداء من حظى الأسود ، والحروف الحمر من دمى الأحمر ، والبياض من قلبى الأبيض .

لقد خرجت من خدمة الحكومة المصرية ثلاث مرات ؛ خرجت بلا مكافأة ولا معاش ، وقد عرفت أن المكافأة والمعاش هما الظفر بإعجاب قرائى (٣) .

لو بقيت مدرسًا بالجامعة المصرية كما كنت أو مفتشًا بوزارة المعارف كما كنت لضاعت هذه الثروة الأدبية .

قصيدة البحر : (٤)

أجمل ما فى حياتى الأدبية أننى لا أصف غير ما أراه وأشعر بوجوده فى أعماق روحى .

قصيدة البحر أنظمها على البحر وأنا بلباس البحر وبين الأمواج (٥) .

---

(١) ١٩٤٩/٨/٢٢ .
(٢) ١٩٥١/٢/١٦ .
(٣) ١٩٤٦/٦/١٠ .
(٤) ١٩٢٨/١/٢٧ .
(٥) القصيدة طويلة وهى بكاملها على صفحات ديوان الشاعر زكى مبارك الثالث القصائد لها تاريخ ، طبع وتوزيع دار الشعب بالقاهرة .

سلام على البحر الخضم وموجه	وشوق إلى أهل الملاحة بالثغر
سلام عليه من شوق متين	يعانى من الأشواق لاذعة الجمر
سلام على الرمل البهى وآهة	إلى موجه بالحسن فى الصبح والعصر

القوافى : [1]

تحدث الشاعر صالح جودت بالتليفون وقال :

لاحظت أن قافية الراء تغلب على شعرك بدليل اختيارها لقصيدة البحر ، فأجبت بكلام أحب أن أسجله فى هذه الصفحة لأنه كلام مفيد :

فى حروف الهجاء حرف لا يصلح لمد النفس فى الشعر وهو الثاء ، وقد عالجه أبو نواس فلم يصل فيه إلى شىء غير كلمة جثيث وتثوث ويثوث ، إذن لا يصلح هذا الحرف للقصائد الطوال .

وحرف الذال متعب وابن الفارض تحدى شعراء زمانه بقصيدة ذاكية ولكنها غاية فى التكلف وهى أضعف قصائده الطوال .

وحرف السين مريح ولكن أخاه وهو حرف الشين متعب ، والأمر كذلك فى الصاد والضاد .

وحرف الهمزة لا يصلح إلا إذا كانت قبله ألف كالذى نراه فى همزية البوصيرى ، فإن لم يكن ألف مثل كلمة جزءاً فهو لا يصلح .

وحرف الجيم مزعج ولم ينظم على رويه قصيدة طويلة غير شاعر من شواعر العصر الأموى .

وحرف الزاى لا يصلح أبداً ، وحرف الطاء قليل الصلاحية ومثله حرف الظاء ..

والحروف التى تصلح للقصائد الطوال هى : الباء والدال والراء والسين والعين والميم والنون ، والياء على شرط أن تكون الياء بعدها ألف إطلاق .

---

(١) ١٩٤٨/١٠/٢٥ .

ديوان ألحان الخلود
إهداء الديوان (١)

يا جمال الجمال قد طاب شِعرِ — أنت موحيه يا جمال الجمال

هو أبهى من روحلء العذب معنى — يا مليحا أبدعته بخيالى

يشغلُ الدهر أهله بغيوم — كارثات كداجيات الليالى

وأرى طيفك الجميل فأصفو — صفوة لراح فى كؤوس اللآلى

كلَّ وقت أراك يا نور عينى — أنت يا حلو كل وقت ببالى

صاغك الله من ضياء ونور — وذكاء وفتنة ودلال

لو بعينى ترى جمالك أمسى — قلبك المستريح فى بلبال

قد سبيناك يا غزالاً غريراً — يشتهى الليث لحم هذا الغزال

لا تحاول فرارة من نبالى — إن صَرْفَ الزمان بعض نبالى

يا أميرا صيرته من عبيدى — بالبيان المرقرق السلسال

هو شعر كوحى عينك سحر — يسكر الدهر بالحرام الحلال

ما جزائى عليه آهًا ، أجبنى — يا هدى الروح فى الهوى وضلالى

لست أرضى بغير عينيك زاداً — لفؤاد يهوى جمال الجمال

---

(١) ديوان ألحان الخلود هو الديوان الثانى للشاعر زكى مبارك وقد صدر سنة ١٩٤٧ عن مكتبة مصر بالفجالة ، وصدرت طبعة ثانية أيضاً عن مكتبة مصر سنة ١٩٨٨ .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .

أما بعد ، فهذه مجموعة من الأشعار تصور شعورى بالوجود وبالحياة بعد ظهور الديوان الأول الذى صدر فى سنة ١٩٣٣ باقتراح من الصديق العزيز الدكتور أحمد زكى أبو شادى[1] .

لم يكن فى النية أن أكون من الشعراء بعد الرجوع من باريس فقد شغلتنى الأبحاث الأدبية والفلسفية عن الغناء ، والشعر غناء .

ولكن هجرتى إلى بغداد فى سنة ١٩٣٧ خلقت روحًا جديدًا فى حياتى الشعرية ، فقد ساجلت شعراء بغداد مساجلة قضت بأن أنظم أعظم قصيدة بعد قصائد سنتريس وأسيوط وباريس وهى قصيدة : "من جحيم الظلم فى القاهرة إلى سعير الوجد فى بغداد" .

ثم سكت بعد ذلك لأن اشتغالى بتفتيش المدارس الأجنبية بالملكة المصرية أوجب أن أزرع فضاء الله من الشمال إلى الجنوب ، وتلك متاعب لا تسمح بالغناء والشعر غناء .

وهنالك سبب آخر وهو اشتراكى فى تحرير مجلة الرسالة بضع سنين انتهب طاقتى الشعرية فحولها إلى صور نثرية .

ولكن الأقدار تريد أفضل مما نريد ، فقد دهمتنا الحرب واستوجب هذا أن أقضى سهراتى جميعا بدارى فى مصر الجديدة فنظمت قصيدة "مصر الجديدة" وتفضل الألمان والطليان فألقوا قنابل كثيرة على مدينة الاسكندرية فنظمت قصيدة "دار المجد والوجد" .

---

(١) ١٩٤٩/٦/٢١ .

ثم جدت مشكلة فى حياتى الوجدانية وهى الهيام بجمال جديد حولى إلى شعلة من اللهب ، وهو غرام تنقلت نيرانه بين مصر الجديدة والاسكندرية والمعادى وحلوان فنظمت قصائد كثيرة فى تصوير ذلك الوجد المشبوب بصورة قضت بأن تخلع علىَّ مجلة "الحوادث" لقب "ملك الشعراء" ومن قبل خلعت علىَّ مجلة "الصباح" لقب "أمير البيان" .

أنطون الجميل باشا :

كان آخر لقاء مع الأستاذ أنطون الجميل باشا يوم أهديت إليه ديوان "ألحان الخلود" فطلب فنجان قهوة وقدم علبة السجاير ، وقال : أريد أن أبحر هذا الديوان فى عشرين دقيقة ، وسأنشغل بكعنبك يادكتور .

تأملت وجهه وهو يقرأ فرأيت سحابات تغال . وجهه من لحظة إلى لحظة ، وكدت أرى قطرات من الدمع فى عينيه ، ثم قال :

تصفحت الديوان وخرجت بنتيجتين :

الأولى أن لك نزعة روحية تصل إلى حد التصوف .

والثانية وفاؤك للأموات مع أنك تهاجم الأحياء ، والأموات لا ينفعون والأحياء قد ينفعون ، فالشيخ محمد المهدى لا ينفعك والشيخ سيد المرصفى لا ينفعك ، وشجاعتك فى الهجوم على وزراء هذا العهد تدل على أصالة ذاتية . وسأكتب عن هذا الديوان على قلة ما كتبت عن دواوين الشعراء .

ديوان شط إسكندرية[1]

حين دخلت باريس أول مرة في سنة ١٩٢٧ كان أول ماشتريت من الكتب الشعرية هي التأملات الشعرية التي نظمها لامرتين . رأيته يضع لكل قصيدة مصرفة يشرح بها موحيات القصيدة ، فنقلت عنه هذا الأسلوب الجميل [٢]

قد تخفى الظروف الموحية لبعض القصائد بعد حين أو أحايين ، إنها تفسر مايخفى على القارئ الذي يعيش بعد أن نموت .

أما القصائد الغرامية فقد أوردت أكثرها بدون تاريخ .

عشقت بمصر سناها الجميل	وللحسن ضوء بها يسطع [٣]
قضى الله والحب من لطفه	بأني أحب جمال الجمال
وما الرأى ما الرأى في مهجة	غزتها لواحظ ذاك الغزال
أقبل بالوهم أجفانه	وبعض معاني التناجي خيال

إلى الاسكندرية [٤] ... إلى المدينة الجميلة التي ينشر الجمال نثرًا على شواطئها .

لو كان الشعراء القدامى زاروا الاسكندرية لوصفوها ، ولكن الإسكندرية المدينة اللعوب لم يكن لها في تلك الأزمان وجود .

---

(١) صدر هذا الديوان سنة ١٩٨٩ عن مطبعة الفجالة الجديدة بالموسكى ، إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك .

(٢) كلمة من على صفحات ديوان زكى مبارك الثانى «ألحان الخلود» صفحة ٣٧ طبعة مكتبة مصر بالفجالة .

(٣) مقتطفات من قصيدة على صفحات الديوان بتاريخ ١٩٤٨/١٢/٦ ، وقد نشرت بهذا التاريخ على صفحات جريدة البلاغ .

(٤) من على صفحات البلاغ بتاريخ ١٩٤٨/٩/٦ وهى صفحة ٤٨ من الديوان .

ملائك فى ثياب البحر سابحة يرفلن فى الحسن أم هذى شياطين [١] ؟

يا بحر ما أنت ما سحر تموج به وما فؤاد لديك اليوم مفتون ؟

بدا له الحسن وهاجاً فهام به والحسن أمر لديه الكاف والنون

قصيدة الإسكندرية [٢]

(تمر لحظات أشعر فيها بكروب ومن هذه اللحظات أيام سفرتى الماضية للإسكندرية ، فقد دخلتها وأنا مكروب ؛ إن الجو الغائم يوحش النفس ولاسيما إذا كان مصحوباً بالأمطار والبرد والعواصف ، ولكن الانقباض بدأ يخف حينما نظرت فى الأوراق التى كتبتها للصفحة الأدبية بجريدة البلاغ فقد أزاحت الغمة عن قلبى ، وأضفت على روحى شعاعاً من الصفاء فنظمت القصيدة الآتية .

تعجب بحر اسكندرية من فتى يثور على الأيام والدهر لائم

فيابحر أين الحظ أين سبيله ؟ على أننى بالحظ والحب عالم

أفى لحظة ياقلب تسكب دمعة تحدثنى ياقلب أنك حالم

نسيم هواء البحر يذكى عواطفى ويصنع مالاتستطيع النسائم

---

(١) بعض الأبيات صفحة ٣٩ وهى على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٩٥٠/٩/٢٦ .

(٢) من على صفحات الديوان الثانى وهى على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٩٤٨/٢/١ .

وقصائد الديوان كلها تدور حول الإسكندرية وجمالها وساعات التجلى التى توحى الشعر عن الإسكندرية وبحر إسكندرية ... وقد يتحدث عن صاحبة الوحى ، وشاعرنا زكى مبارك قد ينظم فى بعض الأحيان القصيدة فى أكثر من بحر .

إلى هذه المدينة أحج من وقت إلى وقت لأدفن همومى بين الأمواج وأسبح مع السابحين ساعتين من كلّ يوم لأوقن بأن شبابى فيه بقية صالحة للنظر إلى الجمال بعبرة واشتياق ... وتذكرت نعمة الله على أبناء هذا العصر فى مصر والشرق ، فالإسكندرية التى نراها اليوم مدينة جديدة لم يعرفها أسلافنا ، مع أنها كانت موجودة بالفعل على ذلك الشاطئ الجميل .

ضرائم في قلبي وروحي شدائد من موج بحر الحب هذى الضرائم

يقولون مجنون بليلي وخاسر ولم يعلموا أني مع الخسر غانم

إن ظلمت ليلي بفضل جمالها فإني بشعري في هواها لظالم

فتاة رأيت البدر يسرق حسنها فخاصمته فيها وإني المخاصم

وأقبل هذا الليل يسرق شعرها ولم يدر أن القلب كالشعر خاصم

وأقبل زهر الروض يسرق خدها وكيف وهاتيك الخدود نواعم

وقالت أفاعي الروض كيف ثغورها ولم تدر ماتلك الثغور البواسم

تذكرت ليل اسكندرية حائم على الحسن والقلب المتيم حائم

ديوان أطياف الخيال (١)

هذه القصيدة تصور ليلة من ليالي الأنس ، وما أكثر هذه الليالي في حياتي بالحقيقة أو بالخيال .

ومن المستحيل أن يكون جميع ماأذكره في أشعاري من أخبار عن صبواتي وقع بالفعل ، فذلك يقتضي أن أنهب جميع المفاتن وأن يكون طعامي من لحوم النسور وأن يكون شرابي من عصير الخدود .

إن لي غرضًا وطنيًا من هذه الصور الشعرية ؛ وذلك الغرض هو إغناء الأدب العربي بألوان يكثر وجودها في الأدب الغربي . وأنا أعترف بأنني خائف من أن يضيع أبناؤنا من أيدينا لأنهم يجدون عندنا من الصور البيانية بعض مايجدون في الأدب الأوربي :

ليلة الأنس إذا شئت تعود (٢)

بالخيال البكر والفن الجديد

أنتي في دنياي ألحان الخلود

أنا في دنياك أنوار الوجود

---

(١) أطياف الخيال هو اسم الديوان الرابع للشاعر زكي مبارك ، وقد اخترت اسم الديوان من اسم إحدى القصائد التي جمعتها من على صفحات جريدة البلاغ . والديوان من الحجم المتوسط ويضم خمسًا وخمسين قصيدة بعضها طويلة وبعضها مقطوعات شعرية ... وقد صدر سنة ١٩٨٧ عن مكتبة مصر بالفجالة ؛ أي بعد رحيل الشاعر زكي مبارك بسنوات ... وقد نشرها زكي مبارك على صفحات البلاغ بعد أن أصدر ديوانه الثاني «ألحان الخلود» ... وعلى هذا فهذه أول مرة تصدر في ديوان .

(٢) بقية أبيات القصيدة على صفحات الديوان .

أنا فى دنياك أنوار الوجـود

على أننى لا أمنع أحداً من أن يساء الظن بما كتبت منذ سنين، فإن الذى يطمح فى معرفة النفس البشرية لايبخل بوضع نفسه على المشرحة ليسهل عليه وعلى غيره التحليل ، ومثله فى ذلك مثل الطبيب المخلص لعمله لايبخل بتضحيته نفسه وهو يفحص صرعى السل والتيفوس .

فهل يعقل هؤلاء الذين يطيعون أهواءهم وشهواتهم أفينسون أنفسهم ويسلقون إخوانهم بألسنة حداد ؟

إن قليلاً من الروية والأناة لكاف لسلامتنا من الزكل والعثار حين الحكم على مايعمل الناس ومايقولون[١] .

الفن للفن :[٢]

هذه النظرية شغلت كثيراً من الفلاسفة فى العصر الحديث فهل عفضها المفكرون من العرب ؟

قد عرفوها ولكنهم لم يخلعوا عليها هذا الاسم .

وخلاصة النظرية أن الفن فى ذاته غاية وليس وسيلة إلى الأخلاق ، فمن حق الفنان أن يرسم صورة امرأة عارية تفتن القلوب ، وإن كانت هذه الصورة تجرح الأخلاق لأنها تثير الشبهات .

ومن حق الشاعر أن يصف أشياء ينهى عنها الدين باسم الشعر لا باسم الدين ، فخمريات أبى نواس مقررة للدرس فى جميع الممالك الإسلامية مع أن الإسلام يسمى

---

(١) مقتطفات كتاب زكى مبارك مدامع العشاق .

(٢) صفحة ١٢ من هذا الديوان وهى أيضا على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٩٤٦/٨/٦ ، وهذه بعض سطور من المقال .

الخمر أم الخبائث ولكن المسلمين لم يمنعوا درس الخمريات فى المساجد لأن هذه قضية أدبية وليست دينية ، وهم يقيمون حاجزاً بين الأدب والدين .

والمجونيات المبثوثة فى كتاب نهاية الأرب وكتاب الأغانى تطبع بأموال الحكومة المصرية وهى حكومة إسلامية ، ولم يقل أحد إننا بذلك خرجنا على الدين الإسلامى لأن هذا الدين في جوهره يؤيد حرية الآداب والفنون .

إن دار الكتب المصرية تطبع من كل كتاب نسختين : نسخة مدنسة ونسخة مطهرة ، فالنسخة المدنسة هى النسخة التى تطبع كاملة برغم مافيها من المجون ؛ وهو الأدب الذى يصف أشياء ينكرها الدين ، وهذه النسخة يطبع منها عدد قليل ولايمكن شراؤها من دار الكتب إلا بإذن خاص .

أما النسخة المطهرة فهى نسخة تحذف منها المجونيات ويطبع منها عدد كثير يوزع على المدارس ويباع بدون استئذان .

هنا إسكندرية

إنها مدينة أحبها أصدق الحب ، دخلتها أول مرة وأنا أسير حرب

فى طريقى إليك يابحر أشدو	**بقصيد معطر الأنغام**
قد فزعنا إليك من قيض مصر	**وبها ماعرفت من أوهام**
نحن قوم جنى الجهال علينا	**فرأينا الحياة فى الأغرام**
شاب رأسي ولم يشب فؤاد	**هو فى عمره حديث الفطام**
نيصح الدهر ما يشاء فإنا	**النرى نصحه سوى إيلام**
أنت يادهر أجنبى دخيل	**جاهل بالحياة كالأنعام**
سوف نهجوك يازماناً سخيفاً	**يقتل الاسر غيلة فى الظلام**
نحن من نحن لست أدرى فهذى	**فكرة من خلائق الأحلام**

ديوان قصائد لها تاريخ [1]

مصر التى رفعت للشعر رايته

وأيدته بأبطال وفرسان

الشعر فى الشرق نحن الحارسون له

على الرياض يخاف الغارس الحانى [2]

تحية الباكستان : [3]

وصلت دعوة باسمى إلى جريدة البلاغ من سفارة الباكستان لحضور الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج .

وبعد النظر فى أسماء الخطباء رأيت أنهم أعضاء فى جامعة أدباء العروبة ، فنظمت قصيدة لأننى من المؤسسين لجامعة أدباء العروبة .

أمة تسامت فنالت — فوق ماتبغى من العلياء

أشرقَ الصبح بالضياء عليها — إن تلك البلاد مهد الضياء

قد حضرنا مهنئين لشعب — مغرم بالوقائع الحمراء

يأخذ المجد بالسيوف ويمضى — لاكتساب العلاء بعد العلاء

(١) هذا هو الديوان الثالث للشاعر زكى مبارك وقد صدر عن دار الشعب بالقاهرة سنة ١٩٨٧ .

(٢) بقية أبيات القصيدة على صفحات الديوان ، وهى على صفحات جريدة البلاغ فى ١٩٤٣/٤/٣٠ .

(٣) العقيدة طويلة وهى على صفحات الديوان وقد نشرت على صفحات جريدة البلاغ فى ١٩٤٩/٦/٤ .

أنا لا أفتعل الشعر كما يصنع بعض الناس وإنما آخذه من دم قلبي مدفوعًا بعواطف لايمكن صدها بحال من الأحوال [1]

والشعر عندي ليس صناعة ، وماكنت أريد أن أكون شاعراً لأن الشعر غناء ، وشواغلي العملية كانت تحول بيني وبين الغناء ، فالأعوام التي قضيتها في التدريس والتفتيش كانت أيام تعبي ، والتعب ينهك الأعصاب فيمنع الشاعر من الغناء ... وحين تلطف الله فخرجت من عملي بوزارة المعارف صار وقتي ملك يدي فلست مسئولاً عن زرع قضاء الله في جميع البلاد المصرية لتفتيش المدارس الأجنبية ، وهو عمل أضناني سنينًا ... وعملي في البلاغ أصعب من عملي في وزارة المعارف ... ففي أيام التفتيش كنت مسئولاً أمام شخص واحد هو كبير المفتشين وأنا في البلاغ مسئول أمام ألوف من القراء ، ولكن هذه المسئولية تؤنسني أعظم الإيناس وتقوي روحي وترهف عقلي وتذكي فؤادي .

ثم أقول إن الحرية التي ظفرت بها أعطتني فرصة أخلو فيها إلى مكتبي وإلى قلمي حين أريد .

وأعصابي تتأثر تأثرا شديدا بالزمان والمكان : [2]

فهناك قصائد لا أنظمها إلا في أزمنة كان لي في أمثالها ذكريات ... أما تأثير المكان فهو عندي أقوى من تأثير الزمان ؛ فقد أمضيت مدة طويلة وأنا أتأهب لتأليف كتاب عن عبقرية الشريف الرضي ولكن لم أنجز الكتاب إلا حين عشت سنة كاملة في المكان الذي عاش فيه الشريف وهو بغداد .

(١) هذه السطور في تقديم الديوان صفحة ٩ وهي على صفحات البلاغ في ١٩٤٧/١١/٣ .

(٢) وهذه السطور في تقديم الديوان صفحة ١٠ وهي على صفحات البلاغ في ١٩٤٦/١٢/١٠ .

وللأشياء مثل ذلك التأثير على أعصابى فإن كتبت مقالة عن باريس كتبتها بقلم اشتريته من باريس وعلى ورق كنت أحضرته معى يوم فراق باريس ، وإن كتبت مقالة عن بغداد كتبتها بقلم كنت اشتريته من أسواق الكاظمية .

غزوة عراقية [1]:

ورد فى ديوان ألحان الخلود أنى تحديت شعراء لبنان ، فوفد شاعر العراق ليتحدانى بصحبة الأستاذ رفائيل بطى وهو يقول إن الأستاذ أكرم أحمد هو شاعر العراق بعد الرصافى .

- أهلا ، أهلاً .

- تحكى عراقى يادكتور .

- أحكى عراقى ، وأحكى شامى ، وأحكى سريانى .

- نتبارى فى هذه اللحظة فأنظم بيتًا وأنت تجيز :

قلت :

غريب الدار في مصر جميل ... كأن وفوده فيها خيال

قال :

وما أنا بالغريب وكيف يلقى ... غريب من له عم وخال

قلت :

غريب أنت فى بلد غريب ... له فى السحر والإبداع آل

(١) على صفحات الديوان صفحة ٢٤ وهى بتاريخ ١٩٤٧/٩/١ .

فقال :

ومصر بمفرق التاريخ تاج		جواهره الكرامة والجلال

فقلت :

غرائب من بديع الشعر تشدو		كأن ظلالها فينا ظلال

فقال :

يسبح أكرم غضبت عليه		تسابيح على الدنيا ثقال

قصائد للزكي إذا تغنت		تربح حلاوتها الجمال

ثم قال الأستاذ أكرم أحمد : ماكنت أظن أنك تنظم الشعر بهذه السهولة يادكتور .

فقلت : مصدر الوحى هو بغداد يوم انتقلت من جحيم الظلم إلى سعيد الوجد فى بغداد .

ديوان أحلام الحب [1]

قلت من قبل إن المعانى الوجدانية قلت فى الإدب العربى الحديث، وأن أبناءنا صاروا يأخذون أدبهم الوجدانى من الفرنسية والإنجليزية فى الذى يمنع من أن ننشئ لهم أدبًا وجدانيًا ؟

نفترض حسن أنه كانت لى محبوبة اسمها سعدية وقد عانقها فى إسكندرية وقلت فيها[2] :

ذكـرت فـراقك فى عـودتى	ونحت على الليـانة الماضيـه
فـبـالرمل كنا وكـان الصـفـاء	تجـودبه أعين دامـيـه
تناسى المحبـون أحـبـابهم	وأمـسيت وحـدك فى باليـه

الشعر وهبة [3] :

أنا أحب أن أروض قرائى على نظم الشعر لأنه يطبع الإنسان على اللغة الموسيقية ، وهى حلية مطلوبة وإن حرم منها بعض الناس .

والشعر موهبة فليس فى مقدور كل إنسان أن يصبح من الشعراء ، وهو ، كالصور فليس فى مقدور كل إنسان أن يصبح من المغنين .

وعظماء الكتاب فى اللغة العربية كانوا شعراء أمثال ابن العميد والصاحب بن عباد وأبى هلال العسكرى وأبى إسحاق الصابى والشريف الرضى .

---

(١) ديوان " أحلام الحب " صدر سنة ١٩٨٩ محسن مطبعة المونى بالعباسية .

(٢) القصيدة طويلة وهى على صفحات الديوان .

(٣) ١٩٤٨/٦/٧ .

وعظاء الكتاب فى اللغة الفرنسية كانوا شعراء من أمثال فيكتور هوجو وألفريد دى ميسيه ولامرتين .

إن قراء البلاغ ألوف وألوف وأن أتمنى أن أوحى إليهم حب الشعرالجميل، وأكرر الوصية بأن يكون فى مكتبة كل أديب ديوان البحترى وديوان المتنبى وديوان أبى فراس الحمدانى وديوان الشريف الرضى وديوان البارودى وديوان شوقى وديوان حافظ .

هوى جديد (١) :

هوى جديد يزور قلبى	فأنتشى منه ثم أسكر
وأشرب الشهد من لماه	فأنتشى منه ثم أسكر
لاتنكروا الوجد من أديب	بسحر هذا الجمال يشعر
لاتنكروا الوجد من أديب	إلى صباح الوجوه ينظر
من لم يهم بالجمال يوماً	فعيشه فى الحياه أغبر

إذا أمر الحسن قد نأتمر (٢) :

تبارك خلاق هذا الجمال	ومبدع هذا الجمال الخطر
أفانين فيها زهور الخدود	ومنها حلاوة هذا النظر
ولاتنس هذا القوام الرشيق	يميس فيسبى إذا ما خطر
ولاتنس وجدك مما أراه	إذا الحسن بالوجد قهراً ما مر
سواد الغدائر فوق الجبين	ظلام يغازل نور القمر

(١) ١٩٤٩/٤/١١ ، وبقية أبيات القصيدة على صفحات الديوان .
(٢) ١٩٤٩/٤/٤ وهى صفحة ٨٧ من الديوان .

فمن منقذى من سواد الفؤاد — وفى جوفه جمرة تستعر
أريد لأنسى ولكننى — إذا لاح لى طيفكم أذكر
وما هذه الأعين الحالمات — وفى حلمى من زئير النمر
أرانى افتفحت يحيى لكم — ومن يفتضح فى الهوى يشتهر
أمجنون ليلى أنا ؟ ربما — إذا أمر الحسن قد نأتمر

هدير الوجد(١) :

صيف ٤٨ غير صيف ٣٧ وفيه أقول :

أقبل الصيف بأقباس اللهب
وأتى يقدح نيران القلوب
أقبل الصيف ومالي من حبيب
أنا فى الدنيا بلا حب غريب

***

(١) ١٩٤٨/٥/٢٤ وهى صفحة ٩٢ من الديوان .

زكى مبارك ونقد الشعر [1]

فى رأيى أن الموضوعات هى التى تحدد نوع الصياغة ، فليس ينبغى أن يفترض أن الشعر صالح لكل موضوع. ولا أن النثر صالح لكل موضوع ، فهناك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر [2]

إذا كان موضوع القول متصلا بالمشاعر والعواطف والقلوب كان الشعر أوجب لأن لغته أقدر على التأثير والامتاع ، وإذا كان الموضوع متصلا بأعمال العقل والفهم والإدراك كان النثر أوجب لأن لغته أقدر على الشرح والإيضاح والإفهام والتبيين[3] والإقناع .

إن مطلع القصيدة لا أول بيت هو أول صورة شعرية فى القصيدة وأن فضل الصورة الشعرية إنما هو تمكين المعنى في النفس لأن غاية الكلام البليغ من نثر أو شعر إنما هو التأثير ، والصورة الشعرية لما فيها من تحليل المعنى وتعليله كافية فى تحقيق غاية البيان . [4]

---

(١) كتاب زكى مبارك ونقد الشعر صدر سنة ١٩٨٦ عن الزهراء للإعلام العربى بمدينة نصر ، والكتاب دراسة فى نقد الشعر للشاعر زكى مبارك ، والتى حققها على صفحات مجلة الرسالة من نوفمبر سنة ١٩٤١ إلى ديسمبر-١٩٤٤، وقمنا بدراسة الأشعار وقدمنا بعض الدراسات عن الشاعر وكانت هذه الدراسة يوم نشرت لتوجيه طلبة السنة النهائية بالمدارس الثانوية لمسابقة الأدب العربى – التى أقرتها وزارة المعارف ، وهى حالياً وزارة التربية والتعليم – وهى فى الوقت نفسه دراسة لتلخيص الآثار الأدبية والشعرية لطائفة من الشعراء موجهة لجميع القراء وهم . البارودى ، حافظ إبراهيم ، أحمد شوقى ، البهاء زهير ، علم الدين المحيوى ، أبو تمام ، ابن النحاس والحبوبى .

نشرت الأديبة صافى ناز كاظم على صفحات مجلة الهلالى فى فبراير ٨٨ نقداً للكتاب ومما قالته - زكى مبارك هو الناقد الإبداعى الذى يجب أن تؤرخ به بداية النقد الأدبى .

(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ، الجزء الأول من الطبعة الثانية صفحة ٢٧ .

(٣) نفس المرجع صفحة ٢٨ .

(٤) الموازنة بين الشعراء الطبعة الثانية صفحة ٧١ و ١١٥ .

ويخطئ من يجارى القدماء في نقد كل بيت من القصيدة على حدة .[1]

أبو تمام مظلوم فما التفت أحد إلى شعوره بالحياة ولا عرف أحد أن اهتمامه بالألفاظ لا يقاس إلى اهتمامه بالمعارنى .

والجاهلون من مؤرخي الأدب العربى لا يعرفون إلا سمة واحدة من سمات أبى تمام وهى غرامه بالزخرف اللفظى مع أنهم سمعوا أنه كان من رجال المعانى بدليل أنه صنف « ديوان الحماسة » تصنيفا يشهد بأنه من أصحاب الأذواق .

والأن نعود من حيث بدأنا ... نعود لنردد قول أبى تمام :

أحـبـابه لِمَ تفـعلون بقلبـه   مـا ليس يفـعله به أعـداؤه ؟

وألا يجدر بنا أن نقول :

أحـبـابه لِمَ تفـعلون بشـعـره   مـا ليس يفـعله به أعـداؤه ؟

وإنما الرأى أن تكون أبيات القصيدة كمسامير السفينة ، ومسامير السفينة تختلف باختلاف مواطن الرباط والوثاق ، ولو نظر القدماء هذهالنظرة لأعفونا من أبحاث كان فيها نقد الشعر قائمًا وحدة البيت ولا وحدة القصيدة ، فكان مثلهم من يعيب الغابة الشجراء لأنه عثر فيها على شجرة عجفاء .

قلت للشيخ محمد عبد المطلب الذى يهمنى هو أن أنجو بنفسى من قول ابن النحاس (٢)

رأى اللوم من كل الجهات فراعه   فلا تنكروا إعراضه وامتناعه
ولا تسألونى عن فؤادى إننى   علمت يقينًا أنه قد أضاعه

---

(١) على صفحات مجلة الرسالة فى العدد ٤٨٤ .

(٢) على صفحات جريدة البلاغ فى ١٩٤٨/٢/٩ وهى صفحات الكتاب ١٩١ .

لكل حوى واشٍ فإن ضعضع الهوى　　فـلا تلـم الواشي ولُمْ من أطاعـه

أو قوله :

كم أداوى القلب قلت حـيلتى　　كلمـا داويت جـرحًـا سـال جـرح

وهذا البيت متصل بحياتى فهى كذلك منذ آماد طوال .

ولكن أين مكان ابن النحاس من الشعراء ؟

لا تظنوه شاعراً من طبقة أبى تمام أو البحترى أو المتنبى أو الشريف الرضى ، فبينه وبين أمثال هؤلاء مسافات أعرض من الصحراء .

ولكنه شاعر من طبقة ابن زريق ، وماعاش ابن زريق إلا بقصيدة واحدة هى العينية التى سارت سيرته مثال .

وكذلك عاش ابن النحاس بقصيدة أو قصيدتين ، ومن لم يعرف ابن النحاس فى معانيه القلائل وهى نوادر ، فليس بأهل للانتساب إلى دوحة الأدب الرفيع .

أبو تمام العربى[1] :

أراد ناس أن يشككوا فى عروبة أبى تمام ، ومنهم الدكتور طه حسين ، والدكتور حسين منصف ولهذا أرجوه أن يسمع حديثى .

التشكك فى نسب أبى تمام بدعة قال بها المتأخرون من المستشرقين وهى بدعة لاتستند إلى أى برهان . فقد أجمع القدماء على أن أبا تمام هو الطائى الأول، وأن البحترى هو الطائى الثانى .

(١) فقرات عن أبى تمام فى صفحة ٨٥ من الكتاب وقد نشرت من قبل على صفحات مجلة الرسالة فى العدد ٥٥٤ فى فبراير سنة ١٩٤٤ .

وأبو تمام مظلوم أقبح الظلم فى هذا الزمن الظلوم ، فقد قال أحد الناس إن شعره من رأسه لا من قلبه وقال آخرون إن شعره خال من تعدد الألوان .

والحق كل الحق أن فى أبى تمام جنى عليه فقد تصوره بعض بنى آدم رجلاً لايحسن غير التنميق مع أن صياغته الروحية تفوق صياغته الفنية ، ومع أن معانيه فوق ألفاظه بمراحل بعيدة ، وإن اشتهر بزخرفة الألفاظ .

هذا الرجل زلزل معاصريه وأوقعهم فى فتنة دامية ولم يمت إلا بعد أن صرع خصومه وأرداهم أعنف إرداء .

حدثنا الأستاذ محمد المهدى فى محاضراته بالجامعة المصرية

إن أبا تمام أخمل ثلاثمائة شاعر فى زمانه بلاقصد ولا نية لأنه كان نصيراً لجميع الشعراء فما قال إن هذا الشاعر العظيم وجَّه إلى أحد معاصريه أى إيذاء لأنه كان غنياً بفضله كما قال أستاذنا محمد المهدى .

لم يلتفت أبو تمام إلى شىء من أغراض الدنيا الفانية أو الباقية، وإنما التفت إلى الفن الشعرى ليرقم اسمه فوق جبين الخلود .

زكى مبارك ناقدًا [(١)]

اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ولو شئت لجعلت الحزن سهلا ، وبهذه العبارة نبدأ ما نقبل عليه من الدروس ، والله وحده هو المستعان وبه التوفيق .[(٢)]

والغرض من هذه الدراسة أنها أولاً توجيه لطلبة السنة النهائية بالمدارس الثانوية؛ فهى مسابقة الأدب للجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية ، وهى ثانيًا تلخيص لطائفة من آثار الأدب الحديث موجهة لجميع القراء .[(٣)]

وأنا حين أقول الجامعة المصرية لا أريد جامعة القاهرة ولا جامعة الإسكندرية وإنما أعنى الجامعة المصرية التى تنظم هاتين الجامعتين ، وما سينشأ من جامعات فى مدائن الشمال ومدائن الجنوب كالمنصورة وأسيوط .

والحال كذلك فى غير مصر فالفرنسيون يقولون الجامعة الفرنسية حين يريدون المعنى الجامعى بلا تقييد ، وإذا أرادو التخصيص قالوا جامعة باريس أو جامعة ليون

---

(١) كتاب «زكى مبارك ناقداً» صدر عن دار الشعب سنة ١٩٧٨ .

وهذا الكتاب مقالات نشرت من قبل على صفحات مجلة الرسالة من سنة ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٤٢ ؛ والكتاب ضم دراسة نقدية عن هؤلاء :

أحمد حسن الزيات ، طه حسين ، العقاد ، إبراهيم المازنى ، لطفى السيد ، زكى مبارك ، عبد العزيز البشرى ، جبران خليل جبران ، محمود تيمور ، أحمد حسين ، حافظ عفيفى ، وأخيراً حديث عيسى بن هشام للمويلحى .

(٢) مجلة الرسالة فى العدد ٣٧٨ .

(٣) مجلة الرسالة فى العدد ٣٨٤ .

إلى آخر ما هنالك من جامعات والمسابقة التى أقرتها وزارة المعارف تعم جامعة القاهرة وجامعة الإسكندرية فهى إذن مسابقة الجامعة المصرية .[١]

وأنا أشعر أن مقال اليوم لن يخلو من ضعف لأنى أكتبه وأنا كاره ، والإجادة لا تتاح إلا لمن يكتب بشغف وشوق ، وإنما أقبل كارهًا على مقال اليوم لأنه أحد مؤلفاتى «الأخلاق عند الغزالى» وأنا لا أحسن وصف هذه المؤلفات إلا فى المواقف التى تمد النفس بموجبات الزهو والخيلاء ، ولا شيء من ذلك فى هذا الوقت لأن ثورة الهجوم على كتاب « الأخلاق عند الغزالى» قد خمدت منذ أعوام بعد أن شغلت الناس وشغلونى بأبحاث بعيدة عن موضوع هذا الكتاب .

ولكن ما الذى يدعو إلى هذا المقال وحالى كما وصفت ؟

يدعو إليه أن الكتاب مقرر على الطلبة ولابد من معاونة الطلبة على إدراك بعض ما فيه من مقاصد وأغراض على نحو ما صنعت من قبل فى درس الكتب المقررة للمسابقة بين الطلاب .

ولو أننى وجدت من ينوب عنى فى الكلام عن كتابى لأعفيت نفسى من هذا الواجب المزعج ، فلم يبق إلا أن أتكلم عن كتابى كما أتكلم عن كتب الناس ... وهل فى الدنيا شريعة تفرض علىَّ أن أنصف الناس وأظلم نفسى ؟

قدم هذا الكتاب لنيل الدكتوراه فى الفلسفة من الجامعة المصرية سنة ١٩٢٤ ، وكانت لجنة الامتحان مؤلفة من حضرات الأساتذة الأكابر : منصور فهمى وأحمد ضيف ومحمد جاد المولى وعبد الوهاب النجار وأحمد عبده خير الدين .

واسم المؤلف محمد زكى عبد السلام مبارك وكان فيما سمعت شابًا يحاول الوصول إلى الحق ، وطريق الحق كثير الأشواك والعقبات ، فلم يصل إلا بعد أن أدمى قدميه إن صح أن الله أراد أن يكون من الواصلين .

---

(١) هذا المقال على صفحات مجلة الرسالة فى العدد ٤٣٥ ، وهو على صفحات الكتاب .

إن كتاب «الأخلاق عند الغزالى» لم يكن إلا دعوة صريحة إلى التشكيك فى أصول الأخلاق الموروثة عند القدماء ، والمؤلف يقسم الفضائل إلى قسمين : فضائل سلبية وفضائل إيجابية ، ثم يقرر أن الغزالى وجه أكثر اهتمامه إلى الفضائل السلبية ولم يعن بشرح الفضائل الإيجابية كالشجاعة والإقدام والحرص ، وما إلى ذلك مما يحمل المرء على حفظ ما يملك والسعى لنيل ما لايجد ، فإنه لايكفى أن يسلم الرجل من الآفات النفسية بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة .

وقد عاب المؤلف على رجال الدين أن ينسحبوا من الميدان السياسى فى الأوقات التى يفرض فيها الجهاد ، فطوق الغزالى بطوق من حديد حين سجل عليه أنه لم يؤد واجبه فى التحريض على مقاومة الحملات الصليبية ، مع أنه «حجة الإسلام» ومع أن صوته كان مسموعاً فى أكثر الأقطار الإسلامية .

الأجنحة المتكسرة : جبران خليل جبران : [1]

النفسية السورية :

حديث اليوم عن الأجنحة المتكسرة لجبران وقد ضاق الوقت عن مراجعة ما كتب عن الأدب الحديث فى الديار السورية واللبنانية ، وكان من السهل أن أنتفع بكتاب الأستاذ ميخائيل نعيمة عن جبران ، ولكن لم أجده فى مكاتب القاهرة ولا وجدت من الفراغ ما يسمح باستعارته من أحد الزملاء فلم يبق إلا أن أقول فى جبران وكتابه كلمة وجيزة تقرب مراميه إلى القراء بعض التقريب .

---

(١) فقرات من المقال وهو على صفحة ١٤٥ من الكتاب على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤٢/١/٢٦ .

فما تلك الأجنحة المتكسرة ؟

كان الرأى عندى أن المؤلف يرمز إلى الأجنحة الفلسطينية والسورية واللبنانية ، فجبران فى صفحات هذا الكتاب يعبر عن الأشجان الموروثة فى تلك البلاد .

ثم وجدت فى كتابه فقرة تشهد بذلك فعرفت أن حكمى على اتجاهاته النفسية لم يكن ضرباً من التخمين .

جريمة جبران :

هى تأثره المكشوف بالأدب الأوربى فى القرن التاسع عشر وهو أدب جميل ولكنه عليل لأنه يجعل الحزن غاية الوجود ، ولكن الأدب الوجدانى فى القرن التاسع عشر غاية فى الجمال ، لأنه غاية فى الصدق وهل ينسى الضمير الأدبى مآسى ميسيه لامرتين .

صدق جبران :

ومع هذا فجبران صادق فى بعض مناحيه الوجدانية ، وهل يستطيع فتى أن يبلغ العشرين فى لبنان بلا آلام ولا آمال ؟ وكيف يكون ذلك الفتى إذا طوحت به المقادير إلى بلد بعيد وهو موصول العهد بحبيب لا يرحمه التراب ؟

الإهداء :

أهدى جبران كتاب الأجنحة المتكسرة إلى (...) وقد سمعت أنها إنسانه أمريكية كانت تنفق عليه لوجه الأدب الرفيع فى السر فما عطف تلك المرأة على جبران ؟

إن هذا الكاتب مغرم بوصف ما بين الإنسان والطبيعة من الصلات ، وتلك حال لم يلتفت إليها الأدب الأمريكي كل الالتفات ، فمن السهل أن نعلل إقبال تلك المرأة على جبران بأنها رأته «إنسانا من الشرق» وكانت تعيش في بلاد تشغلها «*السرعة*» عن تعقب خطرات القلوب ، هو فتى عربي ضاقت عنه بلاده ... مع أنها اتسعت لألوف الواغلين .

هو روح شرده الشرق ليدرك سرائر الألم والحنين .

هو فتى يقول بأن المعبد الوثني صار كنيسة ثم تحول إلى مسجد ومعنى ذلك أنه يرحب بانتقال الروح من حال إلى أحوال .

أدب المعاش (١)

أنا أقترح أن يكون عندنا أدب يسمى «أدب المعاش» وهو الأدب الذى يعلِّم الناس كيف يقتصدون وكيف يدخرون ، وكيف يواجهون مطالب الحياة فى الشباب والمشيب بجيوب سليمة من مرض الإفلاس ، فما يذل الرجال غير الفقر ، أعاذنا الله وأعاذ جميع الأحرار من رؤية وجهه البغيض .

وعند اشتغالى بالتدريس كنت أسال تلاميذى عما يدخرون ، ولم يفتنى أن ألقى درساً فى الادخار على تلاميذى فى بغداد راجياً أن يلقوه على تلاميذهم فى جميع أرجاء العراق .

ومهنتى اليوم لاتتسع لأمثال هذه الدروس ومع ذلك يغلبنى حب الخير فأسأل المدرسين الذين أتشرف بتوجيههم إلى المناهج الصحيحة فى التدريس ، أسالهم عما يدخرون لأطمئن إلى صلاحيتهم لمهنة التعليم ؛ فالمعلم الحق فى نظرى هو الذى يروض تلاميذه على تدبير المعاش .

ولا يمكن لمدرس يبدد مرتبه فى الأسبوع الأول من الشهر أن يجد عقله فى الباقى من الأسابيع .

---

(١) مقتطفات من مقال للدكتور زكى مبارك تحت عنوان : أدب المعاش ، على صفحات مجلة الرسالة فى ١٩٤٢/٩/٢٨ . وأعكف حالياً على جمع كتاب لزكى مبارك تحت عنوان : أدب المعاش ، فإن زكى مبارك قد سبق عصرنا فى المطالبة بترشيد الاستهلاك حين اقترح سنة ٤٢ بضرورة أن يكون عندنا أدب يسمى أدب المعاش .

وتدبير المال فى الحدود المعقولة يشهد بالقدرة على ضبط النفس ، وضبط النفس هو أوثق صور الأخلاق ، وما يجوز لمبذر أن يتوهم أنه يصلح لشىء من جلائل الأعمال .

ومهما نهيتكم عن الإسراف فلن أنهاكم عن البر بالفقراء والمساكين ، وهى هنا غاية تجارية : فقد عرفت بالتجربة أن الله يعوض ما ننفقه على المعوزين أضعافًا مضاعفة ، ومن الواجب أن نستغل كرم الله أجمل استغلال فى حدود ما نطيق .

وأنا بعد هذا أرجو من يؤلفون كتب المطالعة لتلاميذ المدارس أن يكثروا من الحث على الإدخار ليساعدوا على إنشاء جيل جديد ، جيل متماسك لايتباهى أبناؤه بالإسراف والتبديد وإنما يتباهون بالبر والإفضال .

الصديق الحق : ١٩٥١/٣/٢٧

هو القرش الذى فى جيبك .

قال الشاعر الفرنسى ما ترجمته بالحرف :

أيها المال ، أيها المال ، أيها المال ، كل شىء بدونك عظيم والفضيلة بدون مال ليست إلا أثاثًا غير مفيد .

وأى امرئ اغتنى فهو كل شىء وهو بلا حكمة حكيم .

وهذا المعنى مشروح بتوسع فى كتاب كليلة ودمنة عن قصة الحمامة المطوقة .

أدب الشواطئ

المصايف المصرية : [1]

شغلتنى المصايف الفرنسية ستة أعوام عن المصايف المصرية فعدت لا أعرف إلا قليلاً عما جدَّ فى مصايف هذه البلاد .

ولكنى مع ذلك قضيت أيامًا في الإسكندرية من أواخر أغسطس وأياما من أوائل سبتمبر تبينت فيها ما جدَّ فى تلك الشواطئ حتى أصبحت على جانب من الجاذبية ، وهذا غنم عظيم لمصر التى أمست مصايفها مهددة بالمصايف الشرقية والغربية حيث يعرف طلاب الرزق فى الشرق والغرب كيف يخلبون ألباب المصريين .

مآخذ فريفة :

وقد اهتم فريق من الصحفيين فى هذا العام بنقد ما زعموا أنهم شاهدوه فى شواطئ الإسكندرية من العبث والمجون . ولأولئك الصحفيين عذر مقبول : فهم يريدون أن يقفوا موقف الواعظين يحللون الحلال ويحرمون الحرام في نزاهة وإخلاص . وفاتهم أن نقد ما توهموه فى الشواطئ من عبث ومجون كان من أكبر الدعايات لزيارة

(١) مقتطفات من مقال نشر على صفحات كتاب : «الأسمار والأحاديث» وكان بتاريخ ١٩٣٢/٩/٩ .

تلك البقاع . والشر لايفتن الناس ولا يستهوى ألبابهم إلا حين ينهون عنه ، وصدق أبو العلاء حين قال :

ألظوا بالقبيح فتابعوهُ ... ولو أُمروا به لتجنبوهُ

والشواطئ بطبيعتها تذكر الإنسان بحياته الفطرية التى غيرتها الشرائع والقوانين . والإنسان حيوان برى ، ولكن فيه نزغة بحرية ترجع إلى عهد القديم يوم كان لايسكن إلا شطوط الأنهار وشواطئ البحار ، وآية ذلك أنه يتهالك على الماء تهالكها تهالكا شديداً ، ويستأنس إذا خاضه ، ويجد فيه روحًا لايجده إذا عاد إلى اليابسة ، وهو إذا تعلم السباحة لاينساها أبداً ولو تركها عشرات السنين ، والسباحة هى العلم الوحيد الذى لاينساه الإنسان ، وفى هذا دليل على أنه فى أصل خلقته حيوان صالح لحياة الماء .

وقد يتفق لزائرى الشواطئ أن لايغضوا أبصارهم عمن يستقبلهم البحر فى الضحى والأصيل ؛ أفيظن القارئ أن أعين المتطلعين تتوسم مظاهر الحياة الرسمية فيمن تحمل الشواطئ ؟

هيهات هيهات إن العيون لاتقع إلا على من ميزتهم الطبيعة بمميزات حسية ، وأعطتهم من ملاحة الشمائل وسلامة الجوارح ما يجعلهم أقرب إلى النفوس وأحب إلى القلوب .

البلاد المصرية بلاد بحرية لأنها تقع على بحرين عظيمين : (١)

البحر الأبيض والبحر الأحمر ، وهذا يوجب توجيه قرائح الشعراء إلى وصف البحار وما فيه من جمال يفتن العقول ويشوق القلوب ، ومع ذلك فثروة الشعر المصرى قليلة فى هذه الناحية ، مع الاعتراف بأن للشاعر على محمود طه قصائد جيدة فى وصف الحياة البحرية ، وكذلك الشاعر عبد اللطيف النشار والشاعر عثمان حلمى .

---

(١) ١٩٤٧/٤/١٦

بعد رجوعى من بغداد سنة ١٩٣٨ رأيت أن أقضى أيامًا فى الإسكندرية أشهد فيها ملاعب الجمال فوق الشاطئ ، وأتذكر العهد الذى قلت فيه للدكتور أحمد زكى أبو شادى :

أبا شـــادى وأنت فــتى طروب   أســـيــر العين فى قلب طليق[1]

ثم شرعت فى تأليف كتاب اسمه : «أدب الشواطئ» وأعلنت عنه فى مجلة الرسالة ولكن الحرب (دهمتنا) فلم يعد من السهل أن أصطاف بالإسكندرية ، وما كنت أزور الإسكندرية فى أعوام الحرب إلا فى مهمة رسمية يوجبها عملى بوزارة المعارف وتلك مهمات موسمها فصل الشتاء .

ولكن فكرة «أدب الشواطىء» التى أذعتها فى مجلة الرسالة سنة ١٩٣٨ وجدت مكانًا فى صدر أحد الشبان وهو الشاعر مصطفى عبد الرحمن فقال فى الشواطئ عددا من القصائد الجياد .

تحت يدى ديوان نفيس اسمه : «ليالى الشاطئ» والقصائد التى فى هذا الديوان ليست جميعاً فى الشاطئ فهى موزعة بين أغراض مختلفة النوازع ولكن أهمها ما جاء فى الشاطئ ... ومن هنا كان اسم الديوان ولنقرأ هذه القطعة الحزينة للشاعر مصطفى عبد الرحمن .

أنكر الشطر وجودى عندما سرت عليه   وتناسى كل عهد صانه قلبى لديه

أكتفى بهذا وأقول بعبارة صريحة إن هذه الباكورة تشهد بأن صاحبها من نوابغ الشعراء .

---

(١) القصيدة طويلة وهى على صفحات ديوان زكى مبارك الأول والذى صدر سنة ١٩٢٣ وكان يحمل هذا العنوان . ديوان زكى مبارك .

وبعد انتهاء الحرب عاد زكى مبارك يداوم على السفر إلى الإسكندرية ؛ فلة عشرات المقالات عن الشواطئ وأيضًا قصائد ومقطعات تجمع الآن .

زكـى مبارك وهـؤلاء [1]

الشيخ محمد عبد المطلب والصراع بين مدرستين : [2]

جيلان يختصمان جيل النقل وجيل العقل ، وأنا أمثل المدرسـة التى تحكم العقل فى كل شىء ، وتفرض على الباحث أن ينقد أولاً المصادر التى يعتمد عليها وتروضه على إدراك الفروق بين الأذواق والأحاسيس فى مختلف العصور الأدبية ولهذه المدرسة الجديدة أشياع عديدون ، ولكنى أمتاز بينهم بميزة ظاهرة إننى لا أعرف ما هو الحقد وما هو الضغن ، ولا أفهم مطلقًا كيف تنقلب الخصومات العقلية إلى خصومات شخصية يقال فيها : هذا لله وهذا للشيطان .

وفى يقينى أننى سأحول النقد الأدبى فى مصر تحويلاً جديًا وسأعلم القراء كيف يبحثون عن الحجج والبراهين قبل أن يغرموا بتلمس النزوات الصغيرة التى يلقيها الكتاب هنا وهناك وهم يتجادلون ويتحاورون .

إن المدرسة التى أمثلها هى المدرسة التى توفق بين المعقول والمنقول وتفرض على أنصارها أن يروضوا أذهانهم على فهم الواقع وترك ما درج عليه بعض المحافظين من التعلق بالأوهام .

---

(١) هذا الكتاب صدر عن دار الجيل / بيروت سنة ١٩٩١ .

(٢) بعض السطور من مقالة للدكتور زكى مبارك على صفحات كتاب البدائع الجزء الثانى من الطبقة الثانية وهى على صفحة ٦٨ من هذا الكتاب .

مستقبل الثقافة فى مصر : (١)

أيها الأستاذ الجليل : (٢)

تفضلت فأهديت إلىَّ نسخة من كتابك الجديد مستقبل الثقافة فى مصر .

فى كتابك بديهيات كثيرة من هذا النوع ، فاستغن عنها إن شئت فى الطبعة التالية لئلا تسجل على وطنك جهل البديهيات .

ثم ماذا ؟

قلت إن عقلية مصر عقلية يونانية ، وصرحت بأن الإسلام لم يغير تلك العقلية ، فاسمح لى أن أشكوك إلى عميد كلية الآداب ، فعميد كلية الآداب هو أستاذى وأستاذك ، واسمه طه حسين إن لم تخنى الذاكرة ، يعرف أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرنا وهى مؤمنة بالعقيدة الإسلامية ، والأمة التى تقضى ثلاثة عشر قرنا فى ظل دين واحد لاتستطيع أن تفر من سيطرة ذلك الدين .

من المؤكد عندى أنك لم تستشر عميد كلية الآداب قبل أن تصرح بأن الإسلام لم يغير العقلية المصرية ، وذَنْبك فى هذا التهاون عظيم لأنك قريب منه واتصالك به لايجشمك أى عناء ؛ فكيف جاز عندك يا سيدى الدكتور أن تتوهم أن الإسلام لم يغير العقلية المصرية .

ويظهر من كلامك أنك راض كل الرضا عن الجامعة المصرية ، ولكنك نسيت أن هذه الجامعة لم تصنع شيئًا فى إصلاح ما سيطرت عليه من المعاهد العالية .

---

(١) هذه فقرات من مقالة للدكتور زكى مبارك ، نشرت سنة ١٩٣٠ على صفحات مجلة الرسالة فى الثالث والعشرين من يناير وهى على صفحات الكتاب .

(٢) الحديث موجه إلى الأستاذ الدكتور طه حسين .

هل تعرف يا سعادة العميد أن لغة التدريس فى كلية الطب هى اللغة الإنجليزية ؟

وهل تعرف أن لغة التدريس فى كلية العلوم هى اللغة الإنجليزية ؟

لقد نشرت أكثر من سبعين مقالة فى دعوتكم إلى جعل اللغة العربية لغة التدريس فى جميع المعاهد العالية فلم تعاملونى بغير الصمت البليغ ، وكانت النتيجة أن تسبقكم الجامعة الأمريكية فى بيروت إلى تحقيق هذا الغرض النبيل .

وتكلمت يا سعادة العميد عن وجوب الإكثار من الترجمة ، وكان الظن أن تذكر أنى استطعت مرة أن أقنع وزارة المعارف بوضع نظام لخريجى البعثات يوجب ألا يظفر المتخرج فى البعثات بأية ترقية إلا بعد أن يترجم كتابين من غرر المؤلفات الأجنبية فى العلم الذى تخصص فيه .

وقد أقرت وزارة المعارف ذلك النظام وأعلنته إلى مبعوثيها فى المعاهد الأدبية والأمريكية ، ويقول المرجفون إنك ساعدت على تقويض هذا النظام بمعونة رجل من أصدقائك تولى وزارة المعارف ، وكان ذلك فيما يقال لأنه نظام اقترحه رجل اسمه زكى مبارك وأقره وزير اسمه حلمى عيسى باشا .

فهل يكون معنى ذلك أن الخير لايكون خيراً إلا حين تقترحه أنت ويقره وزير من أصدقائك ؟

إلى الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

صديقى :

حدثتنا مجلة آخر ساعة أنك سئلت عنى فأجبت : «لو أخلى زكى مبارك كتابته من الحديث عن النفس لكان أحسن مما هو الآن» .

وبمثل هذا أجاب الأستاذ عباس العقاد حين سألته عنى مجلة الاثنين ، فكيف تم التوافق بينك وبين صديقك فيما كتبتما عنى ؟

أهو من باب توارد الخواطر ووقوع الحافر على الحافر كما كان يقال ؟

أم هو موصول بقصة المسيو ديبون ؟ ... ومن ديبون؟

هو رجل فرنسى صنع شرابًا وسماه وأعلن عنه فى جميع البقاع الفرنسية فما تسير فى شارع ولا تدخل قهوة ولا تركب قطاراً إلا وجدت اسمه مسطوراً بأحرف كبيرة تبهر العيون ، ولم يكتف بذلك بل وضع لوحة مسجوعة بهذا الوضع الطريف Chez Dupon tout est bon .

وقد هالنى هذا الإسراف فى الإعلان فسألت صديقا فرنسياً عن السر فيه فأجاب :

ذلك رجل نفسانى وهو يعرف العادة المتبعة فى القهوات الفرنسية ؛

العادة التى توجب أن يسألك غلام القهوة عما تطلب قبل أن تجلس فتنطق بأكثر الأسماء وروداً فى بالك وهو : ديبون .

والأمر كذلك فيما يتصل بحياتى الأدبية ، فقد قال الدكتور طه حسين مرة : إن أكثر أدب زكى مبارك فى الحديث عن زكى مبارك .فلما سئل الأستاذ العقاد عنى وجد هذه العبارة فى باله فأجاب ، ولما سئل الأستاذ المازنى عنى وجدها فى باله فأجاب .

وهنا مشكلة لا أكتمها عنك وهى الخوف منك ، ولكن كيف ؟

أنا لا أبالى نقد الدكتور طه حسين إياى لأننى نقدته بالمائة مقالة ومقالة ، فمن السهل أن يقول الناس إنه ينتقدنى وفى نفسه أشياء .

وهل كتب الدكتور طه أقوى مما كتب فى الحديث عن طفولته وصباه ؟

إن تصوير هموم النفس وما يحيط بها من مخاوف وآمال هو أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء ، فما العيب في أن يكون الحديث عن النفس من خصائص أدبى ؟

وهل يمكن أن أتعرف إلى الوجود قبل أن أتعرف إلى نفسى ؟

وهل كانت روائع الأدب فى جميع الأمم إلا أحاديث نفسية ؟

وما هو سفر أيوب الذى ترجم إلى أكثر اللغات ؟

ألم تكن أصالته فى التعبير عن المخاوف الروحية ؟

وهل كانت أكثر القصائد الخوالد إلا إفصاحًا عن عواطف ذاتية ؟

قال ديكارت : أنا أفكر فأنا إذن موجود .

ومن معانى هذه العبارة أن الشعور بالنفس هو أساس الشعور بالوجود .

كتاب : رسالة الأديب [1]

إن من رسالة الأديب أن يتجه إلى آمال وطنة من حين إلى حين أو فى كل حين ، وفقاً لما يجيش بصدره من نوازع وميول ، ولكن من العقوق للأديب أن نجحد فضله إذا لم يجعل الآمال الوطنية قبلته فى جميع الأحيان .[2]

والقول الفصل فى هذه القصة أن رسالة الأديب هى خلق ذوق الحياة ، فمن الواجب أن تتجه مراميه جميعاً إلى ذلك الخلق فى أى صورة وعلى أى شكل .

وقد قلت مرات : إن الأديب الحق هو الذى يستطيع بقلمه أن ينقلك من ضلال إلى هدى أو من هدى إلى ضلال .

المهم عندى أن يقدر الأديب على خلق الفتن الروحية والعقلية ، بحيث تخرج من صحبته بمحصول جديد من القلق أو الاطمئنان .

رسالة الأديب هى خلق ذوق الحياة ، أو هى نصر الحياة على الموت ؛ والقليل من هذه الرسالة في هذا الاتجاه يصنع الأعاجيب فى إحياء الممالك والشعوب .

---

(١) رسالة الأديب كتاب صادر عن وزارة الثقافة فى الجمهورية العربية السورية / دمشق سنة ١٩٩٩ ، ويضم الكتاب عشرة فصول تحمل هذه العناوين : القلم البليغ ، الأدب والوطنية ، الأدب السياسى ، أدب الحرب والسلام ، الأدب فى الدين واللغة ، الأدب والشباب ، الأدب بين التصريح والتلميح ، أدب المعاش ، أدب الشواطئ وأخيراً من أقوال زكى مبارك .

(٢) مقتطفات من كلمة لزكى مبارك تحت عنوان : رسالة الأديب ، صفحة ٤٠ .

الأدب المكشوف : (١)

لما دخلت بغداد وجدت ناسا يرتابون فى أمانتى بسبب الطبعة الثالثة من كتاب : «حب ابن أبى ربيعة وشعره» وفى تلك المقدمة كلام قلته فى الدعوة إلى الأدب المكشوف .

أنا الذى جنيت على نفسى لأنى لم أبين المراد من الأدب المكشوف وما أردت إلا الصدق فى تصوير العواطف والأهواء وليكون ذلك مادة تنفع فى دراسة علم النفس .

ومن المستحيل أن أريد الدعوة إلى الفجور والمجون لأنى بحكم أعمالى الرسمية من رجال التربية ولأنى رجل متأهل وله أبناء ولأنى أتسامى إلى أكبر منصب من مناصب الخدمة الوطنية .

وما الذى كان يمنع من تحديد الغرض الذى قصدت إليه حين أثنيت على الأدب المكشوف ؟

منع من ذلك أنى اعتمدت على عقول بنى أدم وفيهم أذكياء .

ومن هنا جاء الغلط : فالجاحظ وابن قتيبة والثعالبى كانوا يعرفون أن مؤلفاتهم لم تصل إلا إلى المياسير من الخواص ، أما أنا فأعيش في عصر كثر فيه نقل المؤلفات من أرض إلى أرض ، ومؤلفاتى ذائعة ذيوعًا لم أكن أتوقع أن تصل إليه ، وقد يكون فى القراء من يخفى عليه أنى أدعو إلى مبادئ أخلاقية سامية أغشيها بالفتون كما يصنع الطبيب فى تغشية «البرشامة» المرة بغشاء من الحلواء .

وقد يكون لي خصوم يتخذون من أدبى ذريعة إلى إقصائى عما أطمح إليه من المناصب العالية ، وهؤلاء الخصوم قد يعرفون في سرائر أنفسهم أنى من أهل الصدق

(١) مقتطفات من كلمة لزكي مبارك عن الأدب المكشوف صفحة ٣٠٢ .

ولكن الخصومة لها طبائع سود وهى تحرف الكَلِم عن مواضعه بلا تهيب ولا استحياء

كان على أن أعتبر بما رأيت وسمعت ، كان على أن أعتبر منذ اليوم الذى أعلن فيه الدكتور طه حسين رأيه فى كتاب :

«مدامع العشاق» بمقال نشره فى جريدة السياسة وصرح فيه بأن كتاب مدامع العشاق يحرض على الشهوات .

ماذا أريد أن أقول ؟

أريد أن أقول : إن العقل يفرض أن نوضح أغراضنا فيما ننشر من رسائل ومؤلفات ، فلو أنى كنت أفصحت عن غرضى منذ أول يوم تصديت فيه للنشر والتأليف لأعفيت نفسى من متاعب القيل والقال .

لكن تجريح الأفراد غير تجريح الشعوب ، فمؤلفاتى حين تفهم فهمًا خاطئًا لا تضر أحداً غيرى وأراجيف المفسدين لها نتيجة صغيرة وهى إخراجى من خدمة الحكومة .

ولكن التجريح حين يوجه إلى أمة تكون له عواقب أفظع وأشنع فسكوت مصر عما يوجه إليها من تهم كواذب قد يعطل رسالتها العلمية فى الشرق فيضرها مرة ويضر الشرق مرتين ، لأن الشرق العربى يريد حقيقة أن يثق بأن له إخوانًا أشقاء فى مصر وهو يتأذى حين يوهمه المفسدون بأن العواطف العربية ليست إلا خداعًا فى خداع .

الآراء تبلى :[1]

يجب أن تنظر إلى آرائك كما تنظر إلى أثوابك ، فالآراء تبلى كما تبلى الأثواب ، والذى يعيش على رأى واحد قد يكون أجهل من الذى يعيش بثوب واحد ، فاحذر من العيش وأنت بالى الآراء ، وقد يعيِّرك الغافلون بالتنقل من رأى إلى رأى مع أنهم

---

(١) كلمة لزكى مبارك عن الآراء وتغيير الآراء صفحة ٣٠٦

لايعيرون من يلبس ثوباً بعد ثوب ، وإنما كان ذلك لأنهم يجهلون أن الآراء من صور الحيوية .

ولأنهم يتوهمون أن الثبات على الرأى الواحد من شواهد اليقين ، ولو عقلوا لأدركوا أن العين التى تنظر بأسلوب واحد هى عين بليدة لاتدرك الفروق بين دقائق المرئيات ، وكذلك يكون العقل البليد ، وهو الذى لايدرك الفروق بين المعنويات والمعقولات .

الأمر الأهم أن تكون أنت فى تحولك وفى قرارك فلا ينبغى أن تكون أداة للتعبير عن أوهام زمانك وبلادك ، أو أن تكون ظلاً لعظيم من العظماء أو حزب من الأحزاب .

محكمة الجنايات

أنا مسئول أمام محكمة الجنايات يوم الخميس المقبل بسبب تحية قدمتها إلى الأستاذ محمد عبد القادر حمزة بمناسبة سجنه ، والنيابة العامة عدت تحيتي تحبيذاً للجريمة .[١]

سأذهب للمحكمة أناقش وكيل النيابة بنفسى فى قضية صحفية تعقبتنى فيها النيابة العامة وأوقفتنى أمام محكمة الجنايات .[٢]

كان نقيب المحامين الأستاذ عمر عمر أبلغ رئيس المحكمة أنه حاضر للدفاع عنى، وسألنى القاضى عن عمرى وعملى ، ثم أشار سعادة القاضى بأن يتكلم وكيل النيابة العمومية فسرد تاريخ حياتى ثم قال : رجل هذا حاله لايجوز له أن يعطى الأحكام الأدبية جزافًا فيحكم بأن الأستاذ محمد عبد القادر حمزة كاتب له أسلوب .

وحكم القضاة العادلون بعد المداولة بأن أدفع عشرين جنيهاً غرامة ، ومعنى هذا أننى مدين .

---

(١) ١٩٤٧/٦/٣

(٢) ١٩٤٧/١٠/٢

أن أنا أعرض هذا السؤال على القراء : الأحكام الأدبية من حقي أو من حق وكيل النيابة ؟

لقد ظفرت بالليسانس فى الآداب سنة ١٩٢١ وذلك عهد بعيد ، وأخرجت مجلدات فى الأدب والفلسفة ، واشتغلت بتدريس الأدب العربى أربع سنين فى كلية الأداب ، وسنة بدار المعلمين العالية ببغداد ، وسنتين فى المعهد العالى لفن التمثيل ... وتلاميذى بحمد الله من رجال الأدب في مصر والعراق ، فإذا حكمت بأن الأستاذ محمد عبد القادر حمزة كاتب له أسلوب فهو حكم صدر عن قاض يملك الفصل فى القضايا الأدبية ، ولن تكون منزلة وكيل النيابة قريبة من منزلتى فى هذه الناحية ، ومن واجبى أن أحكم له بفصاحة الأسلوب ، فأنا أؤرخ الأدب وأقول الحق كل الحق ، ثم ماذا ؟

النيابة اعتبرت تحيتى للأستاذ محمد عبد القادر حمزة تحبيذاً لبعض الجرائم ، وفى التحقيق الذى أجراه معى الأستاذ محمد أمين حماد هذا السؤال :

أنت حييت رجلا حكمت عليه محكمة الجنايات . فكان الجواب :

أنا حييت الكاتب والصديق ، وهو كاتب بقلمه وصديق بقلبه وحكم محكمة الجنايات لم يغير رأيى فيه من هاتين الناحيتين .

إن وكيل النيابة الذى ساقنى إلى محكمة الجنايات بتهمة مادتين من مواد القانون الجنائى لأصطلى بنيران السجن شهراً أو شهرين . نسى أو تناسى أننى قضيت عمري كله فى السجون ؛ والأخلاق الكريمة سجون .

نهاية المطاف [1]

اسم المؤلف محمد زكى عبد السلام مبارك ، وكان فيما سمعت يحاول الوصول إلى الحق ، وطريق الحق كثير الأشواك والعقبات ، فلم يصل إليه إلا بعد أن أدمى قدميه إن صح أن الله أراد أن يكون من الواصلين .

وأنا مولود فى الخامس من أغسطس سنة ١٨٩١ فى سنتريس بالمنوفية ، رأيت أن أستقبل عيد ميلادى بقصيدة أصف بها كيف استقبلت نور الوجود : [2]

يا عـــيــد مــيــلادى قـــدمت	أهلاً وســـهـــلاً بـالحـــبــيـب
خـمــســون عــامــاً عـشــتـهــا	ســـتــــونهــــا منى قــــريب
لغـــة الكـتـــاب نشـــرتهـــا	كــالزهر فى الوادى الخـــصــيب
اســــمى هو اسم مـــحـــمـــد	من كـــاد يقـــتل فى الحـــروب
دفـــــعـــــــاً عن الدين الذى	من عــدله نـهــضت شــعــوب
بــالـديـن أو قــــــــــرآنـه	قـــد صــار فى مــصـــر أديب

(١) ١٩٥٠/٨/٦

(٢) بقية أبيات القصيدة على صفحات ديوان «قصائد لها تاريخ» .

العام الهجرى الجديد : (١)

أصبحت فرأيتنى أواجه عاماً هجريًا جديدًا ، هو أحد الأعوام فى حياتى ، وهو يبدأ بشهر المحرم فهو غير العام الميلادى ، وهو عندى يبدأ بشهر أغسطس وهو الشهر الذى ولدتنى فيه أمى .

ومن عادتى أن أحدث قرائى عما أديت من الخير لوطنى فى العام الفائت ، وأنا راض عما أؤدى من الخير لوطنى لأنى مشغول به فى كل وقت ، وأنا أخدم وطنى بخدمة اللغة العربية ، والقلم فى يد الكاتب هو السيف فى يد الجندى .

العام التاسع والخمسون : (٢)

كان عامًا طيبًا فقد أديت عملى فى التفتيش علي خير وجه ، وكتبت مقالات كثيرة للبلاغ كانت كلها جيدة لأنها عمل متعوب فيه يأخذ وقوده من سهر الليل وعرق الجبين، وأنا بحمد الله فى صحة قوية ، ولعل السر فى ذلك أن الله يمنح القوة لمن يخدم لغة القرآن .

ولعل الله يتفضل فيجعل عملى فى العام القادم أقوى من عملى فى العام الفائت .

العمر الضائع : (٣)

هو عمرى وأعمار أكثر الأدباء فى الشرق ؛ فأعمارنا تضيع بين المداراة والرياء ، ومن أجل هذا يقل فى أدبنا ذلك الجوهر النفيس : جوهر الصراحة والصدق .

---

(١) ١٩٥٠/١٠/٢٤

(٢) ١٩٥١/٩/٣

(٣) بعض السطور من مقال لزكى مبارك على صفحات مجلة الرسالة فى ١٩٤٠/٨/١٤

ويجب أن نسجل أن النوابغ فى الشرق لهذا العهد لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه بفضل تشجيع الجمهور أو تشجيع الوزراء ؛ فما نبغ نابغ فى الشرق لهذا العهد إلا بقوة ذاتية حمته وعصمته من كيد المخذلين والمعوقين ، فهم كالأشجار التى تنبت فى الصحراء ثم تصير بواسق برغم الظمأ والأعاصير .

لم أسمح لنفسى يومًا بالراحة باسم المرض ، ولم أشك لغير الله ما يعترينى من التعب فى بعض الأحيان ، فبينى وبين الله عهود ومواثيق والعهد بينى وبينه أن أقضى العمر ساجعًا فوق ما أبدع من أفنان الجمال ، فأنا واثق بأن العافية لن تضيع من يدى ، وهل يرضى الله أن أسجع سجع الجريح ؟

من المستحيل أن ينفصم ما بينى وبين الله من عهود ومواثيق .[١]

لقد هذبت ألوفًا من التلاميذ وأدخلت البهجة على ملايين العقول فى المشرقين والمغربين ، وأنا مع ذلك أتشهى أن يكون لى من صلبى ولد نجيب .[٢]

فإن صح رجائى فى بعض أبنائى أو فى جميع أبنائى فتلك نعمة من الله .

وإن خاب رجائى فى بعض أبنائى أو فى جميع أبنائى فتلك أيضًا نعمة من الله .

ألم يجرب الله إيمانى فابتلانى بأخطر الأرزاء والخطوب ؟

لقد طوفت بالشرق والغرب فى الدفاع عن لغة القرآن :

لقد ابتدعت مئات الأقاصيص لأحبب الناس فى لغة القرآن .

لقد تفردت بالزهد فى الوصولية لأقيم الشاهد على أن الواثق بربه لايضيع .

لقد وفيت لكل من عرفت لأخلق لوطنى أصدقاء ، فقد كنت أسمع أن حب الوطن من الإيمان .

---

(١) بعض السطور من مقال لزكى مبارك على صفحات مجلة الرسالة فى ١٩٤٢/٦/١٤ .

(٢) من مقالة على صفحات كتاب « وحى بغداد » صفحة ١٥٢ .

لقد أدخلت البهجة على جميع ما عرفت من القلوب ، فكيف يصل الحزن إلى قلبى عن طريق بعض الإخوان أو بعض الأبناء ؟

رباه !

أنت تعلم كيف خلقتنى وكيف سويتنى فاكتبنى عندك من الشهداء .

كشف حساب : [١]

من عادة أصحاب المتاجر الكبيرة أن ينظروا فى دفاترهم فى ختام كل سنة ليعرفوا مالهم وما عليهم ، فماذا غنمت وماذا كسبت فى السنة الماضية ؟

نظرت فوجدت أن أعظم الغنائم هى مقالاتى فى البلاغ ، وهى مقالات أعتصرها من عقلى وقلبى وبيانى ، وأنا أشعر بأن شبابى يعود حين أقرأ لنفسى مقالة جيدة فى البلاغ .

ومن غنائم السنة الماضية أننى راجعت أكثر ما فى مكتبتى من المؤلفات العربية والفرنسية فأمتعت عقلى بزاد جديد .

ومن خسائر العام الماضى فقد جماعة من أصدقائى ، ولو أنهم ماتوا موتًا حقيقيًا لبكيت عليهم ورثيتهم بالقصائد الجياد ، ولكنهم ماتوا موتًا معنويا فماتت منزلتهم فى فؤادى .

لقد غدر بى كثير من أصدقائى غدراً بغيضاً فتجاهلت أنهم غدروا بى ومضيت فى طريق الوفاء وهو طريق محفوف بالأشواك .

وأنا صديق محبوب بفضل الصدق ، وشعارى فى حياتى هو أن لايندم إنسان على أنه عرفنى ؛ فأنا معروف بالوفاء وهى فضيلة ليست سهلة لأنها تحتاج إلى تماسك شديد ، والفضائل أثقال ثقيلات .

---

(١) ١٩٤٨/١/٦

أين أنا يا رباه ممن أحنو عليهم وأذيب فى حبهم لفائف الفؤاد ؟ [1]

وما يدرينى لعلى منسى من جميع من أشتاق إليهم وأبدد بذكرهم لجب النهار وهدوء الليل ؟

لاتزال عندى من الشوق بقايا فهل عند من أهواهم من العطف بقية ؟

أم أقضى العمر فى التغنى بقول بعض الشعراء : [2]

سيذكرنى الناسون حين تشوكهم — شمائل من بعض الخلائق سود

سيذكرنى الناسون حين تروعهم — صنائع من ذكرى هواى شهود

فوالله ما أسلمت عهدى لغدرة — ولا شاب نفسى فى الغرام جحود

ولا شهد الناسون منى جناية — على الحب إلا أن يقال شهيد

عام جديد : ١٩٥١/١/٩

نتوكل على الله ونسبح فى عباب هذا العام الجديد ... وأنا لا أهاب شيئًا ، ولا أتخوف من شىء ، فالله أعاننى على مصائب كانت قديرة على أن تصيرنى هشيمًا تذروه الرياح .

وصحتى تقوى من يوم إلى يوم لحكمة يريدها الله : وهى خدمة اللغة العربية .

العام الجديد : ١٩٥٢/١/٥

إنه يبدأ يوم الثلاثاء فيذكرنى بقصيدة : «غرام يوم الثلاثاء» وقد غنيتها بصوتى فى محطة الإذاعة ، ولا يزال الشريط موجودا فمتى يسمع الناس صوتى وأنا أغنى؟ متى ؟

---

(١) من على صفحات كتاب . «ذكريات باريس» كتاب الهلال سنة ٢٠٠٢ صفحة ٢٩٤

(٢) شعر زكى مبارك .

كنت أصم أذنى عمن يسألون عنى فى باريس وفى بغداد لأفرغ لما أسموه الواجب ، فليتنى أجبت الدعوة فى باريس وفى بغداد لآخذ ذخيرة من الحب والعطف .[1]

هذا وطنى : الوطن الذى عانيت من أجله ما عانيت ولم أخنه فى سر ولا فى جهر، ولم يرمنى غير الصدق والوفاء .

أحبك يا وطنى ، أحبك يا بلادى ، حب لاينتظر أى جزاء لأنه أعظم من أى جزاء .

لم أسمح لأحد بالفكر فى شراء ضميرى ؛ فالحياة أهون من أن يباع فيها ضمائر الرجال .

إن الذخيرة الباقية فى حياتى هى أننى أعيش بروحى وقلمى إنه روح لطيف وقلم نظيف ... فما استطاعت حكومة مصرية أو غير مصرية أن تستأجر قلمى .

قلمى : والحياة مد وجزر	ومساء يمضى فيأتى صباح
زمن الحرب ليس عهد كفاح	فى عهود السلام يرحى الكفاح
زمن الحرب أمره لأناس	هم كباش جهادهنَّ نطاح
قلمى أنت مشرط وزمانى	طبُّه من جواه هذا السلاح

يا فؤادى شهدت حربين فاقنع	بالذى قد شهدته من خطوب
وتعال استمع لآيات روح	هو من صدق حبه فى كروب
إن عيشى تغتاله خطرات	هى رمى العيون حبَّ القلوب
أنا قلب لا أبالى زماناً	ضاع حظى فيه وضاع نصيبى

(١) على صفحات مجلة الرسالة فى ١٩٣٨/٨/١٥ والأبيات من شعر زكى مبارك .

ماذا يصنع معى يوم الثلاثاء ؟ [1]

إن لى مع يوم الثلاثاء تاريخًا وتواريخ ... وقد عرضت على الأستاذ محمد عبد القادر حمزة مفكرة غريبة سجلت بها صفحات من حياتى سنة ٣٦ و ٣٧ و ٣٨ وفى المفكرة هذه الكلمات بتاريخ ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٧ .

طلبت من المفوضية العراقية أن يكون السفر يوم الثلاثاء المقبل فطلبوا تعديل التذاكر ، والله هو الموفق .

ولم أكن أعرف أن لى قصيدة فى يوم الثلاثاء نظمتها قبل ذلك التاريخ بأعوام طوال :

إلى [2]

ما الذى أنكرت منى	فى مساء الثلاثاء
حين نام الدهر عنا	وتولى الرقباء
أنا لا أذكر شيئاً	يقتضى هذا الجفاء

أسافر فى يوم الثلاثاء ليتنى	سأعرف ما يوم الثلاثاء يفعل ؟[3]
تباركت يا يوم الثلاثاء وانقضت	دهور وأنت المنعم المتفضل
عزيز على يا يوم الثلاثاء أن يرى	غرامى عن «مصر الجديدة يرحل

---

(١) ١٩٤٦/٧/٢٤

(٢) الأبيات من قصيدة على صفحات ديوان زكى مبارك الذى صدر ١٩٣٢ ، والقصيدة بتاريخ مارس ١٩٢٤

(٣) بقية أبيات القصيدة على صفحات ديوان ألحان الخلود .

أنا مسافر إلى الإسكندرية فهنئونى يا قرائى ، وسأرسل إلى البلاغ مقالة أصور بها آلامى فى حياتى.[1]

فعل سافر معناه قطع الرجل جزءاً من حياته ، وأنا بهذا أقطع أجزاء من حياتى لأنى مفتش المدارس الأجنبية بالمملكة المصرية .

قل كما شئت و .. واحلف يا عزول   كل كـــرب بعـــد يوم ســيـــزول [2]

زكى مبارك

....

(١) ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، وهذه مقتطفات من مقالة لزكى مبارك نشرت بعد رحيلة إلى عـالم البقـاء ، فقد رحل فى ٢٣ يناير سنة ١٩٥٢ .

(٢) هذا البيت من قصيدة للشاعر زكى مبارك نشرت سنة ١٩٥١ فى ٢٢ يناير : أى قبل عام من رحيل زكى مــبارك ، فــهل كان زكى مبارك يتنبأ بأن الكرب سيزول ، وأن يوما فى عمر الشاعر هو عام فى عمر الزمان ؟

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

الموضـــوع	الصفحة

المراجـعـة اللغـوية : **نجاة على**

الإشـــــراف الفنى : **نسرين كشك**

يضم هذا الكتاب صفحات من أيام زكى مبارك التى عاشها فى سنتريس وفى القاهرة وفى باريس وفى بغداد .

يقول زكى مبارك : قلبك لوطنك وعقلك لوطنك وهواك لوطنك فلا تشرك به أحداً، ولا يخطر ببالك أن فى الدنيا جمالاً أنضر من جماله أو حِمى أعز من حماه ، وإن تناوشه الطامعون من كل جانب فسيظل وطنك وحدك ولن يكون لأعدائه غير العذاب فى ميادين القتال وبئس المصير .



